الغرائز

إعداد وتقديم
خليل حنا تادرس



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: الغرائز

اسم المؤلف: خليل حنا تادرس

رقم الايداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٣

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ١ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة

شيء ما فى أعماقنا يقودنا ويوجهنا..

شيء ما يسرى فى عروقنا سريان النار فى الهشيم . يتحكم فينا ويُسدد خطانا .

شيء ما ..

شيء مقدس أودعه الله فينا كجزء من كياننا . أو هو المحرك الذى يدير حياتنا. ويتحكم فى حاضرنا ومستقبلنا .

شيء ما .. كالحواس .. أو الأعضاء .. أو القلب ..

شيء له أهمية عظمى فى تكويننا النفسى والاجتماعى والأخلاقى.

شيء نحس به ونلمسه ، ولكننا لا نراه كأعضاء الجسم ..

قوة غامضة لا شعورية تهيمن وتسيطر على توجيهاتنا وتتحكم فى سلوكياتنا وتصرفاتنا وتقدمنا.

هذا الشيء المقدس . الجوهرى . البذرة التى غرسها الله فى كياننا والتى ينبغى أن نهتم بها ونرعاها ونرويها من ينبوع حياتنا حتى تنبت وتكبر وتزدهر وتؤتى ثمارا طيبة.

هذا الشيء المقدس.. يسميه علماء النفس بـ.... الغرائز ...

والغرائز هذه موجودة فى الإنسان والحيوان ومتعددة ومتباينة فى إنسان عن آخر. أو فى حيوان عن آخر. أو طير عن آخر..

قد تكون هذه الغريزة مفيدة أو ضارة . موجبة أو سالبة . مدمرة تقود بصاحبها إلى الهلاك. أو بناءة تسمو بصاحبها وتدعو الناس إلى تبجيله واحترامه.

عندما واتتنى هذه الفكرة – فكرة إعداد هذا الكتاب – راحت تتهافت على ذهنى وتلح وتراودنى بشدة. وجدت نفسى أمسك بالقلم وأسجل كل ما يتهافت علىّ وأستعيد كل ما قرأت فى هذا الموضوع.

ولا أخفى عليك عزيزى القارئ، أننى قد استعنت بعشرات الكتب والمراجع العلمية والأدبية والدينية، كى أقدم لك هذا الكتاب المتواضع وأنا فى اعتقادى، وكل أملى أن هذا التوضيح المبسط بين صفحات هذا الكتاب سيساعد من يعانون من فقدان التوازن النفسى بين القراء فيتداركون أنفسهم قبل أن تتطور حياتهم إلى ما يسمى بالانهيار العصبى.

وسأوضح أيضا أن سلوكنا المبنى على الفهم النفسى يمكن أن يساعد إلى حد كبير على مداواة متاعب الآخرين النفسية وتقليل مصادر شقائهم وإدخال الطمأنينة عليهم. والطمأنينة والثقة هما باب السعادة المفقودة لدى كثيرين.

إن الكثير من سلوك الناس يبدو غير واضح أو مفهوم، فهناك من يثورون دون سبب عند التعامل معهم، ولكن الواقع أن هناك سببا بلا شك لثوراتهم وغضبهم. ولكن هذا السبب مصدره دخيلة نفوسهم. فإذا عرفنا ذلك لم نشاركهم فى ثوراتهم. بل سنعمل على معاملتهم المعاملة التى تعالج علتهم الداخلية. فيتغير سلوكهم ويؤدى ذلك إلى حد بعيد إلى تماثلهم للشفاء النفسى. وجدير بنا أن نتذكر جيدا المثل القائل: « درهم وقاية، خيرٌ من قنطار علاج » فنحن إن عرفنا المرض وبدء سريانه فى الجسم أو النفس وقمنا بعلاجه من أول انتشاره على يدى المتخصصين النفسانيين استطعنا أن نضمن الشفاء التام لمريضنا المحبوب، وأن نضمن السعادة فى حياتنا الأسرية.

وفقنا الله .. وأرجو أن أكون قد وفقت فى كتابى هذا ..

وختاما؛ تقبل أسمى تحياتى

خليل حنا تادرس

الفصل الأول

ما هى الغرائز؟

أريد الآن أن نناقش بعض وجوه النشاط العقلى الهامة. فإذا كنا نريد أن نتعلم السيطرة والتحكم فى عقولنا فيجب أولا أن نعرف هذه القوى التى تسرى فى جوانب الشخصية كى نعرف كيفية التعامل معها.

وعندما نفكر فى الغرائز، وهى مصدر تلك القوى الرهيبة الصعبة القياد سواء عالجناها بالإرادة أو بالعقل، يخيل إلينا أنها أشبه بنهر جارف التيار من الطاقة النفسية يتشعب إلى قنوات متعددة تيارها جميعا شديد العنف.

والغرائز المختلفة هى تلك القنوات المختلفة التى تتدفق من خلالها تلك الطاقات الأولية للعقل. ولكننا سنرى فيما بعد أن هذه القنوات قد تغوص أحيانا بمجاريها تحت الأرض بعيدا عن الأنظار، فتكون بمثابة لغم يهدد أساس الشخصية إلى درجة خطيرة، ويعرض بنيانها مهما ارتفع للانهيار. ومن الجائز أيضا أن تسد مجارى تلك القنوات، فيقف تيار بعضها ويركد ويأسن، مثل ماء المستنقعات الكريهة. أو يتحول تيارها بسبب السدود فى اتجاهات مخالفة للطبيعة، فيحدث الشذوذ الذى يتأذى منه المجتمع إن لم يتضرر منه الشخص نفسه. فمن الضرورى إذن أن نلم إلماما معقولا بحقيقة الغرائز.

إن كلمة غريزة من الكلمات التى يسوء استعمالها فى كثير من الأحيان، فتوضع فى غير موضعها. نسمع مثلا شخصا يتكلم عن «الغريزة السياسية». وإننا لنحمد الله أنه لا وجود لغريزة بهذا الاسم، وإلا لما استطعنا أن نمنع الناس جميعا من أن يكونوا ساسة.

ونسمع أحيانا من يتكلمون عن الدين باعتباره غريزة، فيقولون الغريزة الدينية. وبعض جذور الدين تمتد إلى أعماق الغريزة. ولكن الدين ليس غريزة بمعنى الكلمة، ووجود الديانة لدى جميع السلالات البشرية ليس دليلا على أن الدين من معدن الغرائز. وكل ما هناك أنه ملكة عامة بين الناس، فهو ليس كالجوع الذى هو غريزة لا شك فيها. ومن كان فى شك من هذا، فأنا أدله على تجربة لا يحتاج بعدها إلى مزيد من الإقناع. فليمتنع عن تناول الطعام يومين كاملين إن استطاع، ثم يختبر مبلغ جوعه، وسيجده قد ازداد ساعة بعد ساعة. أما إذا ترك الصلاة فترة من الزمن، فسيجد أن ميله لأداء الصلاة يقل يوما بعد يوم. أى أن الأمر فى الصلاة على عكس الأمر فى الجوع، مما يدل على أن الصلاة عادة تكتسب وتفقد. أما الجوع فليس عادة تحتاج إلى اكتساب وتتعرض للفقدان. إنه غريزة.

إن العادة أو الملكة تزداد بالمثابرة والممارسة وتتناقص بالإهمال. فالموسيقى ملكة، والتعبد ملكة، والفنون كلها ملكات. أما الغرائز فلا اختيار للإنسان فيها، تجبره على إشباعها. إن أهملها زاد إلحاحها عليه، ولا يعلمه إياها أحد لأنها تفرض نفسها بغير تعليم.

ففى استطاعتنا إذن أن نعرف الغريزة بأنها دافع فطرى يولد به الإنسان. وهذا الدافع مشترك بين جميع العقول، لا يكتسبه الإنسان بالتعلم ولا يتخلص منه بالترك.

وهناك تعريف آخر للغرائز، بأنها دوافع أولية. تعتبر المصدر لجميع الميول الفطرية. والميول الفطرية هى التى لا تتولد عن التجربة، ولا تحتاج إلى تعلم، بل تنبع من اللاشعور. وهى من أهم القوى المحركة أو الدافعة للشخصية الإنسانية.

والعلامة « مكدوجل » فى كتابه « مجمل علم النفس ». وأيضا فى كتابه « علم النفس الاجتماعى » يقدم قائمة بترتيب الغرائز على النحو التالى:

١ – غريزة الأبوة أو الأمومة.

٢ – غريزة المقاتلة.

٣ – غريزة الاستطلاع.

٤ – غريزة الجوع.

٥ – غريزة التقزز أو النفوز.

٦ – غريزة الهرب.

٧ – غريزة القطيع.

٨ – غريزة تأكيد الذات

٩ – غريزة الخضوع.

١٠ – غريزة التناسل.

١١ – غريزة التملك أو الاقتناء.

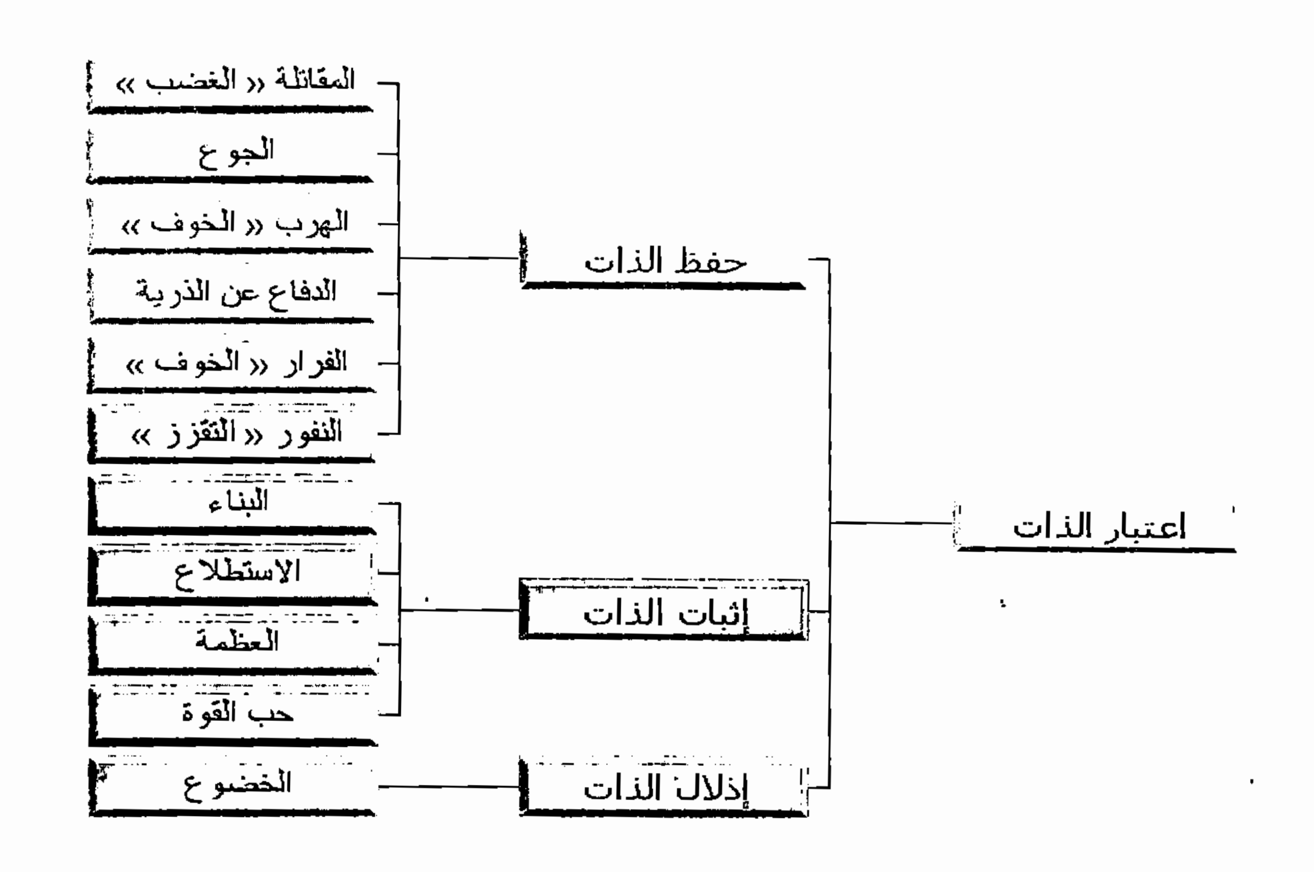
١٢ – غريزة البناء.

وقد رجعت إلى كتب أخرى من أمهات المراجع فى علم النفس، فوجدت هذه القائمة تتغير بين كاتب وآخر. ومن المؤلفين من تصل القائمة عنده إلى نحو أربعين غريزة. وأنا أرى مراعاة للبساطة أو ابتعادا عن التعقيد، ومن غير اعتداء على الدقة

أن نرد هذه الغرائز كلها إلى ثلاث من الغرائز الكبرى أو أمهات الغرائز. وهى غرائز الذات، والجنس، والمجتمع. ومن كل منها تتفرع غرائز جزئية يمكن اعتبارها وجوها أو نزعات مرتبطة بالغريزة الأم. وسنلاحظ بعد ذلك أن هناك انفعالات أو مشاعر، ليست غرائز فى حد ذاتها، ولكنها مرتبطة بالغرائز. فالخوف مثلا كثيرا ما يوصف بأنها غريزة، والحقيقة أن الخوف ليس غريزة بل هو انفعال غريزى.

وستتناول هذه الغرائز الثلاث الكبرى، ونقسمها أولا إلى وجوه نشاطها المختلفة. وفى الخطوة التالية نقسم وجوه النشاط تلك إلى الميول المختلفة المرتبطة بها، ونشير إلى الانفعالات المميزة المرتبطة بهذه الميول ذات الأصل الغريزى. فمثلا الغريزة الأم التى نسميها غريزة الذات، أو اعتبار الذات يتفرع منها ما يسمى حفظ الذات. ومن حفظ الذات، يتولد الميل إلى الهرب. ويرتبط بهذا الميل إلى الهرب، انفعال مميز هو الخوف.

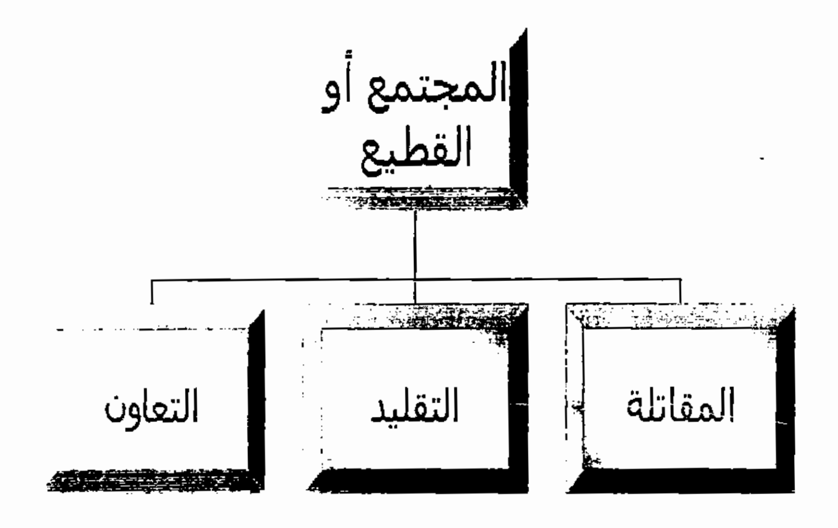
وعلى هذا الأساس، ستكون لدينا ثلاثة جداول إيضاحية إجمالية لأمهات الغرائز الثلاث، وما يندرج تحتها ويتفرع منها. ولعل هذه الأشكال التوضيحية أقرب إلى الأذهان من الأوصاف اللفظية.



اعتبار الذات
حفظ الذات
إثبات الذات
إذلال الذات
المقاتلة « الغضب »
الجوع
الهرب « الخوف »
الدفاع عن الذرية
الفرار « الخوف »
النفور « التقزز »
البناء
الاستطلاع
العظمة
حب القوة
الخضوع

الجنس

التناسل	التباهي	الميول الوالدية
الجماعة «الرغبة»	الاستطلاع	الشهامة	أمومة + أبوة



ومن هذه الجداول الثلاثة، نرى أن هناك أنواعا من النشاط الغريزى لها اسم واحد، لكن مصادرها مختلفة وعملياتها العقلية مختلفة. فإذا حطم غلام ساعة، بأن فك أجزاءها ولم يعرف كيف يعيد تركيبها. أو نظر من ثقب مفتاح الحمام أثناء استحمام الخادمة، فسنقول فى الحالتين أنه محب للاستطلاع. ولكن مصدر هذين الفعلين الغريزيين مختلف. فهو فى حالة فك أجزاء الساعة مدفوع بطلب المعرفة كى يبنى بها نفسه أو يثبت ذاته. فهذا النشاط مصدره غريزة اعتبار الذات. أما عندما يختلس النظر من ثقب مفتاح الحمام إلى جسد الخادمة العارى، فاستطلاعه ذو أصل جنسى لا محالة. وكذلك استطلاع الطفل الجائع لما فى داخل آنية الطعام أو دولاب المطبخ له أصل ثالث.

وإذا اعتبرنا حالة مكتشف هاجمته الذئاب فقاتلها، فعمله هذا صادر عن حفظ الذات الذى هو وجه من وجوه غريزة اعتبار الذات. أما فى الجمعيات العمومية، فقد نجد شخصا يصوت ضد إجراء معين، لا عن اقتناع، بل لأنه يرى بقية الأعضاء ضد هذا الإجراء، وهو أجبن من أن ينفرد دونهم فى الرأى. فمقاتلته فى هذه الحالة صادرة لا عن حفظ الذات، بل عن غريزة القطيع وما يتفرع منها من الضغط العام. وأما قتال الوالدين دفاعا عن ذريتهما، فنوع ثالث من المقاتلة وإن كان يحمل نفس الاسم الذى أطلق على سلوك الرحالة وسلوك عضو الجمعية العمومية المذكور آنفا.

وأرجو ألا يغيب عن الأذهان أنى استخدم كلمات الذات والجنس والمجتمع بأوسع معانيها. وسنرى على أساس هذه الجداول، كيف نفسر الدوافع والانفعالات أو العواطف المميزة المرتبطة بأمهات الغرائز وبالميول ذات الأصول الغريزية.

وهناك قصة مشهورة عن رجل متقدم فى السن كان يسير فى حارة متوكئا على

عصاه، عندما فطن إلى ثور هائج قادم من خلفه. فإذا به يتسلق شجرة بسرعة البرق. وبعد زوال الخطر اكتشف أنه عاجز عن النزول، وتعجب كيف تسنى له الصعود بهذه الخفة والرشاقة.

والتفسير بسيط إذا حللنا سلوكه على ضوء الجدول الأول. فإن «الذات» قد استثيرت من ناحية « حفظ الذات ». وتولد منها على الفور الميل إلى الفرار. وكان الانفعال المميز المسيطر فى هذه الحالة هو الخوف. فجندت قوى الجسم كلها مؤتمرة بهذه القوة اللاشعورية الجبارة، فكانت الحركة البهلوانية التى تشبه المعجزة.

وقد يكون من مصادر التسلية الطريفة للقارئ أن يحلل على هذا المنوال جميع الحوادث التى يظهر فيها السلوك الغريزى بوضوح.

ومن النادر أن تكشف الشخصية عن نشاط فى مثل عنفوان نشاط الانفعال الغريزى، عندما يسعى لتحقيق هدفه. فما من إنسان مهما بلغ به التعب لا ينسى تعبه ويندفع خفيفا من فراشه عندما يسمع الصيحة المفزعة « النار!. الحريق!. ». وما من امرأة يمكن أن يحول التعب بينها وبين السهر طول الليل لتمريض ولدها. والاستطلاع يستغرق اهتمام الباحث أو المكتشف، فينسى مرور الساعات، ويجور على حق الطعام وحق النوم وهو لا يدرى. والوحشة قد تدفعنا إلى التماس الصحبة ولو كانت صحبة سوء.

إن جميع هذه الطاقات كثيرا ما تبدو أقوى من طاقات الإرادة الواعية، وكثيرا ما تكون لها الغلبة عليها.

الفصل الثانى

النوافذ المعتمة

أسند الأستاذ مجدى ظهره إلى وسادة المقعد الطويل الذى يستخدم مضجعا عند اللزوم فى حجرة مكتبه، وشبك يديه وراء رأسه. وعندئذ لمحت الدموع تترقرق فى عينيه. وفى اللحظة التالية كان مرفقاه فوق ركبتيه ووجهه بين يديه. وأخذ كتفاه يرتجفان سراعا من تأثير نشيجه العميق.

ولم يكن هناك صوت آخر فى الحجرة الهادئة سوى دقات ساعة صغيرة فوق الرف وراء رأسه. ورق قلبى له، ولكنى كنت أعلم أن وقت الكلام لم يحن بعد. وقت كلامى أنا على الأقل. أما هو فالكلمة له، سواء اختار أن تكون كلمته نحيبا أو لفظا مفهوما.

تركته يبكى كما شاء. إلى أن هدأت ثائرته، فقال أخيرا:

- لقد غلبت على أمرى.. لم يعد فى استطاعتى المضى فى حياتى، حتى طبيبى نفض يده منى بعد أن أعياه أمرى. فحصنى وأعاد فحصى أكثر من عشر مرات، وفى كل مرة يقول لى: أنه لم يستطع أن يتبين عندى علة معينة. وأفرغت فى جوفى لترات بعد لترات من الدواء، فلم أجد لذلك أثرا. وحاولت أن ألتمس لدى الصلاة إصلاح شأنى المضطرب، فلم أجد لذلك أثرا. ولجأت إلى طبيب آخر، فلم يجد بى شيئا ونصحنى بالإكثار من الخروج إلى الخلوات، والتنزه والمرح ومخالطة الناس والتماس كل سبيل للترويح عن النفس، وأن أفض من ذهنى الاعتقاد بأنى

عليل. فما بى من على غير توهم العلة. وغاظنى منه ذلك الرأى. فكدت أقذفه من شدة الحنق بأى شيء تصل إليه يدى. فبعث بى إلى أخصائى فى الأمراض العصبية، وفحصنى ذلك الرجل بعناية فائقة. واستخدم فى الفحص أجهزة كثيرة. ثم دق بيده على ظهرى، وأكد لى أنه ليس بى شيء وعلى أن أستجمع عزيمتى وأطرد فكرة المرض من ذهنى. وتقاضانى مائة جنيها كاملة عن هذا الرأى.

وكم أتمنى لو وصلت يدى إلى جميع أولئك الذين وجهوا إلى هذه النصيحة كى أجبرهم على معاناة الجحيم الذى أعيش فيه منذ شهر نوفمبر الماضى. وهو جحيم لا يكفى لإلغاء وجوده وإعفائى من عذابه أنهم لم يستطيعوا اكتشاف آثاره بأجهزتهم وفحصهم الطبى. وهل يظن هؤلاء أن شابا ناضجا مثلى له زوجة وولدان يجد تسلية ومتعة فى تصنع الشكوى؟. وهل يظنون أننى كنت أشكو وأتألم لو أنه كان فى استطاعتى أن أمرح وأستمتع بوقتى؟. وهل أنا لم يكن ينقصنى إلا نصيحتهم كى أسعى إلى المرح والبهجة؟. إن رئيسى فى العمل عجز عن فهم حالتى. وكل ما استطاعه فى هو السماح لى بأجازة طويلة، قضيتها فى الريف هائما على غير هدى، أبحث عن شيء لا أجده لأنى لا أدرى ما هو. وانتهت الأجازة من غير أن يطرأ على تحسن، بل عن هذا الفراغ أتاح لى مائة فرصة أخلو فيها إلى نفسى وأحلل حالتى ومشاعرى. حتى أسلمنى هذا إلى رعب حقيقى. وهاأنذا الآن قد جئت إليك، وأنا أرى فيك الأمل الأخير. فهل تستطيع أن تصنع لى شيئا؟.

وسكت قليلا حتى هدأت أنفاسه، ثم قلت له بأناة:

– أعدك ألا أطلب منك أن تستجمع عزيمتك وتتجاهل حالتك. وأعدك أيضا ألا أضحك من مخاوفك وتصوراتك إلى أن يتسنى لك أن تضحك منها معى.

– وماذا تريد منى أن أصنع إذن؟.

– إن ما سنصنعه هو هذا. سنجتمع معا عدة مرات. وفى غضون هذه

الاجتماعات، ستكون الكلمة فى معظم الوقت لك أنت. واجتماعنا الأول سيكون يوم الأربعاء القادم بعد الظهر، فى نفس هذه الحجرة. وستجلس أنت فى نفس هذا الموضع، وستشرع فى إخبارى بقصة حياتك بالطريقة التى تتراءى لك. وستبدأ قصتك بأول شيء تستطيع أن تتذكره عن نفسك، ثم تمضى على مهل مستعرضا أيام الطفولة، ثم أيام المدرسة، ثم أيام المراهقة، ثم تجاربك الأولى فى العمل، ثم ذكريات الخطوبة والزواج. وهكذا إلى يومنا هذا. وستهتم على الخصوص بسرد جميع أنواع المخاوف التى انتابتك وأنت طفل. ستذكر لى كل شيء من الأشياء التى أفزعتك أو صدمتك، وكل الأشياء التى كنت تكره نفسك لإقدامك عليها أو لعدم إقدامك عليها، وتتدرج إلى الحديث عن حياتك الجنسية، وآرائك الدينية ومثلك العليا، ومواطن فشلك وحسرتك وغيرتك، ولا تنس الأحلام التى علقت بذاكرتك واستقرت بها فلم يطمسها النسيان. ستجلس هنا وتلقى بهذا كله. تفرغه من نفسك وأنا مصغ إليك. وقد أسجل ملحوظة أو ملحوظتين.

– ولكن هل هذا يكفى؟. الطبيب يقول: أن أعصابى هى السبب.

– سأتحدث إلى طبيبك فى هذا الأمر، وربما تكون أعصابك متأثرة بحالتك. ولكن تعب أعصابك نتيجة لما تعانيه، وليس السبب فيما تعانيه. إن عقلك الباطن فريسة لصراع يسبب لك عدم التوازن فى حياتك

– أتعنى أن مخى..

فقاطعته بسرعة قائلا:

– ليس لمخك شأن بهذا. فمخك سليم مائة فى المائة، وليس هناك أى خوف من إصابتك بالجنون. ولكن العقل الباطن حين يكون مسرحا لمشكلة أو صراع، فإنه يؤثر كثيرا فى الجهاز العصبى قبل أن يمتد تأثيره إلى أعضاء أخرى من الجسم. وقد يكون الصراع الذى فى العقل الباطن عميقا جدا، مختفيا فيما نسميه اللاشعور. وقد

يكون هذا الصراع نزاعا بين شخصياتك المختلفة الموجودة داخل اللاشعور.

- شخصياتى المختلفة؟.

- نعم.. نعم.. فللإنسان الواحد أكثر من شخصية إلى جانب الشخصية الظاهرة التى تعبر عن نفسها بطريق العقل الواعى. وهذه الشخصيات المختلفة المتعددة تكمن تحت القشرة الخارجية لشخصيتنا الواضحة الظاهرة، وتتنازع السلطان فيما بينها. ولذا فهى تحتاج إلى عمليات توفيق وإصلاح ذات البين. ويجب قبل أن نوفق بينها أن نعترف بوجودها ونواجهها، ونحاول الوصول معها إلى تفاهم. وقد تكون حالة النزاع عنيفة حدة أو مزمنة فتحتاج إلى تحليل يستغرق شهورا. وقد يكون النزاع غير عنيف وقريبا من سطح الشعور الواعى. فيسهل الوصول إليه واستخراجه. وسوف نتبين هذا كله بالمحاولة عندما تبدأ فى رواية ذكرياتك وتذكر قول مكدوجل: إن القانون الأول فى الصحة النفسية هو أن تعرف نفسك، وتذكر أيضا حكمة « وليم جيمس » التى تنادى بضرورة استخراج العفونة من داخل النفس بطريق الإفضاء والبوح. ولهذا يجب أن نواجه عناصر الموقف بثبات فنحسم بذلك الخطورة، ونقضى على الصراع.

وتلت ذلك أكثر من عشر جلسات، أفرغ فيها الأستاذ مجدى محتويات ذهنه. وروى لى أحلامه وهو مستلق على المضجع، وجميع أعصابه مسترخية. فهو لا يتكلم بل يفكر بصوت مرتفع، ويهمس بأى خاطر يهجس بباله.

واتضح فيما بعد أن حالته تشبه حالة معظم المصابين بالقلق النفسى، وأن لباب نفسيته سليم وبصيرته سليمة. ولكنها لا تستطيع أن تتبين الطريق لأن نوافذ هذه النفس التى تطل منها على العالم معتمة. زجاجها تغشيه طبقة من الدخان، فلا ينفذ منها الضوء ولا البصر. ومكمن العلة أن الشخص فى هذه الحالة قد لا يعرف كيف ينظف تلك النوافذ المعتمة، فيظن أن العالم مظلم. مع أن المظلم هو زجاج نافذته، وبمجرد تنظيف هذه النافذة سيتغير شكل العالم تماما ويتغير إحساسه به.

وكان الأستاذ مجدى قد شكا إلى أنه قد حاول الاستعانة بالدين فلم يجد لذلك فائدة ملحوظة. وليس معنى هذا أن إحساسه الدينى بليد، أو أن الدين لا يفيد الروح ولا يهديها، فإن قوة الشمس العظيمة قد تحجب أشعتها سحابة سوداء. ولكن إذا وجدت أية ثغرة بين السحب، فإن الأشعة تنصب فوقنا بكل بهائها.

وكذلك أنوار الإيمان بالله، مهما كانت قوية، ربما حجبتها عن الشخص نافذة معتمة تراكم على زجاجها الدخان أو الغبار. وعدم وصول هذا الضوء القوى إلى من يقف وراء النافذة المعتمة، ليس دليلا على ضعف الضوء، ولا دليلا على عمى الشخص. ولكنه دليل فقط على مدى الضرر الذى تسببه نافذة تحتاج إلى تنظيف.

والمهم فى هذه الحالات النفسية أن نبحث عن أعراض العلة. ثم نفتش عن الأسباب الحقيقية لهذه الأعراض. وبعد اكتشاف هذه الأسباب وتوضيحها للشخص، يأتى دور الإيحاء. وهو الدور الذى نطلب منه فيه أن يستجمع عزيمته ويقاوم ويتناسى. وفى هذا الدور أيضا تكون الاستعانة بالإيمان الدينى والثقة بالله عنصرا هاما ومعاونا على الشفاء. وأما قبل هذا، فالاستعانة الروحية بالتدين لا تؤتى ثمارها المنتظرة.

ولتوضيح هذا نفرض أن مريضا متدينا أصيب بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية، وهو يتلوى من الألم. فلا يكفى أن نطلب منه الاستعانة بالإيمان الدينى، بل يجب أن نشخص مرضه علميا، ونطلب إلى الطبيب إجراء الجراحة أو العلاج. وعندئذ يكون للإيمان الدينى دوره الفعال فى التماثل للشفاء، وتقوية أثر العلاج وشد أزره.

ولهذا أرى أنه من الواجب فى عصرنا الحاضر، تعديل برامج التعليم بحيث يتلقى المعلمون والنظار والوعاظ وجميع رجال الدين على اختلاف عقائدهم دروسا وافية فى علم النفس ومبادئ التحليل النفسى، كى يساعدهم ذلك على فهم ظروف الناس وحالاتهم، وليستطيعوا معالجة كل حالة من حالات القلق.

سيكون المدرسون بحاجة إلى ذلك بالنسبة للطلبة من الأطفال والشبان. أما الكبار من الرجال والنساء، فرعايتهم فى القرية والمدينة من شأن رجال الدين. ورجل الدين العصرى لا يكفيه أن يحفظ نصوص الديانة. ويعظ بها الناس. بل يجب أن يعرف أيضا علم النفس ليعالج به متاعب الناس، ويعرف أسبابها الحقيقية، ويظهرها لهم كى يساعدهم على فهم مشاكلهم والتخلص منها وإصلاحها. وفى مرحلة الإصلاح التى تأتى بعد مرحلة المعرفة النفسية والفهم، يحل دور الاستعانة بالشعور الدينى والإيمان استعانة فعالة لا تعوقها أعراض المرض الأصلية.

وإنى ألح فى أهمية هذا التعليم النفسى لرجال الدين فى الجامعات الدينية على اختلاف الأديان، كى يكون منهج علم النفس معوانا فعالا للتأثير الروحى والدينى، لأنى واثق أن ضعف سلطان الدين فى الزمن الحاضر راجع إلى أسباب نفسية، لو عرفها رجل الدين لتضاعف تأثيره على الناس. وبهذا يتعاون العلم والدين، ويتضافران معا لإسعاد الناس، لاسيما أن علم النفس هو أكثر العلوم معرفة واعترافا بأهمية الجانب الروحى الذى تسيطر عليه الحاسة الدينية والإيمان.

إن الصحة تتوقف على سلامة البيئة من الجرائم واستيفائها لشروط العافية. وبما أن الإنسان جسد وعقل وروح فصحة الجسم تتوقف على صلاحية البيئة البدنية وصحة العمل تتوقف على صلاحية البيئة العقلية، وصحة الروح تتوقف على صلاحية البيئة الروحية. وهذه البيئة الروحية الصالحة المثلى هى التى يسميها الناس منذ أقدم العصور باسم الإيمان، أو الثقة بالله.

وبعض المتحذلقين من أدعياء التقدم العصرى، يتعبون أنفسهم، ويتعبون الناس معهم فى البحث عن اسم آخر للإيمان بالله. فيقولون: اللانهائية تارة، واللامحدود تارة أخرى. وهذا كله تصرف لا مبرر له. ولا يسبب للناس إلا قلقلة طمأنينتهم إلى تلك القيمة الروحية العظمى ألا وهى الدين أو الإيمان بالله.

وهذا شيخ علماء النفس المعاصرين «كارل يونج» يقرر أن الغالبية العظمى من

مرضاه فى ثلث القرن الأخير كانت مشكلتهم الأساسية التى تكشف عنها التحليل هى الحاجة إلى وجهة نظر ثابتة لا تتزعزع إلى الحياة برمتها، سواء فى الدنيا أو الآخرة. أن علتهم القصوى فى آخر كل حساب هى الحاجة إلى إيمان يقنع حاستهم الدينية التى تشكو الفراغ.

ويقرر « يونج » أيضا أنه ما من واحد من هؤلاء المرضى، أمكن أن يصل إلى الشفاء الحقيقى من غير أن يستعيد إيمانه الراسخ بالدين، أيا كان ذلك الدين.

وهذه شهادة لا يمكن الاستهانة بها. ومؤداها أنه لا سعادة للإنسان العصرى ما لم يثبت إيمانه. وعلى علم النفس أن يتعاون مع الدين فى ذلك يفتح للدين الأبواب، ويزيح من طريق الإيمان حوائل الأمراض النفسية.

والتجارب العلمية والنفسية تؤيد، يوما بعد يوم، الرأى القائل بأن المستقبل سيشهد استخدام العلاج النفسى والروحى لكثير من الأمراض التى كنا نظنها من اختصاص طبيب الأعصاب وكنا ننشد دواءها فى الصيدلية.

إن تقدم الطب فى العلاج العضوى، وتقدم الجراحة، قد أذهلا البشرية عن ميدان هام، فلم يلق اهتماما إلا فى المدة الأخيرة. وهذا الميدان هو ميدان العلاج الروحى. ولكن الأنظار تتجه الآن إلى هذا المجال باهتمام متزايد، ومن واجبنا أن نوسع مجال الخدمات النفسية كما وسعنا مجال الخدمات الطبية والتعليمية.

إن أقاصى الريف تلقى اليوم اهتماما عظيما. ففى كل قرية نائية وحدات مجمعة للطب والتعليم والزراعة، فيجب أن يكون بها أيضا قسم نفسى. ولكن هذا القسم يحسن ألا يكون منفصلا، لأن الإنسان كائن متكامل: فيجب على الطبيب أن يكون عارفا معرفة متوسعة بعلم النفس، بحيث يعرف عن هذا العلم مثل ما يعرف عن الخلايا ووظائف الأعضاء وأمراضها. وكذلك المعلم يجب أن يعرف علم النفس بتوسع. وكذلك معلم الكبار ومرشد الأسر وهو رجل الدين. إنه يجب أن يقضى أربع سنوات فى الدراسات النفسية، وسيجد أن تأثيره فى الناس وانتفاعهم به

وبالدين قد تضاعف عشر مرات على الأقل عما هو الآن، لأنه سيتيح للدين ألا يكون دواء يستخدم من الظاهر فقط. بل سيفتح له جميع الأبواب المغلقة، فيتغلغل إلى أعماق النفوس المريضة والقلقة. وهى بالذات أحوج النفوس إلى مفعول الدين.

وكذلك الطبيب والمعلم. ستكون متاعب النفوس عندهما محل عناية بجانب متاعب الجسم، ومتاعب الذكاء والتحصيل. وسينير علم النفس الطريق للمعلم والطبيب بأضواء باهرة تكشف لهما عن إمكانيات لا حد لها.

علم النفس سينظف النوافذ المعتمة التى تحجب جميع الأضواء عن العيون، وتحول بين الرجل العادى وبين الانتفاع بأى شيء من الأشياء التى تقدمها له الحياة، سواء فى محيط العمل أو الأسرة أو المجتمع.

هذا فى وقت تسخر الدولة فيه كل أجهزتها وإمكانياتها لخدمة الرجل العادى ماديا وطبيا وتعليميا واقتصاديا. وتقدم له من الضمانات ما يكفل له الشعور بالاستقرار والطمأنينة. ولكن جرثومة القلق النفسى الداخلية، تدمر أثر كل هذه الجهود الجبارة، لأن النافذة المعتمة تكفى لإلغاء تأثير أقوى أنواع الضوء. وتجعل طاقة الشمس الجبارة تضيع هباء.

فلننظف أولا النوافذ المعتمة.

بهذا التنظيف يجب أن نبدأ، وإلا أصبحت كل الجهود بلا قيمة وبلا نتيجة.

وعلم النفس هو الذى ينظف النوافذ المعتمة كى يسمح لنعمة الإيمان ولسائر نعم الحياة التى تتيحها الدولة والمجتمع والأسرة، أن تصل إلى الإنسان الذى هو الهدف والغاية من كل تلك الجهود.

الفصل الثالث

الغريزة والعقل

لقد وهبنا الله سبحانه وتعالى العقل وميزنا به عن الحيوانات.

لقد وهبنا العقل كى نستطيع أن نفكر به ونميز الخير من الشر. ونبتكر، ونسمو بأفكارنا، ويقودنا إلى حيث نشاء، ويقول المثل:

العقل السليم فى الجسم السليم:

والعقل. هو الذى يقوم بضبط الأفعال ضبطا إراديا بتدبير خاص، لغرض مقصود.

كما وهبنا الله أيضا الغريزة.. والغريزة كما نعلم قوة فطرية، تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة. والغرائز... كل نوع منها يجرى على منوال واحد، فقلما أدركت فيه تفاوتا واختلافا.

فأعمال العقل متخالفة، وأعمال الغريزة متشابهة. يظهر لك هذا الفرق واضحا عند مراقبة شؤون الناس فى تدبير مصالحهم، والافتنان فى مصانعهم والتحيل فى المنافسة بالغلبة. ولا ترى مثل ذلك لدود القز فى صنع الحرير، ولا للنحل فى جمع رحيق الأزهار، ولا للخطاف فى المهاجرة.

وقد جعل بعض الباحثين الغريزة «الإلهام» خاصة بالحيوان، وجعل للعقل حبسا على الإنسان. ورأى آخرون أن عند الإنسان غرائز تزيد على ما عند الحيوان، وكرمه الله فمنحه العقل الذى به يصوغ الأحكام بالقياس على ما خبره بنفسه، وما

عرفه من غيره. ومال آخرون إلى أن الغريزة فى الحيوان ثابتة الكيان، وتتهذب فى الإنسان، ومنها إذ ذاك يتولد العقل.

الغريزة والعقل عند الإنسان قوتان منفصلتان، فتتولى الغريزة تدبير الجسم فى الطور الأول من الحياة، وبعد ذلك يقوم العقل مقامها تدريجيا حتى تتضاءل الغرائز وتسيطر القوى العاقلة، غير أن الغرائز حينئذ تبقى أثرا يدل على حالتها الأولى التى اشترك فيها الإنسان والحيوان. ويذهب الحكيم وليم جيمس إلى ضرورة وجود الغرائز فى تركيب الإنسان، ولو بعد استيفاء العقل حظه من الكمال، وإن نمو العقل لا يدل على أن الغرائز ضعفت وفنيت، بل يدل على أنها تهذبت ليتسنى لها مزاولة الأمور وتدبير للشؤون. وقد اعتد بهذا الرأى الكثيرون من المربّين.

الأفعال المنعكسة والغريزية والعقلية:

الأفعال المنعكسة مصدرها النخاع الشوكي، ويهيجها المؤثر الخارجى، كما إذا حككت قدم نائم فإنها تنسحب من مركز التأثير وقد حققت التجارب أن الضفدعة إذ جرد مخها، وضغط أحد جوانبها، فإن قدمها المؤخرة التى فى جانب العضو الواقع عليه تأثير الضغط تتحرك لمعارضة المؤثر. ومن هذا النوع بكاء الطفل عقب الولادة عندما يستنشق الهواء. ومنه العطس والسعال والتنهد والتثاؤب وطرفة العين.

أما الأفعال الغريزية فمجموع أفعال منعكسة، على ما حققه الحكيم الإنجليزى « هربرت سبنسر ». فإن غريزة الهرب من العدو مثلا تتضمن عدم اطمئنان النفس، وخوف البطش، ودهشة الفكر، وغليان الدم، واضطراب الأعصاب، وسرعة التنفس.

أما الأفعال العقلية فمصدرها المخ. فالحواس تنفعل بالأشياء. فترسل أثر انفعالها إلى المخ من طريق أعصاب الحس، وهنا يبتدئ الإدراك ثم الوجدان. وبعد ذلك يهبط الإذن إلى أعصاب الحركة فالعضلات لتنفيذ الحكم دون مانع يعترضه،

ما دام الجسم سليم الأعضاء، قادرا على الحركة، بجردا من قيود الاستعباد، مسوقا بدافع من الشوق، وإن يكن دقيقا كما هو فى الأفعال الغريزية، فإن لها حالات نفسية كحالات الأفعال العقلية. ومن هذا الشوق ما يشاهد عند القط والكلب من محبة الوطن. ومنه إشفاق الدجاجة على أفراخها. فتحميها بجناحيها خوفا عليها من تأثير الجو. ومنه لذة الظفر على العدو والنكاية به، ولو تكبد الشخص فى سبيل إرهاقه ما لا طاقة له به من التعب. ومنه الميل إلى حفظ النوع عند الأم التى لا يغيب عنها ما تلاقيه من الآلام فى الإرضاع والتربية وغيرهما. ويشاهد مثل ذلك عند الدجاجة الحاضنة لبيضها، فإنها لا تنفك ذابلة الجسم مضطربة الأعصاب، وإذا حيل بينها وبين بيضها تثور وتغضب. فهذا كله يدل على أن الوجدان عامل كبير لتحقيق الأعمال وأن الجسم فى سبيل تحقيق مطالب الغريزة لا يبالى أن يحارب الكوارث ويتخطى الصعاب فى سبيل أن يحقق أهدافه وأمانيه.

الفصل الرابع

علاقة العقل بالمخ

حققت التجارب ارتباط العقل بالمخ وتأثير أحدهما فى الآخر. ففى حوادث الارتجاع المخى يضطرب العقل، ويتعطل الفكر والوجدان، ويكون ذلك وقتيا إذا لم تضر الإصابة بجوهر المخ. وإلا ذهبت بالملكات الفكرية كلها أو بعضها. وارتجاع المخ أحيانا يكون ذريعة للشفاء من البله والجنون « وربما صحّت الأجسام بالعلل ».

تاثير وجدان الفرح والحزن :

وكذلك تؤثر المؤثرات الفكرية فى كيان المخ، فتضطرب أعصابه أو تنفجر خلاياه، فيحدث الشلل للجسم، أو يصعقه الموت، سواء فى ذلك أكان التأثير بالحزن أم بالفرح. أما تأثير الحزن فظاهر، وأما تأثير الفرح فمن حوادثه ما حصل للفردوسى من شعراء الفرس، فإنه نظم سيرة رستم باز « عنترة الفرس – الشهامة» فى ستين ألف بيت من الشعر، وقدمها إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى فى أوائل القرن السادس الهجرى، التزم فيها خلوها من الألفاظ العربية مع ما فى ذلك من الصعوبة، إذ أكثر الكلمات المستعملة فى ذلك اللسان عربية، فكافأه السلطان بدينار عن كل بيت منها، وبلغت هذه المنحة ستين ألف دينار، فهذا المقدار الجسيم خبل عقل الفردوسى وقضى عليه فتوفى فى ليلته من شدة ما اعتراه من

الذهول. كذلك يحدثنا التاريخ أن المتنبى طالت غربته عن وطنه، وكتب لجدته يسألها المسير إليه ببغداد فقبلت كتابه، وحمت لوقتها سرورا به، وغلب عليها الفرح فقتلها ومن مرثيته فيها قوله مشيرا إلى هذا:

أتاها كتابى بعد يأس وترحة فماتت سرورا بى ومت بها غما

وسبب ذلك أن الجهود الفكرية كالجسدية تثير الدورة الدموية. والحركة أيا كان نوعها، يلازمها احتراق الدم المار فى جزيئات الأنسجة البدنية والأعصاب عملا بنظرية الاحتراق البطيء. وإذا طالت هذه الحركات أو زادت على الحد المقبول، نفِد الدم الصالح للاحتراق، أو ازدادت الرواسب الفاسدة الناشئة عن هذا الاحتراق، وهى سم زعاف يمتصها الجسم فيستهدف للخطر، وتبدو عليه أعراض السم.

الملل من مواصلة العمل:

ومن هذا الباب إحساس الفتور والملل من مواصلة العمل. وما أشبه هذا الإحساس بصمام الأمن فى الآلة، ينذر الإنسان بضرورة تعطيل العمل، وإلا سعى إلى حتفه ووقع بين مخالب الموت. وعلى من أحس وقع التعب أن يستريح لا بالإخلاد إلى السكون، بل بالاستراضة فى الهواء الطلق، والتسلى برؤية المناظر البديعة. وربما اكتفى بغمض العينين ابتعادا عن تأثير النور، أو بسد الأذنين انصرافا عن الضوضاء، أو بالهرب من الشواغل والوساوس، أو بالنوم العميق، وهو أشد ما تصبو إليه النفس.

النوم:

ومن غفل عن إعطاء الجسم نصيبه من الراحة عقب المتاعب الفكرية، وكان قوى البنية سليم البدن، جاءه النوم قهرا. كان أرسطو ثقيل النوم لفرط ما كان يعانيه من بحث الشؤون الفكرية والخلقية والاجتماعية. ولا يمنع النوم أن يتشاغل عنه المكدود بالقراءة أو بالمشى، فقد علمت أن النائم قد يكون ماشيا. وكذلك لا يمنع

النوم وقوع الإنسان فى بحبوحة العذاب. فهذا ديميوس الذى اغتال حياة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ربطت أوصاله فى أربعة جياد فمزقت شر ممزق. ولم يترك المعذبون فى مقدورهم لونا من العذاب إلا جربوه فيه، عذبوه بالكى بحديد ملتهب وصبوا على جسمه الرصاص الذائب والكبريت المحرق والزيت المغلى. وكان إذا طال عليه العذاب بنوع منها، يحاول النعاس فينبهونه بعذاب آخر. وقد قال قبيل موته: « إن حرمانه النوم كان أفظع ما لقى من العذاب ».

إذا فهمت هذا عرفت الغرض الذى من أجله قرن المربون مطالب الجد باللعب فى نظام الدروس. فإن مجاوزة الحد فى كل منهما مذهبة للفائدة ومدعاة للسقم.

الروح أو النفس:

وصفها الإمام الغزالى بأنها جسم لطيف منبعه تجويف القلب وينتشر فى أجزاء الجسم بالعروق المبثوثة فيه كالسراج تنبعث منه أنوار الحياة، ووصفها ابن مسكويه بأنه ليست جسما ولا عرضا، بل جوهر بسيط غير محسوس، لأن الجسم لابد له من صورة، ولا يقبل صورة أخرى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى. فإذا قبل التثليث مثلا فلا يقبل التربيع والتدوير إلا بعد مفارقة الشكل الأول. وعلى خلاف هذا نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء على اختلافها محسوسة ومعقولة من غير مفارقة للأولى، ولا تزال تقبل صورة بعد أخرى من دون أن تضعف، بل هى تزداد بالصورة الأولى تهيئها لقبول ما يرد عليها من الصور الأخرى.

الروح:

فالروح — سواء أكانت جسما جريا على المذهب الأول، أن غير جسم ولا عرض جريا على المذهب الثانى — هى قرينة الدم، وحليفة الأعصاب الضاربة فى أنحاء البدن، والمبثوثة بين ذراته. وهى الفيض الإلهى الذى نفخه البارئ فى البدن بعد تسويته. ولها التدبير العام لمدركات الحواس، والملكات الذهنية، وأجهزة التنفس والهضم والإفراز... إلخ، تسعد وتشقى بنسبة الأمزجة التى يتألف منها

البدن، وتفتر إذا طال بها زمن اليقظة، فيأتيها النوم طوعا أو كرها، لتستريح وتسترد نشاطها. وإذا طوحت بها الطوائح ولم تعد تواقة إلى البقاء، انفصلت من البدن، وتركته يتقلب بين يدى الفناء.

وقد جاهد الفلاسفة ابتغاء الوصول إلى حقيقتها. وكلما أوغلوا فى البحث عنها وتغلغلوا فى كشف غامضها، وصلوا إلى حيرة، وقنعوا من الغنيمة بالإياب راضين بوصفها بأنها سر إلهى يصعب فهمه على البشر.

وقد ظهر أخيرا فى عالم الاختراع عدسة بلورية أنفذ المخترع من خلالها أشعة إلى جسم حى، فرآه قد أحاطت به أشعة مضيئة كالهالة سماها أشعة الحياة. ولما وجهها إلى جسم شخص يعالج سكرات الموت، رأى هذا الشعاع يتضاءل رويدا رويدا، وباختفائه انقضت الحياة. فظن المخترع أن هذا الشعاع هو الروح. ثم داخله الشك، لاحتمال أن يكون حدوث هذا النور من الحركة التى تؤديها جزيئات الجسم الحي. فيكون إذن من آثار الروح لا الروح نفسها.

وما أشبه الروح بالتيار الكهربائى، تراه ينفذ من خلال السلك المعدنى ولا تشاهده، ولا ترى فرقا بينه وبين سلك آخر ليس فيه تيار بحسب الظاهر. وإنما النور والحركة يدلان على هذا التيار الكهربائى فى الأول دون الثانى.

الفصل الخامس

الفطرة ونزعاتها

تضاربت آراء الباحثين فى نزعات الفطرة فمنهم من ذهب إلى أنها خير، ومنهم من ذهب إلى أنها شر، ومنهم من رأى استعدادها للأمرين، ومنهم من رأى خلوها منهما.

ذهب الفيلسوف الإغريقى سقراط إلى أنها خير، ونفس الطفل فى نظره وعاء لأصول الكمال. فعوّل فى طريقة تعليمه على السؤال والمناقشة فى أى غرض يريد، لا فرق بين أن يكون الطالب طفلا أو صبيا، شابا أو كهلا، وله طرق خلابة يستميل بها المسؤول إلى إجابة أسئلته بحال يسبر بها أعماق مداركه ويساعده على إدراك الحقيقة. وكان مع جلال قدره وعظيم خبرته، وتوقد قريحته يتدلى إلى أفق التلميذ، ويختار له من الأمور ما يوافق هواه وفى وسعه الإجابة عنه، ثم يناقشه ويسوق له الحقائق باحثا ومنقبا. ولا يزال ينبهه بالتدريج على الخطأ، ويفتح له أبواب الصواب بتأليف المقدمات واستنباط الضوابط حتى يصل به إلى شاطئ الحقيقة سالما.

بهذه الطريقة البديعة انقادت لسقراط العقول الشاردة، والميول الخامدة والحقائق الفذة. وتبعه فيها فريق من رجال التربية والتعليم لما اشتملت عليه من دلائل الرصانة والحكمة.

وذهب أفلاطين إلى أن الفطرة شر والنفس فى نظره جوهر مجرد [illegible]

من العالم العقلى إلى عالم المادة لتبتلى. وبينما هى فى أثناء الحياة المادية، يمكن اتصالها بالعالم العقلى بتصفيتها من أدران اللذات، وأخذ الجسم بأشد أنواع الحرمان من ألوان الطعام والشراب، وحصر الفكر فى أمر هذه القربى، والتخلص من كل ما له علاقة بالعالم المادى، والتجرد من زخرف الدنيا ومن الميول النفسية. ومن يمرن نفسه بهذه الرياضة يرهقها بالآلام والمشاق. ويرهف حدها بدوام الصوم. وإهمال مطالب الجسم من النظافة واللبس والغذاء وقتل الحواس، والعزلة عن الناس. فإذا تم له ذلك فإن النفس تتطلع إلى العالم العلوى، وتتوق إلى ما حواه من جمال وصفاء، وتتصل بمبدعها. فاتصال النفس الطاهرة الأصل بالعالم المادى حول فطرتها وصبغتها بصبغة الشر. وقد جرى على هذا المبدأ أبو الطيب المتنبى، إذ يقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وتبعه أبو العلاء المعرى فاعتقد أن الإنسان شرير بطبعه والفساد غريزة فيه. وقد ثبته على هذا المبدأ ما عاناه من الآلام من رفاقه فاعتزلهم مفتخرا بأنه رهين المحبسين « العمى والعزلة » ومن قوله فى هذا المعنى:« ومن جرب الأقوام أوسعهم ثلبا »

وقد غلا فى هذه العقيدة حزبان كبيران اشتهرا فى القرن الثامن عشر، وهما اليسوعيون واليئسيون، فقد حملا لواء التعليم، وألفا الكتب، وبنيا المعاهد العلمية، وسنا الأنظمة المؤسسة على عقيدة أن الإنسان مفطور على الشر، ولا يحوله عن هذه الفطرة السيئة إلا صارم العقاب ولذيذ الجزاء، وتوسعا فيهما بدرجة خرجت عن الحد المقبول والمعقول

وفى آخر هذا القرن ظهرت مؤلفات جان جاك روسو، وتولى الرد فيها على من ظلم الفطرة الشريفة بنسبة الشر إليها، ووجه سهام مطاعنه الصلبة إلى هذين الحزبين فيما وضعاه من الأنظمة، وأقراه من المناهج وسلكاه من السبل التى حرمت النشء مساكنة الطبيعة واستجلاء محاسنها، وقراءة أسطر الجمال فى صفحاتها. وقف موقفه هذا بين الفرنسيين حاملا بين جنبيه نفسا أبية ولسانا ذلقا. واكتسب

فطانته من وحى الفطرة لا من الممارسة، وكانت نفسه تواقة إلى الرجوع إلى محاكاة الطبيعة والبعد عن زخارف الصناعة. وقد وصلت دعوته إلى أعماق قلوب العقلاء فالتفوا حوله، وألف منهم عصبة ناوأت هذين الحزبين وهزئت بعلية القوم منهما حتى قام من أجلها نذير الشر، وتأججت بينهما نار العداوة، وكانت من مثيرات الثورة الكبرى التى قلبت فرنسا ظهرا لبطن. فانتهز هذه الفرصة وشرع يغرس فى أرض هذه الأنقاض أشجار الأفكار الصحيحة.

درس روسو الطباع الإنسانية بالعيان، فكان يحتجب عن النشء بحيث يراهم ولا يرونه، ويتفقد حديثهم فيما بينهم، وحركاتهم التى لا رياء فيها. وكتابه « إميل » حسن الأسلوب، جميل الصوغ، بديع التأثير، تتمشى مطالبه فى العواطف تمشى الروح فى الجسم.

وقد أوزع الله النفس أن تتعشق المحسنات التى هى أصول للمعانى الذهنية. فإما أن تسمو فتتعلق بالفضائل وتنفر من الرذائل فتكون مندرجة تحت هذا الخطاب: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ (٢٨) ﴾. وإما أن تنكص على عقبها، وتنزع إلى العالم المادى، وتتلوث برذائله وأوضاره فتبوء بالشر ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ .

والحركات الإرادية مناط الثواب والعقاب، وبها تقاس درجة الميول الكسبية.

ورأى « كانت » أن الطفل منذ ولادته إلى سن محدودة ليس له حياة أدبية، لا تنسب فطرته إلى الخير ولا إلى الشر لأنه لا يعقل ما يفعل، وعشاق هذا الرأى لا ينكرون الوساطة بين الخير والشر.

إلى هنا مرت بك آراء الحكماء فى نزعات الفطرة وهى أربعة ولا أريد أن أتصدى لنقدها، وتمييز غثها من سمينها، وإنما أرجو من الإنسان العاقل إنعام النظر فى مضمونها ومحتواها، وأعرض عليه شبهات تحوم حول عقيدة فطرة الشر التى مقتها كبار المربين. فعشاقها يعتقدون أن الأرض إذا أهملت من الزراعة أنبتت الشوك

كبار المربين. فعشاقها يعتقدون أن الأرض إذا أهملت من الزراعة أنبتت الشوك بطبيعتها. وهذا مردود لأن إهمالها من الزراعة يجعل الفطرة الطاهرة خاضعة لما تلقيه الرياح اللواقح من البذور. وأن الشوك النابت فى البور ليس ناتجا من فطرتها الخبيثة بل من إهمال تعهدها. وليس من الحكمة أن تطلق الدابة تعيث فى الأرض فسادا ثم تنحى باللوم على طبيعتها.

كذلك يعتقدون أن الطفل فيه قسوة وجبروت، يمسك الطائر بلا رحمة ويسومه العذاب، ويتناول الشيء فيفرّق أوصاله. وليس اعتقادهم وجيها، لأن خلو فكر الطفل من الحقائق دفعه إلى مزاولة التجارب، فيحل العناصر ويعقدها، ليستخرج من أعماله حقائق يلتذ بوجودها.

كذلك يعتقدون أن الطفل يسرق. ولو علموا أنه ساذج جاهل لمعنى التملك ما اعتقدوا ذلك، أما كونه يعد نفسه مالكة لكل ما يجده فمسلم، ولكن هذا راجع إلى حبه الغريزى للحياة ،وإلى جهله معنى التملك فى مصطلح المجتمع الإنسانى.

كذلك ينسبون إليه الصلف والكبرياء، والحقيقة أن الآباء يطرون أبناءهم ويغلون فى مديحهم فيخدمونهم ويغرونهم ويتساهلون فى عرض الأمور عليهم بعيدين عن الحيطة والتدبر، فيثبت فى ذهن الطفل هذا الأثر الرديء، ومرجع ذلك حمقهم، وطبيعة الطفل من ذلك بريئة.

كذلك يتهمونه بالشره. ولم يوصم بهذه الخصلة إلا بانغماسه فى النعيم. ولو أنهم أبعدوه عن مظاهر الترف، وصرفوه عن العادات المزرية، وحالوا بينه وبين البيئة السيئة لوجدوا منه شخصا كريم الطباع.

كذلك ينسبون إليه الكذب وما صدقوا فيها وهموا ولو فطنوا لعلموا أن الكذب أثر لازم للخشونة التى يلقاها الناشئ من قساة المعلمين فيختلق الكذب ليتلمس النجاة من العقاب ، ويحاول الهرب من شر مستطير ويسدل على الحقيقة غشاءً كثيفا.

الإناء مثلا. فينسى الطفل الحق عند الإجابة، تخلصا من شر العقوبة وحبا فى السلامة.

كذلك يكذب أحيانا فى ادعاء الإفلاس وهو موسر، لأنه يخاف طمع الطامعين فى ماله.

ونراه أحيانا يكذب ونتحرى السبب فنجده مرضًا قَلَب كيانه وجعل الباطل أمامه حقا، وقد روى أن طفلا كان مضطجعا فى فراشه، ولما غابت عنه خادمته رأى كأن الشمعة المضاءة فى الحجرة قد استطالت حتى زاد طولها على متر، ثم تقدمت إليه مرة وابتعدت عنه أخرى. قص هذا على خادمته فاعتقدت أنه كاذب، ثم دعت إليه أمه فقص عليها الرواية عينها واهما أنها حق لا ريب فيه. ولما استجلت الحقيقة تبين لها أنه مصاب باضطراب عصبى مشفوع بحمى، ومن كان هذا شأنه فإنه يهذى.

يتصرف المعلم تصرفا قاسيا، فيسوق إليه المعانى الدقيقة مجردة من ثوبها الحسى فيشت ذهنه ويضل عن الحق، فيلتجئ إلى الكذب فيلفق منه ما يشاء، وإلى الوشايات فيفترى بها على من يشاء، شأن من لا يميز الغث من السمين، والخطأ من الصواب، وشأن من لا يفرّق بين الإساءة والإحسان، ومن لا يوازن بين الإحسان والإحسان.

إذا زالت كل هذه العوائق وصلح مزاج الطفل، سرى الأثر الواقع على الحواس إلى الأعضاء المنفذة، وفعل الفعل الذى يرشد إليه وجدانه فتجده يلتزم الصراحة والصدق حتى يعتادهما.

فطرة الرجل والمرأة :

ذهب سقراط وأفلاطون إلى أنه ليس بين الرجل والمرأة تفاوت كبير فى القوى العقلية. ولذلك لم يفرقا بينهما فى العلوم التى يجب عليهما دراستها. وعارضهما

العقلية. ولذلك لم يفرقا بينهما فى العلوم التى يجب عليهما دراستها. وعارضهما أرسطو بأن الطبيعة البشرية فرقت بين طبيعتهما فميزت الرجل بالقوة، وخصت المرأة بأنواع المتاعب تقاسيها زمن الحيض والحمل والوضع والرضاعة. وهذا التخلف دعاه لأن يرسم لكل من الرجل والمرأة نظاما يلائم المزاج.

ولقد وفق المربون بين رأيهما فرأوا أن لا تفاوت بين الولد والبنت فى غضون السنوات السبع الأولى، فلا غضاضة إذا اشتركا معا فى نظام واحد. ثم تنفرج زاوية الخلاف بينهما فى زمن المراهقة، إذ البنت تدخل سريعا فى طول النماء، وهذا يستنزف نشاطها ويصيرها عرضة للأمراض العصبية، وقد دل الإحصاء على انتشار الأمراض بين البنات وهن فى طور التعلم. قرروا هذا مستندين إلى أن وزن دماغ الرجل أثقل بنحو ١٠٪ منه فى المرأة، وثقل المخ من دواعى الفطنة والذكاء، ويناسبهن حينئذ أن يكون بين دروسهن شيء من فنون الجمال، ليبعث فيهن الشوق إلى التعلم يدفعهن إلى مقاومة أسباب الفتور.

نعم يتبادر للمطلع على هذه النسبة أن الرجل أقدر من المرأة على الحركات العقلية، غير أنه إذا نظر من جهة أخرى إلى أن نسبة ثقل المخ إلى ثقل الجسم فى المرأة أوفر منها فى الرجل، يتبين له أن لكل منهما مواهب يكونان بها قويين أو ضعيفين إذا قاما بالواجب أو قصرا فيه. أما ما يشاهد من رجحان القوى البدنية فى الرجل فلما يستلزمه جهاده وصبره للحصول على القوت، وأما هى فقد قصرتها العادات القومية على إدارة المنزل، فلم تتمتع بما يتمتع به الرجل من مساكنة الطبيعة، وتمرين الأعضاء تمرينا يدعو إلى نموها وازدياد قوتها.

الفصل السادس

الحب والجمال عند الحيوانات

حيث توجد غريزة نسلية يوجد حب.. وحيث يوجد حب يوجد جمال لتغذية الحب. فلا بدع إذا أن يوجد عند الحيوانات حب وجمال، وإن كانا فى الحيوان أضعف منهما فى الإنسان . حتى فى النباتات حب وجمال أيضا. والجمال الذى فى النبات وسيلة لحدوث اللقاح بين الذكر والأنثى . فالزهور الجميلة العطرة إنما هى إغراء للحشرات المختلفة ولاسيما النحل لكى تقع على الزهر فتتلوث أرجلها وخراطيمها بذرات الذكور الملقحة، حتى متى وقعت على العضو الأنثوى فى النبات أصابته تلك الذرات فتلقحه.

والحيوانات، ولاسيما العليا كالإنسان، تحب وتنجذب إلى الجمال والقوة . وبعضها تعشق عشقا شعريا أيضا.

والغالب فى حب الحيوانات الغريزة التناسلية وقليلا تظهر فيه عناصره الأخرى من غيرة وتعبد وتضحية إلى آخره. وقد شرح العلامة العظيم دارون فى كتابه تسلسل الإنسان حب الفقاريات ولاسيما الطيور، وأبان فعل الجمال فيها، والقوة فى حبها. وغرضه من ذلك إثبات نظرية الانتخاب الطبيعى والتناسلى فى عملية التطور التى قضت بنشوء الإنسان من الحيوان. فتقتطف بعض نتائج درسه الطويل فيما يلى للتفكه والفائدة ولاستيفاء البحث فى موضعنا :

١- حب السراطين وقوتها:

فى ذكور بعض الحيوانات السرطانية الساق اليمنى أكبر من الجسم كله لأن الذكر يستعملها فى محاربة الذكور. فالذكر والأنثى يعيشان فى وكر واحد. والذكر يسد باب الوكر بساقه الكبرى الضخمة ليمنع دخول ذكر آخر، ويستعملها أيضا فى القبض على الأنثى.

وذكر السرطان المحارب يحمل الصدفة التى تقطن فيها الأنثى عدة أسابيع ثم يواقع الأنثى بعد أن تلين صدفتها ، لأنه حينئذ يجرحها بكلاب ساقيه توصلا للأنثى نفسها .

معظم أنواع السرطان يقتتل ذكورها فى سبيل تنازع الإناث . ولذلك ترى هذه الذكور أكبر حجما من الإناث وكلاباتها أضخم وأقوى لهذا الغرض.

وقد وضع أحد علماء الحيوان ذكرا فى وعاء من الماء ، كان فيه أنثى وذكر أصغر حجما من الأول. ففى الحال ترك الذكر الصغير أنثاه ، فاستلمها الكبير بلا نزاع. وفى امتحان آخر فصل هذا العالم ذكرا عن أنثاه من بين عدة ذكور وإناث كانت فى وعاء واحد. فما لبثت الأنثى أن اتحدت مع ذكر آخر. وبعد حين أعاد الذكر إلى ذلك الوعاء نفسه. فبعد أن طاف برهة اقتحم جمهور السراطين. ومن غير نزاع ظفر بزوجته وأخذها. ومن ذلك استدل أن كلا من الزوجين يعرف أحدهما الآخر ويتحدان.

٢- الجمال فى أنواع السرطان:

وروى العلامة فرتز مولر : أن أنثى نوع سرطانى ذات لون أسمر رمادى ، وأن مقدم الذكر أخضر ناصع مائل إلى السمرة الحادة ومؤخرة أبيض ناصع . والغريب أن هذه الألوان تتغير فجائيا فى بضع دقائق. فالبياض يتحول إلى رمادى قذر أو إلى سواد، واللون الأخضر يفقد لمعانه. ولوحظ أن الذكر لا يتلون باللون الأخضر إلا

حين يبلغ دور اللقاح. والذكور أكثر عددا جدا من الإناث . ولذلك يرجح أن الذكور تكتسب لون الخضرة اللامع لكى تغرى الإناث بجمالها هذا .

٣. حب العناكب:

وقد روى العلامة بلاك وول: إن بعض العناكب تتلون ذكورها فى دور اللقاح إغراء لإناثها. والذكور تسعى سعيا حثيثا إلى الإناث. ولكن الأنثى تدفع عنها الذكور التى تغازلها وتتهددها بخراطيمها القوية، وبعد تردد طويل تقبل الذكر الذى استحبته .

وقد علل داروين صغر أجسام الذكور بأن الإناث أقوى من الذكور جدا وهن يفترسنها. وبالطبع تنتقى الأنثى أكبر ذكر للافتراس . ولذلك لا يبقى لها إلا الأصغر للملاقحة. وعلى التمادى أصبحت الذكور بفعل الانتخاب الطبيعى صغيرة.

٤- حب البراغش والصراصير وموسيقاها:

تتطاير أنواع البرغش حول الأنوار الساطعة مداعبة ذكورها إناثها دعابا طويلا قبل أن يظفر ذكر بأنثى.

وبعض أنواع البراغش والبعوض تحاول ذكورها أن تغرى إناثها بطنين أجنحتها الموسيقى. وقد لاحظ مولر ذكرين يحومان حول أنثى وهما يتنافسان بالطنين الموسيقى حتى ظفر بها أحدهما الأقوى صوتا.

وقد أكد الأستاذ ماير أن شعور جناحى البرغشة تهتز اهتزازا عنيفا يصدر صوتا موسيقيا يضارع صوت الشوكة الموسيقية التى يستعملها الموسيقيون لاقتباس الصوت عند دوزنة الآلات. وقد لاحظت أن الأنثى تنجذب إلى لحن خاص. فتقبل الذكر الذى يستطيع إصدار هذا اللحن. ولا يخفى ما فى ذلك من الدلالة على ارتقاء العصب السمعى والذوق الموسيقى عند هذه الحشرات.

وقد روى الكابتن هانوك : أن نوعا من هذه الحشرات يسمع طنينه على بعد ميل، وكان الإغريق قبلا والصينيون الآن يحفظون هذه الحشرات فى أقفاص ليسمعوا طنينها لأنه يلذ لهم .

وروى فريتز مولر أنه كان يتسمع مناظرة ذكرين أو ثلاثة فى الطنين ، وهى متجمعة حول أنثى ، وكل ذكر يصوت على حدة برهة ، ثم يسكت فيصوت الآخر، إلى أن تختار الأنثى أحد الذكور . والإناث تسرع إلى الذكور حيث تسمع أصواتها .

والصراصير تصرصر لغرضين : الأول لكى يجذب الذكر الأنثى إليه. والثانى لكى ينذر المناظر له من الاقتراب إليه، لئلا يقعا فى قتال عنيف.

ولذكور الصراصير أصوات تختلف عن أصوات الإناث. وهى تصدر هذه الأصوات باحتكاك الجناح الأعلى على الجناح الأسفل. ولكل جناح صفوف من الزغب تتوتر بجهاز عصبى. وباحتكاك الأعلى على الأسفل يصدر الصوت. فهى تتغازل بهذه الأصوات

٥-حب الأسماك وقوتها وجمالها:

كثير من الأسماك يقتل ذكورها تنازعا للإناث . وفى كثير منها يصنع الذكر عشا للأنثى ويرقبها إلى أن تخرج من وكرها ، ويحاول أن يدفعها إلى العش الذى صنعه لها إلى أن يدخلها إليه.

وقد رأى الدكتور جنتر ذكرين من نوع سمك السلمون يتقاتلان طول النهار حتى كلّ أحدهما ، فظفر الآخر بالأنثى. وقد روى أحدهم أنه شاهد اقتتال ذكور السلمون وهو مراقب فوق جسر. فكان الذى يعيل صبره منها ، وتكل قواه ، يلجأ إلى الشاطئ. وكان القتال عنيفا حتى أن بعضها كانت تموت . وأخيرا وجد نحو ٣٠٠ منها قتيلة على الشاطئ.

ومعظم الأسماك الملونة تستخدم ألوانها بغرض المزاوجة أيضا.

وهناك أنواع من الأسماك يعتنى ذكورها بتهيئة العشوش للإناث، حيث تبيض بيوضها. والذكور تعتنى بنقف البيوض وتربية الصغار. وبعض الإناث تحاول أن تلتهم البيوض، فتطردها الذكور من عشوشها حرصا على سلامة الصغار. ومعنى ذلك إلى الغريزة العائلية موجودة فى الذكور.

وذكور الضفادع تقتتل جتى الموت فى تنازع الإناث. ونقيق الضفادع خاص بالذكور اجتذابا للإناث.

٦-حب الطيور وجمالها:

جمال ذكور الطيور يلعب دورا عظيما فى الحب النسلى، ولعل للطيور أعظم نصيب من الجمال، وتليها الأسماك الملونة. وقلما تتنازع ذكورها بالقتال مع أن لبعضها أسلحة للقتال فى مناقيرها وأظافرها. وإنما هى تعتمد بالأكثر على فتنة الإناث بجمال ريشها وطوله وألوانه الجميلة. وبعضها تعتمد على الرقص على الأرض أو فى الهواء. وبعضها تعتمد على الزقزقة. ولزقزقة بعضها ما يتأثر بالموسيقى. وبعضها تنفث رائحة عطرة لإغراء الأنثى، كالبط الاسترالى المسكى، إذ تنبعث منه رائحة ذكية فى أشهر الصيف. وهكذا تعد الطيور على أعظم جانب من أنواع الجمال البصرى والصوتى والشمى بعد الإنسان. ولها ذوق عقلى فى الجمال كالإنسان تقريبا. ولذلك ترى الإنسان يطرب بزقزقة العصافير والنساء تتجمل بريش الطيور.

ومن رأى الطاووس وهو ناشر ذيله البديع يتعجب من جمال لم يحصل عليه الإنسان إلا بالاستعارة

وقد روى داروين أن نوعا من الطيور فى الولايات المتحدة يجتمع نحو عشرين من ذكوره فى بقعة حيث تتنافس بالزقزقة. وحالما تميل الأنثى لذكر تشرع الذكور

تقتتل. والأضعف يحيد عن ميدان القتال. وكلما أعيا القتال ذكرا انصرف حتى إذا لم يبق إلا واحد ذهبت الأنثى معه. فإن عاد آخر ينازعه إياها تجدد القتال، إلى أن يغلب أحدهما الآخر فيذهب معها.

وقد بلغت مسألة الانتخاب عند الطيور حدا قصيا، حتى إن بعضها لا تتزاوج لأن الإناث لم يرق لهن ذكر من الذكور التى تنافست فى إغرائها وإثارة عواطفها. وقد روى جوير: بأن مغازلة الطيور تستغرق وقتا طويلا. وقد ينقضى الفصل كله ولا تنجح الذكور والإناث فى إثارة الحب، فلا تتزاوج. فهى تشابه الإنسان من هذا القبيل بعض المشابهة فإن كثيرين من الفتيان يقضون الشبيبة وهم يبحثون عن أليفات فلا يجدون لأن ذوقهم متعنت، لا يعجبه العجب.

٧- عشق الطيور:

ولبعض أنواع من الطيور حب مبرح، بحيث إذا فقد الإلف ألفه، حزن عليه طويلا. فقد ذكر داروين، أن ذكر الببغاء وأنثاه يتعاشقان ويتلازمان طويلا، حتى إذا مات أحدهما أسف للآخر عليه أسفا شديدا وإذا قنص أحدهما بقى الآخر مدة طويلة ينادى نداء محزنا

وروى «بنت» أن ذكرا من البط سُرِق فبقيت البطة بعده حزينة لا تقبل عزاء من أى ذكر آخر، وما استطاع غيره أن يفتنها ويغرها. وبعد ثلاثة أسابيع أعيد الذكر إلى مكانه، فعاد الألفان يأتلفان مبتهجين.

وللحمام ألفة كألفة البشر فقد لوحظ أن زوجى حمام عادا إلى عشرتهما بعد فراق تسعة أشهر متذكرا كل منهما الآخر

٨- شفقة الطيور:

وللطيور شفقة كشفقة البشر. فقد لوحظ أن أنواعا منها تعتنى بصغار غيرها إذا فقدت أمهاتها أو حاضناتها. وقد روى بكستون أن ببغاء عنيت بطير آخر من غير نوعها، وكانت تنظف ريشه وتحميه من اعتداء غيرها.

٩- تجمّل الطيور ومغازلتها:

ولبعض الطيور غرام بالجمال الصناعى أيضا كالبشر. فقد ذكر جولد أن بعض العصافير تزين ظاهر عشوشها تزيينا يدل على ذوق عقلى عجيب. فهى تزخرف أطراف العش بقطع من نبات البحر وتضع القطع الكبرى فى الوسط والصغرى على الجزء المتصل بالغصن، وتضع هنا وهناك ريشة بحيث يكون عرق الريشة فى الداخل وزغبها إلى الخارج.

وفى أستراليا نوع من الطير غريب عجيب فى تنظيم مصاطب المغازلة، وهى مصاطب تبنيها هذه الطيور من القش والريش والحصى والأعواد.. إلخ. بسعة قدمين أو أكثر. والذكور تتراقص عليها إغراء للأنثى. ولها فيها ترتيب نظامى كأنها صنع إنسان مهندس مزخرف.

١٠- تزاوج الأبعدين عند الطيور:

أغرب من كل ما تقدم أن بعض الطيور تتزاوج مع أصناف من نوعها من غير صنفها فتولد أصنافا جديدة. فهى من هذا القبيل كالبشر، لا يتزاوج الأقرباء منهم مع الأقرباء، بل مع الغرباء عن الأسرة. وقد روى داروين عن أصناف من الطيور فى كندا وفى بريطانيا تجرى على هذا النحو فيتزاوج الصنف مع صنف آخر.

وقد روى القس فوكس أنه حين كان فى الصين كان عنده زوج من الأوز فلم يتزاوجا. وإنما لما وضع معهما نوعًا آخر من الطيور المائية تزوج ذكره الأوزات.

١١- انتخاب الأزواج:

وكثير من الطيور تختار الذكر الذى تحبه دون سائر الذكور من غير أن تتنازعها الذكور بقتال. فقد روى « أودوبون » الذى قضى ردحا من الزمن فى أحراش الولايات المتحدة يدرس طبائع الطيور: أن الأنثى لا تقبل على أى ذكر يعرض لها بل تتئد جدا فى اختيار عريسها، وتراقب مغازلة كل ذكر حتى يروق لها واحد، فتذهب معه.

أغرب من ذلك ما لاحظه « أودوبون » جيدا . وهو أن الذكر الأكبر سنا كان أسرع نجاحا فى استهواء الأنثى بمغازلته لها ، كأنه برع فى فن المغازلة . ولذلك كان الذكر الأكبر عمرا أسعد حظا فى الحب . وقد لاحظ أن فتيان الذكور العزاب وعرائس الإناث كانت تنصرف عن ساحة المغازلة ، وتترك الأمر للشيوخ والفتيات .

مع ذلك لا تقتصر المغازلة على الذكور ، ولا يقتصر حق الاختيار على الإناث ، بل كثيرا ما ينعكس الأمر بعض الانعكاس ، فتقتتل الإناث تنازعا للذكور ، وتتنافس فى جمالها لإغراء الذكور. فقد لاحظ « أودوبون » ذلك فى الدجاج الرومى، كما يسمى فى مصر ، أو الحبشى كما يسمى فى سوريا ، أو التركى كما يسمى فى إنجلترا وأمريكا . فإن الإناث تبتدئ بالمغازلة استهواء للذكور.

والغالب أن الاختيار للأنثى . وأما الذكر فيقبل أى أنثى يظفر بها. وندر أن يكون الذكر مختارا أيضا. فقد روى داروين أن الديك الداجن يفضل الدجاجة الحديثة السن على الدجاجة العتيقة . ولوحظ أيضا أن بعض الديوك تختار دجاجات دون أخرى.

١٢- تنازع أزواج الطيور:

بسبب هذا التنازع أو التنافس يقل تعدد الأزواج والزوجات عند الطيور فيندر أن تشترك الإناث فى مزاوجة ذكر ، أو الذكور فى مزاوجة أنثى ، لأن القتال أو التنافس فى الاستهواء يفضى أخيرا إلى فردية المزاوجة.

روى جنروير : أنه أدخل أنثى قبيحة إلى دار الطيور. فما لبثت أن خاصمت أنثى أخرى وقتلتها . فاضطرت تلك أن تعتزل . فبذلت القبيحة كل جهدها فى المغازلة حتى فازت بالذكر. وبعد حين ضعفت ، فعادت الأولى تنازعها زوجها حتى ظفرت به .

كل ذلك يدلك على أن للطيور ذوقا حادا فى تمييز الجمال والإعجاب به والانفعال منه، كما أن لها قوة غريبة فى التفنن بالمغازلة

وهذا الذوق العجيب الذى يضاهى ذوق الإنسان هو علة ارتقاء الجمال الصوتى والنظرى فى الطيور كما علله داروين بسنة الانتخاب الطبيعى والتناسلى. إذ لا يخفى عليك أن الذكر الأجمال شكلا ينجح فى المزاوجة والأقل جمالا يفشل. ذاك يكون له نسل، وهذا ينقطع نسله. وبفعل ناموس الوراثة تتجه السلالة إلى إنتاج الأجمل.

١٣- حب الحيوانات الثدية:

الحيوانات الثديية أقل جدا من الطيور إعجابا بالجمال واستهواءً به. ومع ذلك فإنها تتنازع فى الحب. وتستخدم قوتها البديعة فى النزاع والاختيار ذكرا وأنثى. ولبعضها نصيب من العشق أيضا. فقد روى كوبلس لداروين: أن كلبة عشقت كلبا، فما كانت لتفارقه إلا مرغمة. وأخيرا أبعدت عنه بتاتا فلم تعد تقبل كلبا آخر بدله كل حياتها.

وقد ذكر الكابتن بريان أن الفقمة -التى تعيش فى الماء واليبس على السواء- يجتاز الذكر منها الأنثى ويستأثر بها، ولا يقصر فى مغازلتها واستهوائها. والعادة أن الذكور تتربص على اليبس، حتى إذا صعدت أنثى قابلها أحد الذكور وصات أصواتًا تشابه أصوات الدجاجة. ثم يلاطفها ويداعبها حتى يحول بينها وبين الماء. وحينئذ يتغير سلوكه معها، فيصبح شرسا، فيدفعها إلى كنه. وهكذا لا يزال يقنص الإناث حتى يمتلئ كنه منها. وثم يختار إحداهما بينما أقرانه منشغلون فى اقتناص الإناث مثله. وهم يمسكونها بأفكاكهم كما تمسك القطط جراءها. ولا يندر أن يقع خصام بين الذكور فى سبيل اقتناص الإناث.

الغرائز عند الطيور والحيوانات:

ولقد شرح العالم « لويس هنرى مورجان » شرحا تجريبيا. جمع بيض دجاج، وهيأه للإفراخ، فسمع صياح الأفراخ قبل تثقب القشرة، ووجد الفرخ وهو داخل القشرة يحاول أن يثقب الخزانة الهوائية الداخلية، ليستنشق ما فيها من الهواء، ثم يشق القشرتين بنفسه ليخرج إلى عالم الحياة والوجود، وضع هذه الأفراخ فى حظيرة، وعزل بعضها عن بعض، ورمى إليها حبوبا مخلوطة بالحصى، فشاهدها جميعا تتبع نظاما واحدا فتزدرد الحب وتنبذ الحصى، ثم تدلك منقارها بالأرض يمنة ويسرة، تفاديا مما يكون علق به، ثم عاد فخلط هذا الحصى بالحب، ورمى به إليها، فرآها تفعل ما فعلته أولا، يهيجها نظر الحب ويبعث فيها الشوق إلى التقاطه، ثم إن ذوقها الفردي يدفعها إلى زرده أو نبذه. كل هذه الحركات المنتظمة المتجانسة خاضعة لسلطان الغريزة ولا دخل للكسب فيها.

ومن يطلع على غرائز الحيوان لا يسعه إلا الدهشة من بديع خلقها، وغريب أثرها. فنمل الحقول بحذقه الفطرى ينقل بيضه من ركن إلى آخر تكون حرارته كافية لفقسه. والخفاش يتقى ما يقع أمامه من الحواجز ، وهو طائر فى جنح الليل ، بما يشعر به من الصدى. فإن جناحيه يهزان الهواء ، فتنتشر أمواجه ، وتنعكس على ما تلاقيه من الأشباح ، وتعود إليه فيشعر بها.

والعنكبوت تغزل من لعابها خيطا ، تلصق طرفه بالسقف ثم تهبط عليه أو تصعد ، وتنسج من خيوطه شباكا ، تتخذها شركا لصيد الذباب.

والحرباء تتلون بلون ما يجاورها ، فيكون ذلك ردءا يدفع عنها العدوان . والقنفذ وقد تسلح جسمه بالحسك ، يضم بعضه إلى بعض إذ أحس مكروها . والقط ينتفخ فيحكى صولة الأسد فى ساعة الخطر . ولكل حيوان خاصة تناسب أعضاءه يجردها للدفاع عن حياته ، ويعرف بغريزته كيف يستعملها ويناضل بها ، حرصا على نفسه وعلى حياة نوعه.

والفراشة عندما تدب فيها الحياة ينمو فيها الوازع للسعى وراء القوت، ولحفظ النسل، فتعرف أين تضع بيضها، وكيف تدخر القوت لصغارها، ناسجة فى ذلك على منوال سلفها، مع أنها لم تختلط به اختلاطا يؤذن بالمحاكاة.

أما الإنسان فقد خلق ضعيفا محتاجا إلى المعونة فى كل مطالب الحياة. ولا يدرى أهذه طبيعة فيه؟. إن أثر فيه التحضر، فحرمه منذ أجيال عديدة لذة الاستفادة من تمرين غرائزه وتدريبها، ففقد النخوة، وورث الجمود، وتعود الاستناد إلى غيره، ولا يزال الضعف يتسرب إليه من جيل إلى جيل، كلما ارتقت به المدنية إلى معارج الكمال، شأن الإنسان المتحضر إذا قيس بالبدوى الذى يعيش فى الصحراء.

واعلم أن الماعز والبقر يشبهان الغزال وبقر الوحش، غير أن البيئة فرقت بين طبيعة كل منها، فضعف الماعز، وقوى الغزال، إلى حد أنك لو تركت الماعز دون أن تمده بالغذاء ما سعى إلى القوت سعى الغزال، بل تعييه الحيل فى الاحتفاظ بحياته فيموت جوعا.

الحيوان والإنسان:

تتحير عقولنا إذا نظرنا إلى خلقه وحركاته وانقياده لسلطان الغرائز. وقد يشارك الإنسان الحيوان فى بعض هذه الغرائز فيستأنس بذلك، ولا يعجب من فواعلها كما يعجب من مثل غريزة الهداية إلى الوطن عند بعض الحيوان وعند أكثر الطير والحشرات. أخبرنا التاريخ أن حمام الزاجل حمل الرسائل وطار بها من مكان إلى آخر، حتى استخدم فى الحصار، لحمل الأخبار، وقد أقامت له مصر فى العصور الغابرة أبراجا، وعينت لها حراسا يراقبون وصول الحمام ليلا أو نهارا.

والفواخت وهى من ذوات الأطواق تقطن الأقاليم الشمالية، وإذا آلمها البرد هجرت موطنها، وطارت مسترشدة بقائد تختاره من بينها إلى حيث يطيب لها المقام، ثم تقفل راجعة إلى وطنها فتهتدى إليه كأن بينها وبينه جاذبية، وربما لا يتأتى لها وهى طائرة فى جو البحار أن ترى معالم تتعرف بها طريق الوصول.

ربيت قطا بمنزلى ، فوضعته فى قفص مغلق ، وأسدلت عليه غطاء وأطلقته على مسافة بعيدة . وما كاد يمضى أسبوع حتى عاد إلى منزلى وهو يموء بصوت المعتذر المستاء .

نتلمس السر فى الهداية إلى الوطن عند هذه الحيوانات فلا نفهمه ، لأننا لا نشاركها فى هذه الغريزة . ويتبادر إلينا أن الحيوان يعتمد على وجدانه ، أو أن له قوة خفية تدرك التغيرات التى يلقاها فى طريقه فى أثناء مهاجرته فيضبطها ثم يستذكرها عند مسيس الحاجة .

وإذا أنعمنا النظر إلى « الزنبار » نراه قبل أن يتحول عن عشه يحوم حوله على دوائر صغيرة فكبيرة ، كأنه يرسم فى خياله معالم موطنه لتساعده على الاهتداء إليه.

أما الإنسان فما أضعف حظه من القوى البدنية ، تلقاء ما يموج بصدره من آلاف المطالب فيما يتعلق بغذائه وملبسه ومسكنه ، حتى دفعته القدرة الإلهية إلى مشاركة بنى نوعه فى ميادين المحاكاة والمنافسة ، ودائما يكد لسد نقصه . ومع أن حبه هذه المشاركة فطرى ، لا ينال غرضه على ما ينبغى إلا بالتعليم الصحيح الذى يلائم ما ركز فيه من الاستعداد للتعلم ، والاستفادة من التجارب الذاتية والنوعية ، والتكيف عند عروض الحوادث ، ولذلك تفاوتت درجات الناس فى الجدارة ، على أن اختلاف العناية بهذا الاستعداد وبذرائع التعليم أوجد بين أفراده تفاوتا كبيرا ، كالذى نراه بين الحيوان الوحشى والداجن الذى من نوعه ، فالوحشى بعد ميلاده يعتمد على محض سعيه ، والداجن يستند إلى غيره فيفقد قوة السعى الغريزية.

ولا يخفى أن الطفل إذا زاول الأمور بنفسه ، فى حالتى يسره وبؤسه وذاق من الحوادث مرها وحلوها ، وتقلب على نار الكوارث صغيرها وكبيرها ، يكون على شاكلة أهل البادية رجلا شهما.

أما الطفل الذى قعد به حظه ، وساءته تصرفات المشرفين عليه ، فاحتفظوا به

كالمتاع خشية أن يؤذيه هبوب النسيم إذا هب، فتراه مغبون الحق، ضعيف الصحة، سقيم الرأى كالذى نراه بين أبناء الطبقة المترفة.

يخرج الطفل إلى عالم الوجود مجردا عن معرفة اللغة التى يعبر بها عن أغراضه، جاهلا سنن الكون، لا يملك إلا الاستعداد الفطرى الذى يرهف التعليم حده، ويزيده مضاء وشدة. فما بالنا حينئذ نهمل تقويمه وهو يزداد بالاختبار نبلا ونتخم فكره بالمعانى الصعبة، ونلقيه قضايا العلوم الدقيقة لنخرجه قبل أوانه رجلا كبيرا، لماذا لا نسلمه إلى الحوادث فيتعلم من خيرها وشرها، ما ينبه التفاته، ويقوّى مداركه، ويفيده فى معترك الحياة.

إن للتعليم نظاما إذا روعى حول الطفل الضعيف إنسانا كبير النفس قوى الإرادة. وها هوذا قد احتواه جوف الأرض باحثا ومنقبا عن خيراتها الدفينة، ورفرف فى الهواء حتى صارع النسور على قمم الجبال، وخاض البحار، واتخذ من البخار والكهرباء خادما لمصالحه فى حلة وترحاله.

الفصل السابع

تأثير الوراثة في الغرائز والعادات

عرفت أن الغريزة قوة فطرية تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة.

أما العادة فإنها مرنة ، تحدث من تكرار ما سبق للعقل مزاولته من الأعمال ، بحال تجعل عرضها آليا ، بدون الاستعانة بالعقل . فبين الغريزة والعادة شبه فى الغاية ، وتباين فى الوساطة.

وقد اتفق العلماء على أن الغرائز تورث. واختلفوا فى وراثة العادات ، ففريق أجازها ، وفريق منعها ، وكلاهما يدلى بالحجة.

فمجيزو الوراثة يستدلون بأمر لا يعتد به إلا علماء الآثار الحيوية ، وهو ما يشاهدونه من التحسين التدريجى فى البقايا المتحجرة من النبات والحيوان. قالوا : لم يجىء هذا التحسين عرضا ، وإنما أوجدته الممارسة والتمرين . فالحيوان إذا استعمل عضوا فى قضاء مصالحه فإنه يقوى ، وتنتقل حاله بالوراثة من الأصل إلى الفرع ، واستدلوا على ذلك بانتقال المرض بالوراثة من الأب إلى ابنه.

ومعارضو الوراثة – وهم النشوئيون – يعتقدون أن هذا التغير إنما أتى بتأثير المصادفات ، وهى ليس لها نظام محدود ، فقد تظهر فى الطول أو العرض أو اللون أو القوة ، والفطرة تختار الأصلح ، والحياة جهاد وكفاح ، والجسم لا يحيا إلا إذا تغلب على الطوارئ حتى إذا ضعف عن احتمالها وَهَنَ وقُضى عليه. بهذا الرأى

فسر داروين ومشايعوه مذهب النشوء والارتقاء.

ثم دحضوا أدلة مجيزى الوراثة أولا بأن العيوب الخلقية والعمى والجهل كلها عوارض ولا يتنقل منها شيء بالوراثة . وعادة بتر أذناب الأغنام شائعة بين الرعاة ، ولم يروا فى نتاجها تشويها مثله. وعادة لِبس الصينيات الأحذية الحديدية لتصغير أقدامهن نشأت منذ أجيال ، وليس لعامل الوراثة فيها من تأثير. وعادة الختان يشترك فيها الوالدان ولا يظهر لها فى الأولاد أثر. أما انتقال الأمراض من الآباء إلى الأبناء فسببه العدوى لا الوراثة.

ثانيا: حقق البحث أن الخلايا التى تفرز الحيوانات المنوية تخالف خلايا الجسم ، وهى مع ذلك منفصلة عنها إلا فيما يتعلق بالغذاء . فالعمل الذى يؤثر وقعه فى الجسم، ويحدث كمالا أو نقصا ، لا شأن له مع المادة المفروزة لحفظ النوع. والفطرة وحدها تسلك بالنوع سبيل الصلاح، وسُنن تنازع البقاء تقضى بالحياة أو بالفناء إذا وجدت أو عدمت الأسباب

وقديما ظن بعض الطبيعيين أن العضو يحدث الوظيفة ، فاليد تكتب ، واللسان ينطق ، والعين تبصر. ورأى غيرهم عكس هذه القضية إذا كان فى العضو استعداد مخصوص للعمل ، فاليد إذا تعطلت عن العمل تشنجت ، ولا يكون علاجها إلا بالحركة ، واللسان إذا صمت خرس، ولا يبرئه إلا التمرين ، والمرأة المرضع يضخم ثدياها ، ومن تهملهما لا يكادا يظهران عندها، هذان رأيان لا يخلو كلاهما من تطرف. وصفوة القول أن العضو ووظيفته يؤثر أحدهما فى الآخر ، إذ العضو آلة العمل ، والعمل يرهف من حده ، ويزيد تركيبة متانة بنسبة ما يعانيه من حسن الأداء والمثابرة.

وقد تصدى جلادستون لمذهب النشوء والارتقاء فنقده حيث قال : إنى أحاول أن أرى الرقى الفكرى الذى حازه الخلف ، وقصر عنه السلف ، تصديقا لعقيدة النشوء ، فلا أكاد أجد له أثرا. لا يدور بخلدى أننا أقوى أجساما من أسلافنا أبناء

القرون الوسطى ، بل أعتقد أننا على الضد من ذلك ، فإذا وازنا نفوسنا بأسلافنا أبناء القرن السادس عشر مثلا نجد أنهم فاقونا فى الجسم والعقل ، ويرشد البحث بالقياس إلى أن نابتة المستقبل لا تبشر بهبات فطرية أعظم مما أحرزنا. غاية ما أفهم أن الرقى الذى وصلنا إليه إنما هو ثمرة الجد والاختراع ، وترقية شؤون الاجتماع ، واحتكاك العقول التى قدحنا زنادها ففجرت منابع الثروة ، وأرشدت إلى مناهج الصنعة ، وتبادل المنفعة. هذه كلها أمور لا أكاد أتصور أن للوراثة الشخصية فيها أثرا. أمامنا التاريخ حافلا بأخبار الأمم التى أخضعت العالم وملكت أقطابه، ثم دالت دولها ، وعفت معالمها. فإذا تسامحنا وقلنا : إن الحوادث وحدها هى التى هوت ببعض الأمم إلى الحضيض ، فلا يسوغ لنا أن نتحكم ونقول : إن القوى التى أخذت بيد الأمم الأخرى إلى معارج الرقى إنما هى وراثية . كل ما صادف طعنا فى النشوء فى الأمور العقلية نجده موجها إلى الأمور الدينية والأدبية . فالثقة وسلطان الدين فينا أضعف مما كانا على عهد الإصلاح اللوثيرى أيام مارتن لوثر كنج . زد على ذلك أن الحرية قد خرج بمدلولها طلابها عن الحدود المرعية حتى صارت شرودا وفوضى.

إذا وقفت على هذين المذهبين فى صحة وراثة العادات عرضنا عليك مسألة لا غرو فى أنها تحتاج إلى دراسة ، وهى ما تحققت وراثته من الصفات الكاملة فى الإنسان والخيل وكلاب الصيد. فالإنسان يرث بالمحتد نفسا كريمة نبيلة ، وأصائل الجياد تورّث ذراريها طيب الخلق وسرعة الجرى ، وكلاب الصيد تحتفظ ذراريها بمميزات فى الصيد والقنص.

فهذه أمور يستدل بها الفريق الأول على صحة وراثة العادات ، ويؤولها الفريق الثانى بأن الموروث هنا ليس صفة كسبية ، بل الموروث حسن تكييف الأعضاء ، واستعدادها لأداء وظائفها على الوجه الأكمل إذ ليس لها غُنية عن التمرين والممارسة. على أن هذه الممارسة إنما هى تمرين الغرائز التى تحتويها العادات.

ومجمل القول أن العادة وراثية باعتبار عناصرها المكونة لها وكسبية باعتبار ضم هذه العناصر بعضها إلى بعض، كالسلعة المصنوعة من جملة مواد أولية، ميزتها الصنعة، وألفت بين أجزائها تأليفا مناسبا لإرادة الصانع ومبلغ علمه وذوقه. فالبانى يجمع إلى بنائه صخرا وآجرا وبلاطا، وحديدا وأسمنتا، وخشبا وزجاجا، ثم ينسقه قصرا فخما يبدى فيه ما أوتيه من حسن الذوق، وليس بينه وبين الكوخ الحقير من فرق إلا فى أوجه النسب، وكيفية الهندسة والبناء والمواد الحديثة التى استعملت فى بنائه.

الفصل الثامن

الغريزة والتعليم

ميز الله تعالى الإنسان بقوتين جليلتين :

١ - القدرة على اختبار الأمور بنفسه ، واستنباط الضوابط ذات الخير والشر منها.

٢ - القدرة على سَبر غَور الأعمال التى نسج على منوالها الخلطاء والمعاصرون والسالفون ، والسعى فى محاكاة ما عانوه لرقى الشؤون الاجتماعية .

فالقوة الأولى يشارك الحيوان الراقى الإنسان فيها من بعض الوجوه. وأما الثانية فهى حبس على الإنسان يستفيد بها مطالبه من طريق التكلم مع المجربين وقراءة سيرهم والاسترشاد بنصائح المؤدبين ، والتخلق بهديهم.

من أجل هذا اهتمت كل أمة بسن أنظمة تلائم عاداتها . ومنذ فطر الله الإنسان على الاجتماع لا تزال القراءة والكتابة والحساب أساسا للتعليم.

يبتدئ الطفل فيتعلم لغة أبوية والمجتمع الذى يحيط به ويستفيد من تجاربهم ، ويتحول إلى ميادين أوسع يتعلم فيها اللغات وشؤون الحياة، ليكون له بالعقول الراجحة صلة . فتتسع مداركه ، وتمتد آفاق نظراته وتغزر ينابيع معارفه وأفكاره.

وقد كلف المعلم تهذيب الطفل ، وألزم تغذيته بالعلوم والآداب ، وحُمل عبء التبعة كلها للوصول به إلى شاطئ السلامة كاملا. حتى لقد غلا « هربرت » فادّعى أن فى استطاعته وحده أن يصيّره نابغة أو عبقريا. فهذا ممكن إذا وجد لدى الطفل

استعدادا للفهم والحفظ . وماذا عسى أن يبلغه المعلم القدير إذا فقد الطفل هذه المواهب ؟. والنسيان وحده آفة عاتية تعارض قوانين التعليم وتفقده قيمته. ومن يشترط فى المعلم الجدارة ويلفت نظره عن الاستعداد الفطرى للطفل فقد شطّ عن الصواب ، وربما غلبه فى حكمه هذا نبوغه فى إبان طفولته، فيتخذ من نفسه مقياسا وينبرى للمناضلة به. ومن يجرد نفسه من ذخائر الحفظ والذكر ، ثم يأخذ مجلسه بين المتكلمين أو الكاتبين لا يجد شيئا يستمدّ منه فى الأمرين.

مثال لضعف الحفظ والذكر:

إليك الفراشة ، يؤثر ضوء المصباح فى بصرها فتتأثر أعصاب الحركة عندها وتسعى للاقتراب من الضوء. وما تلمس اللهب حتى تحس ألم الاحتراق فترتد عائدة ، ثم يؤثر الضوء ثانيا فى بصرها ، فتنسى ما اختبرته أولا وتندفع إلى اللهب وتحتك به ، فيزيدها ألما على ألم . كأن ما أصابها أولا على شدته قد ذهب أدراج الرياح. ولا تزال فى اندفاع ونكوص حتى تتقطع أوصالها ، ويأتيها الموت من كل مكان. وأخيرا تحترق وتموت.

هذا هو شأن غير الفقرى من الحيوان فإنه يولد وينمو ونصيبه من الغريزة ثابت فى الأمرين لا يقبل التعديل . وقد استثنوا من ذلك النمل والنحل والزنبار فإن التمرين يكسبها قوة كالحيوان الفقرى الذى حياته رهينة الكسب.

الشوق والتشويق:

الشوق حنين النفس إلى شيء تميل إليه ، فتنبسط له الأعصاب وتستقبل مقدارا وفيرا من الدم يجول فى أنحاء الجسم ، ويعوض ما تداثر من أنسجته ويطهره من فضلات الاحتراق. وإذا حيل بين النفس وما تشتهى انقبضت الأعصاب، وانحسر الدم فيلقى الجسم العذاب من أجل ذلك ، ويعيش عيشة سيئة.

وليس لدينا ضابط للمشوقات إذ لكل إنسان غرض يوافق مزاجه يكد لإدراكه ولا يطيق عنه صبرا ، فإن من يجيد الخط مثلا إذا تناول مكتوبا قصر النظر على

حروفه وتراكيبه وأشار إلى ما وافق القواعد الخطية وما خالفها ، بيد أن الأديب يوجه نظره إلى مادته وما زخر فيها من المعانى وما حوته من الترتيب والتنسيق ويمر بخطه الكريم دون أن يعيره التفاتا.

لو قدر المربى على تعرف مزاج الطفل من خلال حركاته لتسنى له أن يقطع لرقى التعليم شوطا واسعا ، ولا تخذله من ذرائع التشويق عدته ، ولأمكنه أن يضبط انتباه الطفل ويسير به إلى الغرض المنشود.

لا نقول بضرورة كون هذا الوازع المشوّق من الأمور المألوفة فحسب ، لأن الأمر المألوف ترخص العادة من قيمته. فتبتذله النفس ولا يعود له وقع فيها. ولا نقول بضرورة كونه من الأشياء الطريفة الغريبة فحسب ، لأن الأمر الغريب تنفر منه النفس خشية أن تترسم فيه ما يؤلمها.

وإذا اجتمع الطريف والمألوف معا ، وائتلفت عناصرهما ولدت منهما شرارة الشوق ، وبزغت منهما أشعة الجذل والسرور.

كم تتلهف نفس طالب العلم إلى إحراز مكافأة شوقا إليها فإذا انطلق فى ميدان العلم ولامست قضاياه نفسه ، صار له من الاستكثار منه شوق يغنيه عن تلك المكافأة ، وبذلك نرى هذا الشوق خرج من دائرة المحسنات إلى درجة المعانى ، وهى الدرجة التى تسمو بها النفس.

وكثيرا ما تلهو نفس الطفل بما يملك حواسه فينصرف عن الانتباه إلى ما نريد ، وما هى إلا همة المعلم يستعين بها على إثارة الشوق فيه ، فيتحول الطفل بسهولة عن ميوله ويخضع لإرادة المعلم. فإذا رافقه المعلم إلى الصحراء مثلا وأراه مظاهر الطبيعة وآثارها البديعة من الجبال والهضاب ، وكيف يتراكم السحاب وأراه الشمس لابسة حلة الجمال فى شروقها وغروبها ، وفك وثاقه فسمح له بالجولان أينما شاء ، فإن ذلك يحرك فيه الشوق لا محالة فيزيد الأمور تأملا ويملأ عينيه من محاسنها يصغى إلى أسمائها وما يصوغه المعلم من الأحاديث لها ، ليسلى نفسه إذا

عاد بذكرها ويحدث إخوانه مفتخرا بها. وهذا هو معنى قول بستالوتزى :« كتاب الطبيعة يجب أن يقرأ قبل كل كتاب » .

ولقد يملك الشوق زمام الأديب فيدفعه إلى قرض الشعر أو قول النثر ، والمطالع يرى بروق الشوق تتلألأ من ثنايا منطقه العذب.

ولقد تفهم فواعل الشوق فى الحيوان ، إذا صوبت نظرك إلى الحصان مثلا وقد ساقه سائسه إلى موارد الماء ، فإنه ينقاد إليه رغما منه ، ولكنه لا يشرب إلا إذا اشتاق الماء ، أو أثار التصفير فيه هذا الشوق.

والشجرة تخرج أزهارها ذات الألوان الجميلة الجذابة تفتن بها الحشرات فتجيء إليها وتهبط عليها ، حاملة فى فمها وبين أرجلها مادة النبات فتتولد منه الثمرة.

الحاجة إلى شحذ الغريزة:

لو فحصت عن القوة التى تضبط حركات الحيوان لعلمت أنها الغرائز. فهو يسعى مسترشدا بنورها مقبلا على الخير مدبرا عن الشر

ولو بحثت عن القوة التى تملك زمام الطفل ، وتكفل الرجل فى الأوقات العصيبة التى يذهل فيها عقله ، ويحار لبه ، ما وجدت مصدرها غير الغرائز.

ولو نظرت إلى الإنسان العاقل والحوادث تصارعه ويصارعها ، لم تر له صديقا حميما يكف عنه المخاوف سوى الغرائز.

فللغرائز الحول والطول ، والحكم العدل.

بيد أن البيئة بما زخرت من ضروب الحيل ، والزخرف تستطيع أن تموه الباطل وتصبغه بصبغة الحق ، وتقف فى طريق الغرائز فتحول مجراها وتجعلها ذريعة الشر. فالسمكة تسعى فى البحر بدافع الغريزة لنيل غذائها فتلتقمه ، وقد يكون طعما فتقع به فى شرك الموت.

والإنسان يستند إلى بنى نوعه لأن الاجتماع فيه طبع فيجمعه سوء طالعه بقوم

قطع التنازع أواصر إخائهم فيلقى منهم ما يسوءه . والرجل يسقط من الترام فتتحرك رجلاه بحكم الغريزة دفاعا عن النفس فتمر العجلات بهما فتبترهما. والغريق يمد يديه أملا فى المعونة ، أو رجاء أن تتعلقا بشيء . فيكون صنعهما هذا سببا للغرق ، إذ لو ترك نفسه لطفا جزء منه فينجو .

قال ابن زيدون فى رسالته الجدية :« لا غرو قد يغِص الماء شاربه. ويقتل الدواء المستشفى به. ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمنى فى أمنيته . والحين قد يسبق جهد الحريص ».

إشراف العقل على الغرائز:

فالغريزة ترشد بالطبع إلى السلامة ، وتتغير صبغتها صلاحا وفسادا تبعا لطبيعة البيئة. ولذلك يجب إشراف العقل عليها ليمحص قضاياها ، ويتخذ منها مقدمات صادقة لأحكامه.

يتردد الإنسان بين طريقى الفضائل والرذائل كالتائه فى البيداء والسارى فى الظلماء ، وإذا اضطرب به بحر الحوادث مرت سفينته بشواطئ الشره والقناعة ، والجبن والشجاعة ، والحشمة والكبرياء والتواضع والرياء . فلا يدرى أيهما يختار، ولا على أيهما يعول ، وإذا قادته الغريزة إلى واحدة منها زحمته الأخرى حتى يؤيد العقل أمثلها وبذلك يظهر مقام الألمعى الذى يظن بك الظن كأنه قد رأى وقد سمع .

كان ابن طولون يأكل فى إحدى حدائقه. فرأى سائلا فى ثياب رثة ، فأرسل إليه بعض الغلمان برغيف ودجاجة، فرفض الغلام دون أن يتناول السائل منه شيئا. فأمر ابن طولون به فأحضر واتهمه بأنه جاسوس بعض الأعداء. فاعترف الرجل بذلك. فقال بعض جلسائه: إن صنيع الملك ضرب من السحر، فقال ابن طولون :

« إنما هو قياس صائب ، إنى رأيت سوء هيئة الرجل ، وإباءه عن طعام يتمنى

الشبعان أن يأكله. ثم رأيت ما له من الجراءة، ورباطة الجأش، فحكمت بما حكمت »

كيف نتخذ الغريزة أساسا للتعليم ؟:

علينا أن نثير بعض الغرائز فى الطفل، ثم نراقب أثرها ونعد له محوا وإثباتا على النمط الذى يلائم التعليم. فرضنا أننا عرضنا عليه لعبة جديدة، فإنك تراه يمد يديه لأخذها متلهفا وهذا طبع لا يتخلف فيه ما دام سليما من الأمراض. فرضنا أننا ضربناه على يديه وهو يمدها فإنه يردهما مكرها خوفا على نفسه من الأذى، ويتسلط عليه اليأس فيبكى ويصرخ، والبكاء فى اصطلاح الأطفال لغة يعبر بها عن الاستياء الذاتى يهيج به عواطف السامعين للأخذ بناصره.

هنا ظهرنا أمامه حينئذ مشفقين، ورمقناه بأعيننا فرحين وخاطبناه بلين القول، وأخبرناه أن هذه اللعبة ملكنا، وأن فى إمكانه أن يتوسل إلينا ويستعطفنا بإعطائها إليه كرما وفضلا، فربما سكن روعه وهدأ جأشه ولبى هذا الطلب رغبة فى تملكها، ومتى سلمناها إليه نجده لا محالة يمسح عن عينيه دموع الحزن، ويستبدل بها دموع الدلال، ويبسم ثغرد ويجرى ماء البشاشة فى وجهه، ويجول السرور فى صدره.

فهذه سلسلة حركات اطرادية متلازمة، يؤثر جمال الشيء فى بصره، فتتحرك يداه لملكه، وتنبعث نفسه لاغتصابه، ولا يستطيع كتمان ما يدور بخلده إذا حُرمه، فيبكى إشارة إلى حبوط مسعاه، وإذا خفف وطأة طلبه بحسن عبارته، واستعمل التلميح بدل التصريح لإظهار عواطفه، فإنه يظفر ببغيته المنشودة.

فإذا فهم الطفل هذه الحركات النفسية، ووعاها واستعمل ملكتى الحفظ والذكر خير استعمال بمعنى أنه عندما تنزل به الحوادث يتريث حتى يستذكر نتيجة تجاربه فيما له بها شبه، فإنه يصبح أحزم من أن يمد يده أخرى على وجه يكون عقباه الضرر.

ويعبارة أخرى يقف مترددا بين مطلبى الغريزة والعقل، رغبة فى أخذها ورهبة

من العقوبة ويرجح جانب العقل.

إليك هذا المثال : إن الشمعة المضيئة تنبه مركز الإحساس البصرى فى المخ فينتقل التأثير منه إلى مركز الحركة. ومنه إلى العضلات الموصولة به فتتحرك تنفيذا للعمل المطلوب ، فتمتد اليد إلى الشمعة لتلمسها. ثم إن الحركة التى تحدث ألم الاحتراق تنبه عن طريق آخر مركز الإحساس لأداء عمل يضاد الأول ، وهو كف اليد عن مركز التأثير ، فإذا عرض التأثير فى فرصة أخرى ، فإن مركز الإحساس الذى ضبط صورة الانفعال الأخير وما فيه من حرج ، ينقل الإحساس إلى المخ مباشرة بدلا من الاستعانة بمركز الحركة ، ثم يسرى حكم العقل فى لهب الشمعة إلى كل ما له شبه به ، فيدعو الحوادث ويذكر ما لابسها من الخطر قبل أن تمتد اليد للاختبار، ويصدر الحكم إما بعدم الاقتراب منه لأنه ذو خطر ، وإما بالفرار منه.

وقد ورد فى الأثر: « لا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين » فالمؤمن الذى شأنه أن يكون عاقلا إذا نزلت به مصيبة بحث عن أسبابها ، وفسح لها فى ذهنه مكانا فإذا عاودته بنفسها أو بنظائرها ، أيقظ عقله للحكم السديد قياسا على ما جرّب ونبه الوازع لاجتنابها ، إلا إذا قضى عليه القضاء المبرم ، وأنساه استحضار العبرة ، فحينئذ لا يتسع المجال إلا للصبر.

فعلى المربين أن يرفقوا بقوّتى الحفظ والذكر ، ولا يركنوا إلى مجرد الاستظهار مهملين الاستذكار الإرادى الذى هو دعامة الأخلاق ، أليست المعانى كنزا يدخر لينفق منه عند مسيس الحاجة؟ ولولا الإنفاق لكان المدخر من سقط المتاع.

اختلاف نزعات الكُتّاب والخطباء:

تختلف نزعات الكُتّاب والخطباء باختلاف قدرتهم على عرض الأفكار وأشباهها ونظائرها ، ترى الشاعر إذا عزم على الإنشاء تتوارد على ذهنه المعانى والأفكار والعبارات ، فيحاول أن يؤلف بين أشتات الشوارد، ويسوق إلى الناس قولا يستهوى العقول وينقلها إلى الأغراض التى يريدها ، فأحيانا يريد تصغير نفس

البخيل فى نظره وتنفيره من البخل. وقد قال حاتم الطائى فى هذا المعنى وأجاد :

يرى البخيل سبيل المال واحدة　　　إن الجواد يرى فى ماله سبلا

ويرى أحيانا أن ينزع عن الجبان رداء الرعب والفزع ، وينفخ فيه روح الشجاعة والإقدام ، كما قال جرير:

قل للجبان إذا تأخر سرجه　　　هل أنت من شرك المنية ناج ؟

ويريد أحيانا أن يزيل ما يخالج القلب من الامتعاض ، كما قال صاحب المثل السائر :

جرحوا قلبى وحبهم يذهب بألم الجراحة ، وطرفوا عينى وهم يزيدون فى نظرها ملاحة .

ويريد أحيانا أن يعتذر عن مزاولة أمر غير مباح على حد قول ابن الرومى:

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه　　　حدادا على شرخ الشبيبة يلبس

ويريد أحيانا أن يرقى إلى ذروة الرجاء فيصوغ الفذ على النهج الذى صاغه أبو زيد الأشبونى فى إدريس العالى ملك الأندلس حيث قال :

انظرونا نقتبس من نوركم　　　إنه من نور رب العالمين

وقد بلغ تأثر الملك من روعة هذا الشعر، وكان محتجبا على عادته. إن أمر الحاجب أن يرفع عنه الحجاب ليقابل بوجهه وجه الشاعر وأمر له بإحسان ليجمع بين أمنيتيه .

يقظة الغريزة الجنسية:

يبدأ الصبى بعد فترة طويلة أو قصيرة فى الانتباه إلى ذلك الذى يحدث بين كل حين وآخر والذى يبدأ فى أول الأمر كحالة منعكسة غير إرادية . ولا ريب فى أن النمو العقلى السريع فى الإنسان من الأسباب التى تلفت نظره إلى وجود الفوارق بين الجنسين حتى قبل أن تستكمل العاطفة الجنسية نموها. بل أن المظاهر الأولى

لهذه العاطفة هى التى توجه نظر الصبى إلى تلك الفوارق ؛ لأنه قبل ذلك العهد لا يدرى وجودها ولا يلتفت إليها ولا يهتم بمعرفتها . ومن عادة الإنسان أنه يمر على الأمر الذى لا يهمه فلا يلتفت إليه. ولذلك فنحن نرى أن الأفراد الذين تنضج العاطفة الجنسية عندهم متأخرة أو ضعيفة قلما يهتمون بمعرفة هذه الأمور بل وقد يجهلونها جهلا فاضحا بعكس الأفراد الذين تظهر عندهم العاطفة الجنسية مبكرة أو قوية.

ثم لا يلبث الفعل التناسلى بين الحيوان أن يوقظ اهتماما غريبا فى نفوس الصبيان ذوى الميول الجنسية الحادة أو المبكرة. وهم يدركون بسرعة عجيبة الغرض من هذا الفعل ويحاولون أن يجدوا له نظيرا فى أجسامهم . ومن هنا يبدأ تأثرهم من رؤية المرأة وخصوصا من رؤية ما لم يعتادوا رؤيته فيها مثل بعض أجزاء جسدها التى تغطيها بالثياب أو مثل بعض ملابسها وأدوات زينتها أو بعض روائحها الخاصة أو من رؤية نساء لم يعاشروهن كثيرا ، وهذا هو السبب أيضا فى أن الإخوة والأخوات لا يشعرون بأى إحساس جنسى متبادل . ولا تبعث رؤية الفتاة العارية فى صبيان الشعوب المتوحشة أى رغبة جنسية عندهم لأنهم ألفوا أن يروا الفتيات على هذه الصورة بينما يوقظ منظر الفتاة العارية رغبة جنسية عنيفة فى نفوس الذين ألفوا رؤية المرأة تحجب جسمها بالملابس ، وكذلك فإن رؤية وجه المرأة عاريا يبعث الشهوة الجنسية إلى نفس الشرقى ورؤية الساق العارية فى نفس الأوروبى ، وذلك لأن النساء اعتدن أن يحجبن وجوههن فى الشرق وسيقانهن فى الغرب ، أما إذا كانت العاطفة الجنسية فى الرجل عنيفة أو متعطشة ، فإن رؤية المرأة عموما تهيجها ما لم تكن من تقدم السن أو الدمامة بحيث ينفر الرجل منها.

ومن المميزات الهامة للعاطفة الجنسية الطبيعية فى الرجل أنها تتأثر تأثرا قويا من رؤية المرأة الصحيحة القوية الجسم ، فالقوام الصحيح المعتدل والرائحة الطبيعية والصوت الرقيق والجلد الناعم كلها من المرغبات القوية التى تسر الرجل وتهيج

عاطفته أما كل امرأة غير صحيحة أو ذابلة وكل رائحة مرضية ، فمن شأنها أن تؤثر على الرجل تأثيرا منفرا ، ومن شأنها أن تعطل الرغبة الجنسية أو تهبط بها.

وكل ما يتعلق بالأعضاء التناسلية يعمل على هياج العاطفة الجنسية وخصوصا إذا كانت مستورة بالملابس من قبل وكذلك هو الحال أيضا فى الثديين.

ولا تكون الإحساسات الجنسية فى أول الأمر ظاهرة ومتميزة ، بل إن الصبى يشعر بدافع مبهم غامض يدفعه نحو الجنس اللطيف ، ويصوره له تصويرا مرغبا جذابا ، وبذلك قد يرى الصبى نفسه فجأة عاشقا لصورة امرأة ذات صدر ناهد وعيون فاتنة ، ويصبح مرأى هذه الصورة أو حتى مجرد مرورها فى خياله باعث رغبة جنسية فى نفسه. غير أن هذه الرغبة لا تتركز على الفعل التناسلى كما هو الحال مع الرجل البالغ المجرب فى هذه الأمور ، ولكنها تكون عامة ومبهمة وإن كانت لا تخلو من العامل الجنسى.

ويتكرر شعور الصبى بهذه الدوافع مدة طويلة دون أن يستطيع إرواءها فيلجأ عقله الباطن إلى الأحلام ، ولكنها لا تلبث أن تنحصر فى أعضائه التناسلية ، وخصوصا فى حشفة القضيب. وتبدأ الأعضاء التناسلية فى المرأة – كما يعرفها أو كما يتخيلها – فى إثارة الهياج إلى نفسه بعد أن كانت لا تخطر إلى باله من قبل.

وعند الشعوب المتوحشة – وكذا فى الحيوان – يبدأ الذكر مغامراته الغرامية منذ ذلك الحين ، وسرعان ما ينال غرضه لأن الرجل فى الحالة الطبيعية يتزوج بمجرد وصوله إلى سن المراهقة و البلوغ.

الفصل التاسع

فرويد.. والغريزة الجنسية

يعتبر العالم النمساوى الشهير « سيجموند فرويد » من أوائل المهتمين بعلم النفس ، ولقد نهضت مدرسة التحليل النفسى على يديه ، ولقد قسم فرويد النفس البشرية إلى ثلاثة مستويات « الهو – الأنا – الأنا الأعلى » .

الهو : هو منبع الغرائز البشرية .

الأنا : هو الشخص نفسه وهى الطبقة الفاصلة بين الهو والأنا الأعلى .

الأنا الأعلى : هو الضمير والغرائز الموجودة ، إذا صعدت إلى الهو يتم إشباعها دون النظر إلى أى اعتبارات أخلاقية ودينية ، ولذلك يوجد الأنا الأعلى الذى يقف رقيب بين الفرد وغرائزه .

الغريزة الجنسية:

يقر فرويد : « ربما كان لابد من الاعتراف بأن العامل النفسى يؤدى أعظم الأدوار فى تحويل الغريزة الجنسية فى أبغض وأقبح الشذوذات ، ولا سبيل إلى إنكار أن قدرا من العمل النفسى. معادلا للاستمثال ، قد تحقق فيها رغم ما أفضى إليه من نتيجة مخيفة . وقد لا تتبدى القدرة المطلقة للحب أقوى مما تتبدى فى انحرافاتها هذه. والذروة والحضيض فى مجال الجنسية وثيقا الترابط على الدوام ».

نتيجتان : أظهرت لنا دراسة الشذوذات أنه يتعين على الغريزة الجنسية مصارعة بعض القوى النفسية بوصفها مقاومات. أبرزها الخجل والاشمئزاز. ومن الجائز

افتراض أن هذه القوى تسهم فى الحد من الغريزة الشهوانية ضمن ما يعتبر سويا وهى وإن نمت فى الفرد قبل أن تبلغ الغريزة الجنسية أوج قوتها فلا شك أنها حددت لنمو الغريزة وجهته. وقد لاحظنا أيضا أن بعض الشذوذات التى فحصناها لا تفهم إلا بالجمع بين عدد كبير من الدوافع ، فإن هى قبلت التحليل فلابد أنها ذات طبيعة مركبة. وهو ما يوحى لنا بأن الغريزة الجنسية ذاتها قد لا تكون بسيطة بل مركبة من عناصر انقسمت ثانية فى الشذوذات، وهكذا تجذب المشاهدة الإكلينيكية انتباهنا إلى أخلاط ضاعت معالمها فى السلوك السوى الرتيب.

إن معرفتنا بالغريزة الجنسية لدى الأشخاص الذين يقتربون على الأقل من السواء ، يمكن أن نضيف إليها إضافة هامة مستمدة من مصدر لا يمكن بلوغه إلا بطريق معين ، فليس ثمة وسيلة واحدة للحصول على معرفة شاملة غير مضللة عن الحياة الجنسية لدى من يسمون بالعصابيين النفسيين (مرضى الهستيريا والعصاب الوسواسى وما يسمى خطأ بالنورستانيا فضلا عن الجنون المبكر والبارانويا) ذلك بإخضاعهم للفحص التحليلى النفسى المستخدم فى الطريقة العلاجية التى وضعها كل من « ج بروير » وأنا نفسى سنة ١٨٩٣ والتى كانت تعرف إذ ذاك باسم « التطهير ».

ولابد لى أن أشرح بادئ ذى بدء – على نحو ما فعلت من قبل فى كتابات أخرى – أن هذه الأعصبة النفسية ، بقدر ما وصلت إليه خبراتى، إنما تقوم على القوى الغريزية الجنسية . ولست أعنى بذلك أن طاقة الغريزة الجنسية تسهم فى القوى التى تحتفظ بالظواهر المرضية (الأعراض) فحسب بل أود أن أؤكد صراحة أن هذا الإسهام هو المصدر الوحيد الثابت الأهم لطاقة العصاب. ومن ثمة فإن الحياة الجنسية لدى هؤلاء الأشخاص تظهر فى الأعراض إما وحدها أو بصفة خاصة أو بصورة جزئية . والأعراض ، كما قلت فى موضع آخر ، هى النشاط الجنسى للمرضى . والبينة على هذا التوكيد قوامها العدد الذى لا ينفك يتزايد من حالات

مرضى الهستيريا وغيرهم من العصابيين الذين قمت بتحليلهم إبان الخمس والعشرين سنة الأخيرة وهى حالات قدمت عن نتائجها ، وسوف أواظب على ذلك ، تقريراً مفصلا ورد منشورات أخرى .

والتحليل النفسى يزيل الأعراض الهستيرية مفترضاً أنها بدائل - أو نسخ مطابقة للأصل إن جاز التعبير - لعدد من العمليات النفسية والأمنيات والميول ذات الشحنة الانفعالية ، وكلها قد حيل بينها وبين الانصراف فى نشاط نفسى يجيزه الشعور، إثر عملية نفسية خاصة (الكبت) ، وهذه العمليات النفسية ، وقد استبعدت على هذا النحو فى اللاشعور ، تسعى إلى التعبير عن نفسها تعبيراً يتناسب وأهميتها الانفعالية ، أى أنها تتطلب منصرفاً . وهى تجد فى حالة الهستيريا مثل هذا المنصرف عن طريق عملية التحول إلى ظواهر بدنية - أى إلى أعراض هستيرية ، ونحن إذ نرجع هذه الأعراض إرجاعا منتظما بطريقة فنية خاصة إلى تصورات ذات شحنة انفعالية يمكنها الآن أن تدخل فى نطاق الشعور ، نحصل على أدق المعارف فى طبيعة هذه الأبنية النفسية التى بقيت لا شعورية وكذلك أصلها.

نتائج التحليل الجنسى :

وعلى هذا النحو تبين لنا أن الأعراض تمثل بديلا عن الدوافع التى تستمد قوتها من الغريزة الجنسية ، وأن ما نعرفه عن خلق الهستيريين وهم نموذج لجميع العصابيين قبل مرضهم وعن الأحوال التى عجلت به. يتفق وهذا الرأى كل الاتفاق ، فالخلق الهستيرى يتجلى فى وجود درجة من الكبت الجنسى تزيد على القدر السوى وفى اشتداد المقاومات للغريزة الجنسية وفى ما يبدو منهم من أعراض يكاد يكون غريزيا عن الاهتمام العقلى بالمسألة الجنسية ، ومن ثمَّ يظل المرض، ولاسيما فى الحالات البارزة ، فى جهل جنسى تام يمتد إلى سنوات النضج الجنسي.

وهذه الصفة الجوهرية من صفات الهستيريا. كثيرا يحجبها عن النظرة السطحية وجود عامل جبلى آخر فى الهستيريا هو نمو الغريزة الجنسية نموا غلابا. بيد أن

التحليل النفسى يستطيع دائما [illegible] أول هذه [illegible]
تضعه الهستيريا ، وذلك بكشفه زوج الأضداد المميز لها ألا وهو الحاجة الجنسية المفرطة وغاية الإعراض عن الجنس.

وفى حالة من يكون ذا استعداد هستيرى ، يظهر المرض حين يواجه الشخص مطالب موقف جنسى واقعى أو نتيجة لنموه الجنسى التدريجي أو لظروف حياته الخارجية ، ويهيئ له المرض طريقا للهرب، وسطا بين ضغط الغريزة وما يعترضها من نفور جنسي. والمرض لا يحل الصراع بل يسعى إلى تجنبه بتحويل الدوافع الليبيدية إلى أعراض ، وحين يمرض شخص ، أى رجل ما ، بالهستيريا نتيجة انفعال غير ذى بال أو أثر صراع غير متمركز على الاهتمام الجنسى ، فالاستثناء لا يكون إلا ظاهريا ، وفى مثل هذه الحالات يستطيع التحليل النفسى أن يبرهن دائما على أن المرض يعود إلى العنصر الجنسى من الصراع الذى عوق العمليات النفسية عن بلوغ غايتها السوية.

الشذوذ والعصاب:

إن جزءا كبيرا مما تصادفه معتقداتى هذه من معارضة قائم على اعتبار أن الحياة الجنسية التى أرد إليها الأعراض العصابية النفسية . مطابقة للغريزة الجنسية السوية. بيد أن التحليل النفسى يعلمنا أكثر من هذا . فهو يبين أن الأعراض لا تتولد البتة على حساب ما يسمى بالغريزة الجنسية السوية (أو على الأقل لا دائماً ولا فى الأغلب) ، وإنما هى تعبير تحولى عن غرائز يمكن وصفها – إن أمكن التعبير عنها مباشرة فى الخيال والسلوك دون أن ينشغل بها الشعور – بأنها منحرفة بأوسع معانى الكلمة ، ومن ثمة تتكون الأعراض جزئياً على حساب الحياة الجنسية غير السوية والعصاب – إن جاز التعبير – هو الصورة السالبة للشذوذ .

فالغريزة الجنسية لدى العصابيين النفسيين تتكشف عن كل الانحرافات التى درسناها بوصفها تنوعات فى الحياة الجنسية السوية ومن حيث هى مظاهر للحياة

الجنسية السقيمة.

(أ) فالحياة النفسية اللاشعورية لدى العصابيين (بلا استثناء) تنطوى على دوافع نحو الارتكاس وتثبيت الليبيدو لديهم على أشخاص من نفس جنسهم . ومن المحال – ما لم نتعمق فى مناقشة الأمور – تقويم أهمية هذا العامل تقويماً دقيقاً بالنسبة للصورة التى تتخذها الأعراض فى المرضى ، ولكن لا يسعنى إلا أن أؤكد أن ثمة على الدوام ميلا لا شعورياً إلى الارتكاس يؤدى لنا أعظم الخدمات فى تفسير الهستيريا لدى الرجال على وجه التخصيص.

(ب) ومن الممكن أن نستبين – فى اللاشعور لدى العصابيين النفسيين – ميولا تناظر الامتدادات التشريحية كلها ، وتكون مسؤولة عن تكوين الأعراض ، وأكثر هذه الميول وروداً وقوة هى تلك التى يقوم فيها الغشاء المخاطى للفم والشرج بدور الأعضاء التناسلية .

(جـ) تقوم الغرائز الجزئية – التى غالباً ما تظهر فى أزواج من الأضداد – بدور بارز بروزاً خاصا فى تكوين الأعصبة النفسية، وقد عرفنا هذه الغرائز من حيث إنها تضع أهدافاً جديدة – وهى غريزة حب النظر والميل إلى الاستعراض وغريزة القسوة فى صورتيها الموجبة والسالبة ، وما تسهم به هذه الأخيرة جوهرى لفهم الطبيعة المؤلمة للأعراض وكيف أنها تكاد تسيطر دائماً على جزء من سلوك المرضى الاجتماعى ، وعن طريق هذا الارتباط بين الليبيدو والقسوة يتم كذلك تحول الحب إلى كراهية ونوازع الود إلى نوازع الجفاء وهو ما يتميز به عدد كبير من حالات العصاب والبرانويا عامة .

وثمة حقائق خاصة تزيد من أهمية هذه المكتشفات :

(أ) فكلما وجدنا فى اللاشعور غريزة من هذا القبيل يمكن أن تتزاوج وضدها ، نجد دائماً أن هذه الغريزة الأخيرة تكون فعالة كذلك ، فكل انحراف إيجابى

يصاحبه ههنا نظيره السلبي : ومن يكون في اللاشعور محباً للاستعراض يكون محباً للنظر في الآن ذاته ، ومن يعاني نتائج ما كبت من نوازع سادية فثمة مصدر آخر لأعراضه مستمد من ميله المازوكي . والشيء الملفت للغاية هو ظهور الاتفاق التام مع مسلك الانحرافات " الموجبة " المقابلة . بيد أن أحد الميول المتعارضة هو الذي يقوم بالدور الغلاب في صورة المرض.

(ب) ليس من الأمور العادية أن نجد غريزة منحرفة واحدة فقط نامية في أية حالة خاصة من حالات الأمراض العصابية . إننا نجد عادة عددا كبيرا من هذه الغرائز المنحرفة ، كما نجد عادة بقايا منها جميعا . غير أن درجة نمو كل غريزة معينة مستقل عن نمو الغرائز الأخرى . وهنا أيضاً تمدنا دراسة الشذوذات " الإيجابية" بالنسخة المطابقة الدقيقة.

المناطق الشهوية والغرائز الجزئية:

إن جمعنا ما تعلمناه من دراستنا للانحرافات الإيجابية والسلبية، فإنه من المعقول أن نرجعها إلى عدد من « الغرائز الجزئية » التي ليست ذات طبيعة أولية ، ولكنها قابلة لمزيد من التحليل . ونقصد بالغريزة – بصفة مؤقتة – الممثل العقلي للمنبهات التي تنبعث من مصدر بدني داخلي ، والتي تكون في تدفق مستمر ، وذلك في مقابل " المنبه" الذي يتكون من مجموعة واحدة من الآثار الآتية من الخارج . إن مفهوم الغريزة ، إذن ، من أحد المفاهيم التي تقع على الحدود بين العقل والبدن . ويبدو أن أبسط وأوضح فرض يمكن أن يوضع فيما يتعلق بطبيعة الغرائز هو أنه ليست الغريزة في ذاتها كيفية ، ويجب أن نعتبرها فقط ، فيما يتعلق بالحياة العقلية ، كمقدار معين من لدافع الموجه إلى العقل لكي يعمل . إن ما يميز بعضها عن بعض، ويمدها بكيفيات معينة أنها هو علاقتها بمصادرها البدنية وبأهدافها ، إن مصدر الغريزة هو عملية تهيج تحدث في عضو ما ، وإن الهدف المباشر للغريزة هو إزالة هذا المنبه العضوي.

ثمة فرض مؤقت آخر لا بد لنا من وضعه فى نظرية الغرائز يقول: إن الإثارات تصدر عن أعضاء الجسم على نحوين أساسهما اختلافات فى الطبيعة الكيمائية . ونحن نصف أحد هذين النحوين من الإثارة بأنه جنسى نوعى والعضو الخاص به بأنه " منطقة شهوية " للغريزة الجزئية الجنسية الصادرة عنه.

ويتضح الدور الذى تقوم به المناطق الشهوية يكون واضحا وضوحا مباشرا فى حالة الانحرافات التى تعطى أهمية جنسية لفتحتى الفم والشرج ، فهاتان الفتحتان تتصرفان من جميع الوجوه كأنهما جزءان من الجهاز الجنسى. وفى الهستيريا يصبح هذان الجزءان البدنيان والمناطق المجاورة من الغشاء المخاطى مركز إحساسات جديدة وتغيرات فى الإثارة العصبية – وفى الواقع ، مركز عمليات يمكن مقارنتها بالانتصاب – تماما كما يحدث للأعضاء التناسلية الحقيقة أثناء التهيجات الخاصة بالعمليات الجنسية السوية.

ومعنى المناطق الشهوية من حيث هى أجهزة مكملة للأعضاء التناسلية وبدائل لها يكون أوضح ما يكون فى الهستيريا دون الأعصبة النفسية جميعا ، وإن كان ذلك لا يعنى أنه أقل فى الصور الأخرى التى يتخذها المرض . وكل ما فى الأمر أنه أقل بروزاً لأن تكون الأعراض فيها (العصاب السوسواسى والبارانويا) تحدث فى مناطق من الجهاز النفسى أمعن فى البعد عن المراكز الخاصة المحددة للضبط الجنسى . وما يسترعى الانتباه فى العصاب الوسواسى هو معنى تلك الدوافع التى تخلق أهدافاً جنسية جديدة وتبدو مستقلة عن المناطق الشهوية .

ومهما يكن من شيء فالعين فى حب النظر والاستعراض تناظر منطقة شهوية ، وتقوم البشرة بدور مماثل فى عناصر الألم والقسوة من الغريزة الجنسية والبشرة تفاضلت فى أعضاء معينة من الجسم فأصبحت أعضاء حسية أو تحولت إلى غشاء مخاطى بحيث يكون الغشاء المخاطى هو المنطقة الشهوية بالذات.

الجنسية الطفلية:

إن الاعتقاد الشائع فى الغريزة الجنسية أنها مفتقدة فى الأطفال، وأنها تظهر فقط فى مرحلة الحياة التى تعرف بالمراهقة أو البلوغ وليس ذلك مجرد خطأ بسيط، دائماً هو خطأ أدى إلى نتائج جسيمة، إذ إن جهلنا الحالى بالشروط الأساسية للحياة الجنسية، إنما يرجع أساسا إلى هذه الفكرة، ومن المحتمل أن تؤدى الدراسة الدقيقة للمظاهر الجنسية للصفولة إلى الكشف عن الخصائص الأساسية للغريزة الجنسية، وقد توضح لنا سير نموها، وطريقة تكوينها من مصادر مختلفة.

وجدير بالذكر أن الكتاب والمؤلفين الذين عنوا بشرح خصائص واستجابات الراشد قد اهتموا بالفترة السابقة فى حياة سلف الفرد اهتماما أكبر من اهتمامهم بالفترة السابقة الأخرى التى تقع فى حياة الفرد ذاته - أى أنهم نسبوا إلى الوراثة أثرا أكبر من أثر الطفولة، وفى الحقيقة، أنه من الممكن أن نفترض أن أثر هذه الفترة الأخيرة أسهل للفهم، وأنه يستحق أن يبحث قبل تأثر الوراثة، حقا أننا نجد أحيانا فى الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع بعض الملاحظات عن النشاط الجنسى المبكر عند الأطفال الصغار - عن حالات الانتصاب، والاستمناء، وحتى بعض أنواع النشاط الذى يشبه الجماع. ولكن هذه الحالات كانت تذكر دائماً باعتبارها حوادث استثنائية، أو حالات شاذة، أو حالات من الفجور المبكر، وعلى حسب معلوماتى، لم يدرك أى مؤلف منهم بوضوح وجود الغريزة الجنسية عند الأطفال فى صورة منتظمة، كما أن الكتابات الكثيرة التى كتبت عن نمو الأطفال قد أغفلت عادة الفصل الخاص «بالنمو الجنسى».

وإنى أرى أن سبب هذا الإهمال الغريب، من ناحية، فى اعتبارات اللياقة التى يراعيها هؤلاء المؤلفون كنتيجة لتعليمهم الخاص، ومن ناحية أخرى، فى ظاهرة سيكولوجية قد استعصت على التفسير حتى الآن. إن ما أفكر فيه هو النسيان الغريب الذى يخفى الفترات المبكرة من الطفولة حتى سن السادسة أو الثامنة عند

معظم الناس ، ولكن ليس عند الناس جميعا . ولم يخطر لنا قبل الآن أن نشعر بأية غرابة بصدد هذا النسيان، بالرغم من أنه كانت لدينا أسباب قوية لذلك . وذلك لأننا نعلم من الأفراد الآخرين أننا أثناء هذه السنوات ، التى لا نحتفظ منها فى ذاكرتنا فيما بعد إلا قليلا من الذكريات غير المفهومة . والمتناثرة ، قد استجبنا بحماس لبعض الانطباعات ، وأننا كنا قادرين على إظهار الألم والسرور بطريقة إنسانية ، وأننا أظهرنا أدلة على الحب والغيرة وبعض الحالات الوجدانية العاطفية التى تأثرنا بها جدا فى ذلك الوقت ، وأننا قمنا أيضاً بإبداء بعض الملاحظات التى اعتبرها الراشدون دليلا قويا على حصولنا على الاستبصار وعلى مبادئ القدرة على الحكم . ولكننا لا نعلم شيئاً من ذلك كله حينما نتقدم فى السن ، لماذا تتأخر ذاكرتنا كثيرا عن أنواع النشاط العقلى الأخرى ؟ إن لدينا ، على العكس ، أسبابا وجيهة تدعونا إلى الاعتقاد بأنه لا توجد فترة نكون فيها أقدر على استقبال الانطباعات واستعادتها غير فترة سنوات الطفولة على وجه التحديد.

ومن زاوية أخرى يجب أن نفترض ، أو من الممكن أن نقنع أنفسنا بالفحص السيكولوجى للأفراد الآخرين ، أن هذه الانطباعات ذاتها التى نسيناها قد تركت مع ذلك أعمق الآثار فى عقولنا ، وأنها أثرت تأثيراً فعالا فى نمونا التالى كله . ولذلك ، فلا يمكن أن يكون الأمر هنا عبارة عن محو حقيقى لانطباعات الطفولة ، وإنما هو نسيان شبيه بالنسيان الذى يظهره العصابيون بالنسبة للحوادث التى تقع فيما بعد ، وإن أساس هذا النسيان هو مجرد إبعاد هذه الانطباعات عن الشعور ، أى كبتها . ولكن ما هى القوى التى يصدر عنها هذا الكبت لانطباعات الطفولة؟ إن من يستطيع حل هذا اللغز يستطيع فى الوقت ذاته تفسير النسيان الهستيرى.

ورغم ذلك ، فيجب ألا يغيب عنا أن وجود نسيان الطفولة يمدنا بنقطة جديدة للمقارنة بين الحالات العقلية للأطفال وبين الحالات العقلية للعصابيين . وقد سبق أن مررنا بنقطة أخرى للمقارنة فى القاعدة التى توصلنا إليها وهى أن الجنس

عند العصابيين قد بقى فى مرحلة طفلية ، أو أنه رد إليها . أفليس من الممكن أن يكون نسيان الطفولة أيضاً مرتبطًا، فى نهاية الأمر ، بالرغبات الجنسية فى مرحلة الطفولة.

ونستنتج من ذلك أن العلاقة بين نسيان الطفولة والنسيان الهستيرى أكثر من مجرد لعب بالألفاظ . إن النسيان الهستيرى الذى يحدث بأمر الكبت يمكن أن يفسر فقط على أساس انه توجد عند الفرد بالفعل مجموعة من الذكريات التى أبعدت عن تصرف الشعور ، والتى تعمل الآن على أن تضم إليها ، عن طريق الارتباط ، المادة التى تبعدها قوى الكبت عن الشعور . ومن الممكن أن يقال أنه بدون نسيان الطفولة لا يكون هناك نسيان هستيرى.

إنى متأكد حقاً ، أن نسيان الطفولة الذى يحول طفولة كل فرد إلى شيء شبيه بمرحلة تقع قبل التاريخ ، والذى يخفى عنه مرحلة ابتداء حياته الجنسية ، إنما هو مسؤول عن هذه الحقيقة وهى أنه لا تنسب إلى الطفولة، على وجه عام ، أية أهمية فى نمو الحياة الجنسية . إن الثغرات التى تكونت فى معرفتنا بسبب ذلك لا يمكن أن يقوم مشاهد واحد أن يسدها . ولقد قمت من قبل منذ عام ١٨٩٦ تأكيد أهمية سنوات الطفولة فى تكوين بعض الظواهر الهامة المتعلقة بالحياة الجنسية . ولم أقلع منذ ذلك الحين عن توكيد أهمية العامل الطفلى فى الجنسية.

سيطرة الغرائز على الأطفال:

ويحسن أن نتنبه إلى سيطرة الغريزة سيطرة واسعة المدى على نفسية الطفل. فهو لا يتعلم كيف يتحكم فى غريزته إلا تدريجيا. وهذا لا ينفى بطبيعة الحال أن البالغين أيضا تسيطر غرائزهم على سلوكهم سيطرة أشد مما يعترفون به غالبا. ونحن أحيانا نقول أن النساء تسيرهن الغريزة ، أما الرجال فيسيرهم العقل. والحقيقة أن الرجال والنساء جميعا تسيرهم الغريزة. بيد أن الرجال يبحثون فيها بعد عن مبررات عقلية لسلوكهم.

وفى كثير من الأحيان يعمل الطفل بوحى من غريزته. ولكن الغرائز كثيرا ما تتعارض مع تياراتها. فغريزة إثبات الذات قد تتعارض مثلا مع غريزته الاجتماعية التى تطالبه بإرضاء المجموعة، فلا يدرى كيف يوفق بين هذين الاتجاهين، ولا يتعلم إلا شيئا فشيئا كيف يتحكم فى ميوله الغريزية ليغلب بعضا منها على بعض. وعلى هذا الأساس، يكون ما نسميه « بالشيطنة » أو الخبث عبارة عن سلوك غريزى لم يصقل ولم يهذب.

ومن الواجب علينا أن نضع على الدوام نصب أعيننا أن الطاقات الغريزية والانفعالات الغريزية هى القوى الدافعة فى الشخصية. ولذا كان من الأهمية بمكان عظيم أن نعرف كيف نسوس الغرائز وانفعالاتها عند الطفل سياسة حكيمة فنوجهها الوجهة الصالحة، ولا نعمل على مصادرتها.

ويجب أيضا أن ندرك أن جميع الغرائز تولد مع الطفل وتلازمه بعد ذلك طيلة عمره. وإن كانت الغرائز بطبيعة الحال، ليست بدرجة واحدة من القوة والازدهار فى جميع مراحل العمر.

وهنا لابد لى من التمهل قليلا لألقى بكلمة تحذير فيما يتعلق بغريزة الجنس. فبعض الناس يعتقدون أن هذه الغريزة لا يبدأ نشاطها إلا عند البلوغ. فهذا القول تشويه للحقيقة أو بتر لجزء جوهرى منها، فالواقع أن الغريزة الجنسية لا يبدأ نشاطها بصورة شعورية إلا عند المراهقة. ولكنها قبل ذلك ومنذ الميلاد قائمة غير معدومة ونشطة غير نائمة، ولكن فى مستوى آخر غير مستوى الشعور. ولذا قد تحدث الصدمات النفسية فى فترة الطفولة المبكرة أضرارا تقضى على التوافق الجنسى بعد البلوغ، إذا لم ندخل فى حسابنا الحرص على سلامة تلك الغريزة ومظاهرها قبل المراهقة.

ولنذكر أن علم النفس يعنى بكلمة الجنس جميع مظاهر الحياة الجنسية. فالطفلة الصغيرة وهى تلهو بالعرائس، تنقاد فى الحقيقة لغريزتها الجنسية الأنثوية، وتعبر

بطريقة لا شعورية عن نوازع الأمومة فى تلك الغريزة. والحيلولة دون هذا النشاط تلحق الأذى الشديد فيها بعد بالحياة الجنسية لتلك الفتاة، بعد بلوغها.

وسأذكر هنا حالة نموذجية، تدل على مبلغ ما فى العبث بمسائل الجنس عند الطفل من خطورة لا ترد على بال الكثيرين:

ذات مساء، جاءنى شاب فى التاسعة والعشرين من عمره، وصارحنى وهو فى شدة التأثر بأنه اكتشف فى نفسه شذوذا نفسيا مزعجا. فهو يشعر فى أحيان كثيرة بميل نحو أشياء تخص الجنس الآخر، لكنه ميل هادئ جدا: حتى إذا وقعت عينه على حذاء امرأة ثار إحساسه الجنسى ثورة عارمة لا يكاد يفلح فى مقاومتها.

وليس من الضرورى أن يكون الحذاء فى قدم امرأة، بل يكفى أن يرى فى واجهة متجر حذاء نسويا معروضا للبيع كى يتنابه ذلك الإحساس الجنسى العنيف.

وعرفت من أول وهلة أننى بإزاء ضحية من ضحايا ذلك الاضطراب النفسى النادر المسمى «القلق الجنسى بحذاء المرأة». ونومته تنويما مغناطيسيا، فاكتشفت من اعترافاته أنه وهو طفل صغير كانت مربيته ترقده على البساط أمام نار المدفأة ثم تدغدغ بمقدم حذائها الصغير المنطقة الجنسية فى جسمه. وبهذه الوسيلة الخرقاء، كانت تلك المربية تثير المشاعر الجنسية عند ذلك الطفل عن طريق حذائها.

ولما كبر الطفل ووصل إلى سن المراهقة، وتفتحت غريزته الجنسية لتؤدى نشاطها فى المستوى الشعورى، لم يجد لديه استعدادا للإثارة الجنسية على النحو المعهود عند الناس عن طريق الميل إلى وجه جميل أو قامة ممشوقة. كلا بل كانت الإثارة تحدث لديه عند لمس حذاء امرأة أو رؤيته.

وقبل أن أوقظ المريض من نومه المغناطيسى، أمرته أن يتذكر بعد يقظته ذلك الحادث المدفون فى أعماق اللاشعور. وفعلا تذكر بعد يقظته كل شيء رغم بُعد العهد، وكانت نتيجة هذا أنه تخلص من شذوذه وصار كسائر الرجال الأسوياء.

ومن هذا المثال ، نستخرج عبرة تنفعنا فى تربية أطفالنا فلا ننسى أن الطفل يولد بغرائزه الثلاث الكبرى ، وأنها تدفعه لأنواع من السلوك قد تبدو لنا « شيطنة » وخبثا وعنادا ولجاجة . وإنما هى فى الواقع تيارات تفرض عليه من تلك الغرائز فرضا. فلا يمكنه إيقاف تيارها أو صده . والحكمة تقضى أن نوجه ذلك التيار اتجاها يصرف طاقة الغريزة مع التعديل المناسب ، من غير أن نطمر تلك الينابيع التى ترتوى منها شجرة حياته.

فإذا رأيت ابنك الصغير يثب بحذائه القذر فوق مقعد الصالون النظيف الفاخر أو فوق وسادة الفراش ، وهو يلوح فى الهواء بخشبة قذرة ويقول لك :

- أنا الفارس صاحب هذه القلعة !. فاخرج منها !.

فلا يذهبن بك الغضب عليه كل مذهب ، ولا تصب عليه اللطمات. فهذا الذى ترى إنما هو فى الواقع تعبير صحيح ، وإن كان لا يعجبك ، عن تلك الطاقة الغريزية التى ستبنى عليها فيها بعد موهبة القيادة أو الزعامة. لهذا يجب أن تتريث كثيرا وتتحكم فى غضبك كى لا تصادر هذه الغريزة ، أو تخنق شجرتها فى مهدها. بل ابحث عن تعديل مناسب لمظاهر هذه الغريزة بحيث تتجه لدى ابنك الصغير اتجاها يفيد فى تنمية شخصيته ومواهبه ولا يتعارض مع آداب السلوك ، حتى لا تحرم الجيل القادم من أحد زعمائه المنتظرين.

والبعض منا قد يشعرون بإعجاب شديد نحو ذلك الطفل الشديد التهذيب ، الذى تناديه أمه فيلبى النداء على الفور ، وتأمره أن يتخلى عن لعبه مهما كان منهمكا فيه فينفض يده منه بغير تردد. لا يصرخ ، ولا يجرى ، ولا يعارض ، ولا يتمرد . فكأنه كلب حسن التدريب، أو آلة مجردة من الإرادة.

ولكن مثل هذا الطفل الذى يرضى عنه أبواه، ويصفه الناس جميعا بالطيبة، هو فى الحقيقة مثال للشخصية السلبية. وعندما يشب عن الطوق لن تكون لديه همة أو حماسة لأى شيء من تلقاء نفسه. فقد تعود الانقياد وخنقت لديه بذور المبادأة

والشخصية المستقلة والإرادة المتصرفة .

ولست أعنى أن الطفل الذى قفز فوق الوسادة بحذائه القذر ، وتخيل نفسه فارسا مغوارا فى حرب ضروس ، يجب أن يترك لشأنه. فمن الواجب بطبيعة الحال أن تأمره بالنزول إلى الأرض ، وتنظيف حذائه ، ومراعاة اللياقة. ولكن فى الوقت نفسه يجب أن تهيأ له لعبة أخرى أو طريقة من الطرق تجمع بين حسن المظهر والتنفيس عن ميوله الفطرية وتنميتها.

وزيادة فى الإيضاح ، سأقدم حالة طفل آخر ممن تعود بعض الآباء أن يضربوهم لامتداد أيديهم بالتلف إلى كل شيء. لنفرض أن طفلا أخذ المنبه من فوق المائدة أو الرف وانفرد به فى ركن وفك أجزاءه. فمن الطبيعى أن يشعر أبوه بالغيظ الشديد منه ، وقد يضربه ويحذره من العود إلى هذه الشيطنة.

فإن أطاع الغلام أباه مدفوعا بالخوف من عقابه الشديد ، فسيكون الضرر المترتب على تلك الطاعة أفدح بكثير من العصيان . لأن حب الاستطلاع هو الذى دفعه إلى العبث بالمنبه . وحب الاستطلاع هو الأساس الغريزى لملكة الابتكار والاستكشاف والبحث . وبذلك ربما كانت هذه العلقة الرهيبة سببا فى قتل باحث فى الكيمياء ، أو رائد من رواد الذرة ، أو الدراسات الفلكية أو الطبيعة.

والأفضل أن يتمالك الأب غضبه ، ويقدم لابنه منبها قديما مما يباع فى محلات الخردة كى يفعل به ما يحلو له . وبذلك لا يخنق عند ابنه حب الاستطلاع بل يوجهه توجيها بنائيا نافعا فى تقوية شخصيته ، بحيث يساعد على تقديم إنسان نافع للمجتمع.

وفضلا عن هذا ، ينبغى أن نتذكر أن خنق الميل للزعامة مثلا عند الطفل ، سيكون لديه عقدة لا شعورية تسبب له الشذوذ فى تصرفاته كأن يصبح ميالا للغطرسة ، أو غير ذلك من الانحرافات. وأن حب الاستطلاع إذا صودر عند طفل قد يؤدى به فى المستقبل إلى أنواع من الشذوذ المُخجل.

ولهذا السبب أنصح الوالدين كلما أقدم الطفل على إتلاف شيء أو الخروج عن المألوف، أن يحاولا بهدوء تحليل هذا السلوك ورده بقدر الإمكان إلى الغريزة الأصلية التي دفعت به إلى ارتكاب ذلك العمل. ثم عليهما أن يتدبرا الأمر بمحاولة اكتشاف التعديل المناسب بدلا من الاندفاع فى الغضب ومصادرة ميول طفلهما بقسوة مخيفة.

وهناك مناسبات كثيرة يكفى الإهمال والإغضاء فيها لتقويم السلوك، فالطفل يميل إلى تسليط الأضواء على نفسه. ولهذا السبب قد يقدم على إحداث ضجة بغير مناسبة. لأنه يعلم أن تلك الضجة ستلفت إليه الأنظار وتجعله موضع اهتمام، ولو بالزجر والتعنيف . فإذا مكر به الوالدان مثل مكره وكأنهما لم يشعرا بشيء غير مألوف، ولم يعيراه نظرة عتاب، أسقط فى يده وعدل عن هذه الخطة التى ثبت له عقمها.

وأذكر حادثة من هذا النوع تدلنا على مدى حرص الصغار على اهتمام الناس بهم. وبطلة هذا المثال فتاة صغيرة فى السابعة من عمرها شاءت الظروف أن يحل يوم عيد ميلادها فى موعد دعوة شخصية بارزة للشاى على مائدة أبويها.

وشدد الأبوان على الصغيرة ألا تفتح فمها أو توجه الخطاب إلى الضيف. لأنه حضر للتحدث مع أبويها لا معها. وسمحا لها بالجلوس بجوار الضيف بعد أن تعهدت ألا تستلفت نظره بأى صورة من الصور.

وكانت الهدايا التى قدمها الأبوان إلى الصغيرة عبارة عن ساعة معصم من الذهب وزجاجة عطر ومنديل مطرز . فجعلت بين دقيقة وأخرى تضع الساعة على أذنها. ثم تحرك معصمها المزين بالساعة بحيث يكون أقرب ما تستطيع من الضيف. وتخرج منديلها المعطر وتضعه على أنفها. وبعد أن كررت هذه الحركات عشرين مرة من غير أن تفلح فى تنبيه الضيف غلبها اليأس على أمرها فخرقت التعليمات جميعها وصاحت بالضيف:

- أرجو ألا تنزعج إذا سمعت صوتا غريبا يقول: تك تك تك، أو شممت رائحة غير مألوفة، فليس هذان إلا ساعتى الجديدة وعطرى الذى ضمخت به منديلى المزركش.

فالصغيرة المسكينة لم يعد فى استطاعتها أن تظل بعيدة عن الأضواء فى يوم ميلادها أكثر من هذا.

وكان بودى أن أحذر الآباء والأمهات من مغبة تشويه الحقائق المتعلقة بالجنس، عندما يسألهم أطفالهم عنها. فكم من رجل عجز عن المضى فى حياة جنسية سوية لأن والديه وهو صغير غرسا فى نفسه الخزى من كل ما هو متصل بالجنس. فإذا سألك صغير لك عن تلك الحقائق، فلا تحطها فى نظره بالغرابة والغموض، أو النفور والخجل.

إن طفلك حين يشير إلى طائرة فى الجو ويسألك ما هذا، لا تتردد فى أن تقول له بكل بساطة واستقامة:

- هذه طائرة.

ولا يبدو على وجهك أو صوتك ما يدل على الانفعال الصريح الخفى، فيتقبل الطفل هذه المعلومات بكل براءة، ويستخدمها فى بناء معارفه الصحيحة عن الكون الذى يحيط به. ولكن إذا جاءك هذا الطفل، وسألك بنفس تلك البراءة وحب الاستطلاع:

- من أين يأتى الأطفال يا أبى ؟.

فمن النادر ألا يظهر عليك الحرج، وألا يحمر وجهك، وتغير مجرى الحديث أو تتهرب من الإجابة على السؤال بأى شكل. وعلى الفور يسجل الطفل فى ذهنه أن هناك سرا أو شيا مخجلا أو غير مستحب حول هذه المسألة.

وليس هذا أسوأ ما فى الموضوع. فبعض الآباء يضللون الأطفال بأكاذيب

شائعة، مما يؤدى إلى الإضرار بعقلية الطفل العلمية، وزعزعة ثقته بأبويه، وإشعاره فى النهاية بأن مصدر وجوده فى الدنيا مخجل، لا يستسيغ الناس التصريح به. ويصل بهم الخجل إلى حد الكذب والخداع.

ولو أنك أجبت الطفل بنفس الأسلوب الذى اتبعته حين سألك عن الطائرة، فقل له ببراءة وبساطة:

- يخرج الطفل من بطن أمه.

إذن لتلافيت كل هذه المضار، ولشب الطفل إنسانا لا يشعر بالخجل الوبيل من وظائف الحياة الطبيعية. ذلك الشعور الذى هو لباب التأثم.

وأود الآن أن أتحدث عن أفضل الوسائل لتأديب الطفل أو توقيع العقاب عليه، من غير أن يؤدى ذلك إلى الشذوذ والالتواء.

وأول هذه الأمور فى نظرى، وأولاها بالرعاية، ألا يكون العقاب عملية انتقامية، بل يجب أن يكون الهدف منه استبدال عادة حسنة بعادة أخرى سيئة، كم يسخطنى أن أرى الكثيرين من الآباء ينزلقون إلى معاقبة أطفالهم بشدة وعنف لمجرد التنفيس عن عواطف أولئك الآباء وانفعالاتهم الثائرة.

ومثال ذلك أن يتلف طفل شيئا ذا قيمة، وهو لا يعرف بالتأكيد تلك القيمة، فينهال عليه أبوه ضربا. فيحس الطفل بالاستنكار الشديد، لما فى العقوبة من جور غير مفهوم فى نظره. وربما تعلم من هذه العقوبة الحذر والحرص فى المستقبل حتى لا يكسر شيئا، ولكنه فى الغالب سينطوى على النفور من أبيه. وسيتعلم كيف يخفى آثار أخطائه خوفا من العقاب، وسيجره ذلك إلى الكذب وترك الشبهات تعلق بأذيال الأبرياء، جبنا من تحمل مسؤولية فعلته.

وإنى أوصى الآباء والأمهات بتفهيم الطفل موضع خطئه بوضوح تام قبل العقاب، وإلا لم يكن للعقاب جدوى. وألا تتأخر العقوبة عن الزمن الذى وقع فيه الخطأ تأخرا يباعد بين المسألتين فى عقل الطفل.

ومن أطرف الأمثلة التى مرت بى فى هذا الصدد أن طفلا صغيرا عصى أمه ذات صباح. فقالت له :

– عندما يأتى والدك سأطلب منه أن يجلدك بحزامه عقابا لك.

وانقضى النهار وانشغل الطفل بعشرين موضوعا آخر . وفى المساء عاد الأب من الخارج ، وبعد أن عاونته الأم فى خلع ثيابه فى حجرة النوم نزل إلى قاعة الجلوس فوجد الطفل مستغرقا فى تصفح كتاب للقصص المصورة ، فقال له بهدوء :

– تعال معى فلابد الآن أن أجلدك .

وذهب الطفل مع أبيه مستسلما ، وبعد الجلد نزل إلى المطبخ فسألته الخادمة :

– لماذا تبكى ؟.

– جلدنى أبى .

– لماذا ؟. ماذا فعلت حتى جلدك ؟.

– كنت أتصفح كتاب القصص المصورة .. لهذا جلدنى.

وكان واضحا أتم الوضوح أن الطفل لم يربط إطلاقا بين الجريمة والعقوبة. وأن أباه إذ أغفل تفهيمه الموقف ، قد تركه يعتقد فيه الظلم ومخالفة المعقول. وليس من المستبعد أن تترك هذه الحادثة أثرا عميقا مثل الجرح الغائر فى عقل الطفل. ويفقد احترامه لأبيه وتقديره لحسن وزنه للأمور. وربما تطور ذلك إلى عقدة اضطهاد خبيثة.

ومن الواجب أن نحسب حسابا لحدود عقلية الطفل ، فلا نكثر من الأوامر والنواهى بغير موجب. لأن الطفل فى هذه الحالة سيرتبك ولا يفقه حكمة الطاعة التى نطالبه بها. وقد أحصى أحدهم الأوامر التى صدرت لطفل واحد من أبويه منذ الغداء إلى وقت النوم ، فإذا بها أكثر من سبعين أمرا أو تحذيرا

ويحسن ألا نعاقب الطفل على شيء ثم نأتى مثله ، فالكذب والخداع وخلف

الوعود مسائل نعاقب عليها الطفل. فإذا ضبطنا نرتكبها احتقرنا احتقارا شديدا، حتى ولو لم يصرح بها فى نفسه.

وأعرف أبوين كانت لهما ابنة صغيرة وكجميع الآباء كانا ينهيانها عن الكذب والخداع. وفى ذات ليلة رفضت الطفلة أن تنام خوفا من أن يخرج أبواها ويتركاها نائمة فى رعاية الخادمة، وتعهد الأبوان بعدم الخروج تلك الليلة، وأوت الصغيرة إلى فراشها. ولكنها ما أن استغرقت فى النوم حتى خرجا.

ولسوء حظهما أيقظ صوت إغلاق الباب النائمة الصغيرة وأنصتت لوقع أقدامهما على الدرج، ثم نزلت من الفراش إلى الأرض وجذبت الخادمة من ثوبها ووقفت معها تطل من وراء الستائر على أبويها وهما يعبران الشارع، ثم أشارت إليهما بإصبعها الصغيرة وقالت للخادمة:

- هاك أكبر كذابين رأيتهما فى حياتى، ولا هم لهما فى ذلك إلى التشديد علىّ لأقول الصدق دائما.

وبعد أن كبرت هذه الفتاة قليلا، فشل الأبوان فى حملها على الإقلاع عن الكذب والخداع. فكانت تذهب لتلعب فى الحدائق بعد خروجها من المدرسة، وتزعم أنها كانت تتلقى دروسا إضافية.

وليس من الغريب أن يعوج سلوك هذه الفتاة عندما تبلغ أشدها، ولا تقيم وزنا لرأى أبويها فيها، لأنهما خسرا احترامهما فى نظرها بسبب تلك الحادثة الصغيرة.

وأنى أنصح فى جميع الأحوال الآباء بأن يكون العقاب مفيدا لا ضارا. فالطفل الذى يبعثر أوراق اللعب على البساط، يجب أن يجمع تلك الأوراق واحدة واحدة ويعيدها إلى مكانها قبل أن يسمح له بالانصراف إلى أية لعبة. فإن تلكأ، فحسب الأبوين أن يمنعاه من اللعب إلى أن ينفذ الأمر.

وإذا أظهر الطفل عنادا وعصيانا وعبوسا، فحسب الأم أن تقول:

- إن العبوس يتعب الجسم . وقد ظللت مدة طويلة عابسا ، ولذا يجب أن تذهب الآن وترقد فى فراشك نصف ساعة.

فمثل هذا الاستلقاء أفضل من الضرب أو من الحرمان من الطعام ، وإن كان الحرمان من الحلوى مثلا تأديبا لا بأس به .

وليعلم الأبوان أن معاملة الطفل معاملة استبدادية تنتج عنها فى الغالب آثارا تدهشهما وتثير سخطهما . وأول هذه الآثار أن الطفل بعد تخرجه واعتماده على نفسه فى معاشه لا يرحب بالإكثار من زيارة أبويه ، فيتهماه بالعقوق ، مع أنه فى الحقيقة يعبر عن ميله للهرب من مكان عومل فيه معاملة المعتقلين ، وأين هو المعتقل الذى تستهويه زيارات السجن بعد إفلاته منه ؟

إن أفضل ما يفعله الأبوان هو كسب صداقة الطفل ، ولو على حساب شيء من راحتهما الوقتية. فإن حساسية الطفل المفرطة وسيطرة غرائزه عليه ، مما يجعل الرفق به أدوم الصلة وأجدى لنضوجه وسعادته المستقبلة.

كما تناول أيضا فرويد موضوع الغريزة الجنسية فى حياة الإنسان قائلا :

يعرف الإنسان « الشبق » - أو الجوع الجنسى - منذ مولده ، ويتركز إشباع هذا الجوع خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حياة الإنسان فى اللذة التى يستشعرها من إثارة المناطق الحساسة كالفم والأعضاء التناسلية. والطفل فى هذا يشبع نفسه بنفسه ، إذ يجد مآربه الكاملة فى شخصه.

وقد تظهر على الإنسان منذ سن مبكرة ، بعض البواعث المتطرفة كالسادية أو النزوع إلى القسوة كمصدر للذة الجنسية . و «كالماسوشية» أو النزوع إلى كشف الأعضاء التناسلية والنظر إليها ولمسها والرغبة فى أن يلمسها الغير. وكالفضول الجنسى . إلخ التى تعترى المرء فى طفولته أو فى أكثر ميل واحد منها.

وتبعث هذه النوازع فى الطفل شعورا بالذنب يزداد ويستفحل إذا هدده أحد أو

توعده . وهذا الشعور يلعب دورا كبيرا فى تكوين خلقه وشخصيته وفى تكوين مرضه العصبى إذا مرض.

الحب الجنسى بين الابن والأم:

ويحس المرء فى هذه المرحلة المبكرة من النمو الجنسى ببوادر الحب الجنسى ، وسرعان ما يتجه الشبق إلى إيثار وتفضيل الجنس الآخر ، وهذا من شأنه أن يؤدى إلى « عقدة أوديب » وهى من العقد النفسية بالغة الأهمية فى التحليل النفسى الذى يرمى إلى إيضاح المرض العصبى . ذلك لأن الطفل الذى يشعر نحو أمه بروابط عاطفية لا يلبث أن يصاب بالمرض العصبى فيما بعد إذا لم تخف حدة عاطفته هذه.

والواقع أن عقدة أوديب من أهم بواعث الشعور بالذنب الذى يراود المرضى بأعصابهم ويشقيهم ، بل إن الشعور بالذنب الذى يخامر الجنس البشرى بأسره — والذى يعتبر الباعث الأول للمبادئ الدينية والخلقية – قد لا يبعد أن يكون ناشئا عن استفحال هذه العقدة النفسية فى باكورة التاريخ.

ومن شأن « عقدة أوديب » هذه أن يزداد شعور الابن بالحب لأمه ، تصاحبه كراهية مكبوتة للأب قد تشتط إلى درجة تمنى موته من جراء روح الغيرة . أما عند البنت فتتخذ عقدة أوديب صورة الحب الشاذ لأبيها. والكراهية لأمها.

عقدة أوديب لب المرض العصبى:

ولابد للإنسان منذ وصوله إلى سن البلوغ من أن يعكف على المهمة الكبرى التى تفضى إلى تحرير نفسه من أبويه. ولا يعتبر أنه خلف الطفولة فعلا إلا حين يتم هذا التحرر، فإذ ذاك يصبح عضوا فى المجتمع .

ويتمثل التحرر بالنسبة للابن فى تخليص نزواته أو بالأصح شهواته من الاتجاه إلى أمه ، ليستغلها فى نشدان حب مادى آخر، وفى إصلاح ذات البين مع أبيه إذا كان قد ظل على كراهيته له ، أو فى تحرير نفسه من تسلطه عليه ، إذا كان فى مقاومته للتمرد الصبيانى قد استسلم للخضوع له.

وتنشأ الحالات العصبية عن عدم تحقيق هذا التحرر. فيظل الابن طيلة عمره تحت تسلط الأب، ويبقى عاجزا عن نقل جوعه العاطفى إلى هدف جديد. وكذلك الأمر بالنسبة للبنت. ومن ثم نرى أن عقدة أوديب هى لب المرض العصبي أو نواته.

الصراع بين المثل العليا والشهوات:

ويتلخص أثر عقدة أوديب فى تكوين الاضطرابات العصبية والنفسية فى الكبر، فى أنها تعمل أولا على خلق نمو أو تطور خاطئ فى الغريزة الجنسية بحيث تحجز باعثا أو أكثر من منشطاتها عن النمو الطبيعى، وتدع البواعث الباقية تمضى فى نموها حتى تبلغ غايتها النهائية، فإذا ما اعترضت الشخص البالغ الناضج عقبات خارجية قوية تمنعه من إشباع جوعه الجنسى، اتجه دائما إلى الرجوع إلى البواعث التى سبق إيقافها عن النمو، والتى كانت تهيئ له ثغرات للتنفيس عن ذلك الجوع.

وأعراض الأمراض العصبية النفسية التى تصيب الأفراد من جراء الحرمان ليست فى الواقع سوى أسباب بديلة تعوض المريض عن الإشباع الذى يفتقده، وتجعل علامات الصراع العقلى تبدو عليه، إذ يتشبث جزء من شخصيته برغبات معينة، فى حين يكافح جزء آخر هذه الرغبات. ومن ثم يدور الصراع بين الغرائز الذاتية وبين الغرائز الجنسية. إذ تكون الذاتية قد كونت لنفسها مبادئ ومثلا عليا لا تلبث أن تجدها متناقضة مع الرغبات والشهوات فى أشكالها الأولية المبكرة.

انعدام الصراع العقلى ينقذ المرء من المرض:

وقد قلنا من قبل: إن الشخص حين تصادفه فى كبره عقبات خارجية تمنعه من إشباع الجوع الجنسى، يرتد إلى البواعث النفسية التى سبق إيقافها عن النمو أثناء التطور الجنسى. والحالة التى شرحناها فى الفقرة السابقة كيف يتسبب هذا الارتداد فى خلق الأمراض العصبية. أما إذا لم يؤد الارتداد إلى مطالبة شخصية المرء بتحمل شيء من الحرمان. فإن دواعى الاحتكاك والصراع لا تجد مجالا، ومن ثم لا

يترتب على هذه الحالة شيء من الأمراض العصبية ؛ بل يجد إشباعا لأحاسيسه وشهواته فى بعض أشكال الإشباع المستترة أو الكامنة.

أعراض المرض العصبى مظهر مستتر لرغبة مكبوتة:

قد يتعرض المرء لموقف يعز فيه إشباع الجوع الجنسى فيتحول هذا الجوع من الظهور فى عالم الحقيقة، إلى الانزواء فى أعماق النفس ، حيث يثير نزعات خيالية تمت إلى بعض المراحل المبكرة من العمر ، ولو أن العقل الواعى لم يكن يفطن إلى وجودها.

والشخص فى هذه الحالة يفقد اتزانه واستقراره ، ولكنه لا يصبح بعد مريضا - وإن كان مصيره إلى ذلك ، اللهم إلا إذا وجد منفذا آخر للجوع الجنسى المكبوح - وتظهر أعراض المرض نتيجة الصراع بين الشهوة التى لا يشعر بها العقل الواعى ولكنها تكافح لتنبهه إلى وجودها ، وبين رغبة شخصية المرء التى تحاول أن تقمع تلك الشهوة وتحول دون ظهورها فى مجال الوعى. وتكون الأعراض فى هذه الحالة عوامل للتوفيق بين الرغبتين المتصارعتين ، وهى لا تظهر إلا مستخفية أو متنكرة فى غير صورتها ، ولذلك لا يفطن المرء إلى حقيقتها.

ومن هنا نرى أن أعراض المرض العصبى تشبه أعراض الحلم فى تكوينها ومنشأها ، وفى أن كلا منها تعتبر مظهرا تنكريا لرغبة مكبوتة.

الفن منفذ النزوات الغريزية المكبوتة:

والفن من السبل التى تسلكها النزعات الخيالية الناشئة عن الكبت، فى سعيها للعودة إلى عالم الحقيقة. وما الفنان إلا شخص طوى جوع الجنس فى نفسه ، فأثار نزعاته الخيالية . وهو بهذا الوضع ليس بمنأى عن المرض العصبى. ذلك لأنه يعانى من حاجات غريزية لا سبيل له إلى إشباعها ، لذلك فإن طول الحنين إلى الإشباع لا يلبث أن يتحول من الحقيقة إلى محاولة الإشباع بالابتكار والخلق الخيالى.

وهناك هدف آخر ، ثانوى ، من وراء أعراض الأمراض العصبية. فإن نفس المريض تستخدمها فى اجتذاب الانتباه واستدرار العطف والحب ، أو فى تفادى الأمور التى لا تروق للمرء ، أو فى الانتقام للنفس من الغير ، أو فى أخذ النفس بالشدة عقابا لها وتكفيرا عما يخال أنه ارتكب من ذنوب.

اختلال عصبى جسمانى .. ونفسانى:

وينقسم الاختلال العصبى إلى نوعين : أولهما الاختلال الذى يصيب الأعصاب فعلا ، كالنورستانيا ، والتهيج العصبى ، والهيوكندريا أو الوسواس.

أما النوع الثانى ، فهو الاختلال العصبى النفسانى ، كالهستيريا والخبل.

وفى القسم الأول ، تكون الأعراض فى أغلب الأحوال بدنية تظهر على أعضاء الجسد . أما فى الثانى فتبدو الأعراض كحلقات أخيرة فى سلسلة من العمليات والحالات العقلية . وكثيرا ما يجتمع النوعان معا.

والمغالاة فى القلق والتشكك إلى درجة التهوس ، ظاهرة غالبة فى هذه الأحوال . والمعتقد أن أولى حالات القلق تصاحب الإنسان عند مولده . والقلق العادى هو رد فعل الشخصية إزاء الخطر ، وهو إشارة الاستعداد للفرار. أما القلق فى حالات المرض العصبى فينشأ عن محاولة الشخصية الفرار من مطالب الجوع الجنسى التى تساور النفس دون شعور أو إدراك. وتعامل الشخصية الخطر الداخلى — أى المنبعث من النفس ذاتها — فى هذه الحالات كما لو كان خطرا آتيا من خارج كيان المرء.

لذلك نخاف من رغباتنا وشهواتنا المكبوتة. وقد يحدث أن توارى الجوع الجنسى ويتخفى ، برغم عدم إشباعه — أو إشباعه بغير الطرق الطبيعية السليمة — وينشأ التخفى فى هذه الحالة عن عوامل نفسية ، هى ما نسميه بالكبت والمقاومة أو الصراع النفسانى . أو عن عوامل بدنية عضوية ليس هذا مجال شرحها.

حب الذات وحب الجنس المشابه:

من هذا نخلص إلى أن الجوع الجنسى قد يكون مرتبطا بالغرائز الذاتية التى تكوّن الشخصية ، ارتباطا جزئيا أو كليا . فإذا كان الارتباط جزئيا فلا بأس ، أما إذا كان الارتباط كليا ، فالمرء يصاب بحب شخصه. وهو ما يسمونه « النارسيسيزم » وهذا الداء يختلف عن الأنانية ، إذ أن حب الذات فى الأنانية يتجه إلى حب إيثارها بكل ما فيه صالحها. أما فى حالة « النارسيسيزم » فإن الإيثار يمتد ليشمل اشتهاء المرء لجسمه أيضا. ومن مراحل التطور فى الطفولة مرحلة شبيهة بهذه ، تتوسط بين مرحلة الاستمتاع بإثارة المناطق الحساسة كالفم وأعضاء التناسل وبين مرحلة الحب المادى أو على الأصح الحب الذى يتجه إلى الجنس الآخر

ويتميز مرض « النارسيسيزم » – أو حب الشخص لذاته – بأن الحوافز والمتع الجنسية للمرء ، تتجه خلاله إلى شخصه بنفس الطريقة التى تتجه بها هذه الحوافز والمتع عند الشخص البالغ عادة إلى شخص يهواه. فهو يهوى نفسه . وقد تتجمد هذه الحالة من أيام الطفولة ، لتبعث كمرض فى الكبر.

وهذه الحقائق تلقى أضواء على داء حب الجنس المشابه . أى غرام الذكر بالذكر ، والأنثى بالأنثى ، غراما جنسيا . كما أنها تكشف عن غوامض بعض الأمراض العقلية كالعته ، والخبل ، والتهوس ، مما لا مجال لشرحه هنا .

كما يتحدث د. مصطفى فهمى عن الدوافع النفسية للغرائز قائلا :

نظرية الدوافع:

هناك عدة نظريات فى تحليل الدوافع، وهى :

أـ نظرية الغرائز :

ويتبناها (مكدوجل)، وتنطلق من كون الغريزة هى المحرك لسلوك الإنسان، والغريزة عبارة عن استعداد فطرى لا يحتاج إلى تعلم، يدفع الكائن الحى إلى القيام بسلوك خاص فى موقف معين، وقد وضع مكدوجل ١٤ غريزة، أضاف إليها

غرائز أخرى، ومن أهمها غريزة المقاتلة، البحث عن الطعام، التملك، الجنس، الأبوة، الراحة، النوم.

وقد كان مكدوجل يعبر عن هذه الغرائز بالغرائز الفطرية. إلا أن هذه النظرية لقيت بعض النقد، ومن أهم ما وجه إليها من نقد نذكر:

١ - تنافى اتجاه الغرائز الفطرية مع الاتجاه العلمى للبحث، وكونها خارجة عن إطار السيطرة والتحكم، إذ أن الغريزة من الأمور الانفعالية.

٢ -التشكيك فى عدد الغرائز المطروحة ، ويصل العدد، فى رأى وليم جيمس، إلى مئة غريزة.

٣- يري علماء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أن الاختلاف، فى سلوك الإنسان، يعود إلى الاختلاف فى الثقافة بين مجتمع وآخر، فتنتفى بعض الغرائز عند بعض المجتمعات، كغريزة المقاتلة، مثلا، إذ أن بعض المجتمعات، كالهنود الحمر، فى كندا، يتنازلون عن الممتلكات تعبيرا عن الفوز بالمعركة، كان تحدى الإنسان لدافع التملك دليل على الفوز.

إلا أن هذه الانتقادات فى الحقيقة لا ترقى إلى مستوى دحض النظرية بكاملها؛ إذ أن كون الغريزة خارجة عن إطار البحث والتدقيق العلمي، لا ينفى وجودها، فضلا عن أن الاختلاف فى عددها لا ينفى أيضا وجودها؛ إذ قد يكون هناك اختلاف فى بعض الغرائز، ولكن هناك اتفاق على بعضها من دون أشكال، كغريزة الأكل والجنس وحب الاستطلاع والتملك، بل والشعور بها وجدانا.

ب ـ نظرية مدرسة التحليل النفسى :

وزعيم هذه المدرسة هو (فرويد)، وقد عرف فرويد الغريزة بأنها تعبير عن قوة نفسية راسخة تصدر من صميم الكائن العضوي، وتنبع أصلا من حاجات البدن، بما يجرى فى الجسم من حاجات فيزيولوجية؛ إذ أن هذه الحاجات تثير توترا نفسيا، فإما أن تلبى فينخفض التوتر، أو تبقى وتتحول إلى اللاشعور، وتغدو حالة من

الحالات كالكبت والإحباط.

وطرح فرويد نظريتين للغرائز:

١ - نظرية التعارض بين الغرائز الجنسية وغرائز الأنا، فالإشباع الجنسى يعارضه القلق والإثم والمثل الخلقية والجمالية للانا، ومن ثم فإن القوى المعارضة للنزعات الجنسية، وهى القوى التى تعمل على ضبط الأنا ، تسمى(غرائز الأنا). وإذا تفوقت غرائز الأنا على النزعات الجنسية فإنها تقوم بكبت هذه النزعات.

٢ - نظرية التمييز بين غرائز الحياة وغرائز الموت، فالأولى تهدف إلى بقاء الكائن الحى والأخرى على خلافها.

وقد قسم فرويد الجهاز النفسى إلى ثلاثة أقسام هي: الأنا والهو والأنا الأعلى، فالهو يحتوى على الفطرى والموروثات والغرائز بشكلها العام، بما تحمل من رغبات وميول. والأنا يقوم بالتوفيق بين مطالب الهو والواقع، فيشبع الرغبات والميول فى بعض الحالات ويؤجلها إلى حالات أخرى، والأنا الأعلى يمثل الجهاز الذى يكتسبه الطفل خلال حياته فيسمح بإشباع بعضها وتأجيل الأخرى.

إلا أن فرويد وضع جوهر نظريته تحت فرضيتين هما: (الليبيدو)، وهو المراحل الأولى للطفل، و(عقدة أوديب)، وهى المرحلة الثانية. إلا أن هذه النظرية لقيت بعض الانتقادات، ومن أهمها:

١ - انطلاقها من كون (الليبيدو) هو المحرك الأصلى للسلوك، وهى فى ذاتها غير خاضعة للبحث أو التجريب.

٢ - الصراع الذى تعيشه النفس الإنسانية بين الهو والأنا غير خاضع للملاحظة العلمية.

٣- انطلق فرويد، فى نظريته، من دراسة مرضاه، فى مدينة (فيينا)، وجميعهم كانوا من الطبقة المتوسطة، ما يعنى محدودية الإطار الواقعى لانطلاقة النظرية. إلا أن هذه

الانتقادات لا تخلو من ضعف، فعدم إمكانية رؤية الصورة الواضحة لللبيدو أو اللاشعور أو حالة الصراع، لا ينفى حقيقة ما تلاقيه النفس، وجدانا، أو ما يمكن إثباته من خلال العناصر الخارجية الدالة على تلك الحالة، ومع ذلك فإن ترتيبه مراحل تكون اللبيدو، أو عقدة أوديب، خال من الربط المنطقي.

ج- النظرية السلوكية :

وهي، فى حقيقتها، ردود فعل على مدرسة التحليل النفسى التى طرحها فرويد. وصاحب هذه النظرية هو « واطسون » انطلقت المدرسة السلوكية من دراسة المثير والاستجابة وتكون العادة، ويرى واطسن أن السلوك والشعور متناقضان. وفتح (ثورنديك) باب دراسة سلوك الحيوان للتعرف إلى بعض سلوك الإنسان كوجود الحاجز بين الحيوان والطعام ومحاولات الحيوان الوصول إلى الأكل بعدة طرق، ولكن هذه المحاولات تقل فى المحاولات التالية نظرا لتكرر العادة.

وقد تطورت المدرسة السلوكية على يد (واطسن) الذى استفاد من أبحاث (بافلوف) و(بختريف) فى الفعل المنعكس الشرطي، فالخوف والغضب والحب هى نماذج لانفعالات أصلية، ولكل واحد منها مثيره المرتبط به أصلا، ولكن حينما تقترن تلك المثيرات بمثيرات أخرى شرطية فإن المثير الشرطى يمكن أن يحل محل المثير الأصلي.

وقد طور (كلارك هل) النظرية السلوكية بشكل كبير، واعتمد على نظريات (بافلوف) فى الاقتران الشرطي، وعد المنعكس الشرطى الوحدة السلوكية البسيطة.

والنظرية السلوكية متأثرة أساسا بنظرية نيوتن، ما أدى إلى تسميتها بالنظرية الذرية ،وهى قريبة - فى تحليلها السلوك بالفعل ورد الفعل - من الشكل الميكانيكي، فلكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار، ومختلف عنه فى الاتجاه.

وقد انتقدت النظرية السلوكية من منطلق المقارنة بالنظرية الميكانيكية نفسه

(نيوتن)، فهى تنطلق، فى تحليل السلوك، من المثيرات والاستجابات من دون الاهتمام بجانب الإدراك فى تفسير السلوك. وننقل هنا ما نقله د. مصطفى فهمى عن الدكتور نجيب إسكندر فى نقد النظرية السلوكية.

ويتضح، من كل ما سبق، أن الاتجاه التحليلى الجزئى الميكانيكى عند (هل) يظهر بوضوح فى إصراره على التمسك بمبدأ التدعيم باعتباره الأساس الوحيد للتعلم، وهو مبدأ يؤدى إلى البحث عن الدقائق المادية للظاهرة، والى إغفال المجال الكلى الذى تحدث فيه.

وما يؤخذ على هذه النظرية من أنها ميكانيكية فى تصور المثير والاستجابة، أو أنها قريبة من العناصر المادية فى تصور الظاهرة، غير كاف لردها، فالنظرية إنما ترد إذا كانت قاصرة عن ربط المثيرات بالاستجابات، بحيث تعد غير مترابطة فى تحليل العناصر المختلفة من مثير واستجابة وكيان نفسى داخلي، ولذا فإن نقدها من حيث عدم اهتمامها بجانب الإدراك قد يعد من الانتقادات المثيرة.

د ـ نظرية الاستقلال الوظيفى :

صاحب هذه النظرية الباحث « جوردن ألبورت »، وتنطلق من أن الميول والاتجاهات الأولية (الفطرية) تكون العنصر الأساسى للسلوك الأول، وهو يمهد إلى تكون حاجات وميول أخرى تكون السلوك الثاني. وهكذا فالإنسان يتولد عنده السلوك كلما أصبح فى سلوك معين. وما يؤخذ عليها هو عدم ثبات سلوك الإنسان، فهو فى تحرك مستمر ويصعب رصده، بالإضافة إلى أن الملاحظ فى الخارج هو ثبات كثير من مظاهر السلوك عند الناس كصفات الكرم والشجاعة والحلم التى تعد ثابتة، إلا أن بعض التصرفات الخارجية المرتبطة بها قد تتغير، فقد ترى فقيرا فتعطيه كذا جنيها، وتراه فى يوم آخر، فتعطيه أكثر أو أقل، فهذا لا يرتبط بحالة الكرم، وإنما يتعلق بشكل كبير بالحالة النفسية فى تقييم الشخص المقابل.

هـ - نظرية ديناميكية السلوك :

تعتمد هذه النظرية على العلاقة بين السلوك والمجال النفسي، ومحورها هو اللاشعور وما يسببه من حالة توتر تحرك الفرد نحو الهدف، فيضاعف مجهوده أو يبدل الغرض الأصلى أو يشعر بالإحباط ، وتنتج عن ذلك كله حالات الاعتداء أو النكوص أو الكبت أو الإسقاط، أو التفكير الاجتراري، أو التقمص.

فالمجال النفسى للإنسان يتمثل فى شبكة من الاتجاهات والمواقف، ما يجعل حاجات الفرد ومطالبه عبارة عن قوى واضحة بأنماط مختلفة من السلوك.

وخلاصة النظرية، بشكل أدق، هى العلاقة بين القوة الدافعة والغاية التى تتجه إليها هذه القوة، وهو ما يعبر عنه بديناميكية السلوك .

ويبدو أن هذه النظرية، على قوة طرحها، ليست متداولة بشكل كبير، وقد يكون سبب ذلك هو عدم وجود دراسات واسعة وتطبيقية عنها، ما يجعلها محدودة فى الإطار النظرى أكثر منها فى الإطار العملي، وربما يكون هناك سبب آخر، هو عدم ظهور مستوى عال من المتحمسين لها لترويجها أكثر.

الفصل العاشر

الملكات العقلية

الملاحظة:

استدعى معلم شابين من تلاميذه؛ فلما مثلا بين يديه سألهما عما شاهدا فى الطريق إلى المدرسة، فأجاب أحدهما بأنه غادر المنزل وسار حتى وصل إلى المدرسة، ولم يتذكر شيئا فى أثناء السير أو سمعه.

أما الآخر فقد أطرق قليلا، ثم انبرى فقص ما أثر فى حواسه من مظاهر الكون وزخرف الصناعة، وأرسل شعاعا من فكره إلى دقائقها، فأحاط بها ورسمها رسما يحرك العواطف ويستحث الخيال؛ ثم انطلق جواد لسانه فى ميدان القول، فوصف الجو صباحا حينما غادر المنزل؛ وعطف على وصف الشمس وقت شروقها، وما لها من القوة فى إزالة حجب الظلام؛ ثم تكلم عن السحاب وتكوينه وفوائده ووقوفه أمام الشمس وانحساره عنها؛ ووصف نوار الشجر يفتحه مر النسيم، ويترقرق عليه مع الندى، وتتعطر به الأرجاء - وصف كل هذا وصفا جمع طرائف الأدب، ومشاهدة الطبيعة. ثم شخص إلى عالم الحيوان والطير فذكر ما شجاه من أصواتها، وما عرف من سجاياها، وقد أخذ حديثه يتدفق تدفقا يدل حسن تنسيقه وارتباط أجزائه على قوة بليغة من الملاحظة وحسن الذوق ومن ذا الذى لا تفتنه مظاهر الطبيعة؟. قبل بزوغ الشمس يكون السكون شاملا، حتى إذا تنفس الصبح غردت الطيور على أفنان الأشجار فرحة، ثم تتألق الشمس فتخلع عن الجو لباس الحداد

الذى اكتسى به حزنا على فراقها، وتأخذ فى السير والنفوس تشيعها بنظرات المشتاق حتى تغيب.

فمثل هذا المظهر إذا صقلته يد الطبيعة، وألبسته ثياب الجدة، تجده يوجه زمام النفس إلى التطلع إليه، والكف عما سواه، ومتى شبعت منه - وزمن هذا لا يزيد على بضع ثوان - أدركت بغيتها، وصار تأثيره فيها عاديا، اللهم إلا إذا تغيّر شكله أو وصفه، أو تكرر نظر النفس إليه باعتبارات عدة.

لا نطمع أن نذكر السبب الحقيقى لذلك؛ وإنما يهمنا أن نرى ولو على سبيل الحدس والتخمين وجه التأثير. فإن المعانى الجديدة - على ما شرحنا فى باب الشوق - تثير النفس فترحب بها، وتنزلها فى دائرة تليق بها من فراغ العقل، وهناك يحصل بين المكان ونزيله احتكاك كاحتكاك الكهرباء، فيتولد منها شرارة نعبر عنها بوجدان السرور والجذل. فإذا تحققنا أن نتيجة هذا التفاعل فقدان مادة التيارات الكهربائي، فلا نزاع فى أن حركة الوجدان ينشأ عنها استهلاك مادة الخلية المنوطة بملاحظته، فتتصرف عنه انصرافا قهريا.

والملاحظة حينئذ لا تقف، بل تنتقل من سبيل إلى سبيل، ما دامت النفس فى طور اليقظة.

فإذا شئنا حبس الملاحظة على أمر بعينه، فلا بد من صبغة بصبغة متجددة، ليبعث النفس على إيقاظ ما غزرت مادته من الخلايا. والنفس الكبيرة لا تعتمد على شيء مما يثير الملاحظة، بل تتصرف بنفسها ناظرة إلى الشيء الثابت من وجوه متنوعة لتكون المعانى جديدة فياضة. ولا نحتاج إلى شيء وراء هذا لتقويم الملاحظة التى عليها عماد القوى العقلية.

ضع قلمك أمامك، وتفرغ للنظر إليه، بحيث لا تدع البصر يتحول عنه، فإنه لا محالة يكل بعد زمن وجيز. لكنك إذا شخصت إليه من وجوه كثيرة، وعرضت أوصافه، ففصحت عن شكله ولونه واعتداله، وطيب مادته، وحسن بريه،

وسلاسة كتابه، ووازنت بينه وبين نظائره. ثم إذا توسعت وخرجت من حظيرة الملاحظة، وسمحت للانتباه أن يتصور الأقطار التى تزرعه، والصناع الذين يهيئونه للاستعمال، و التجار الذين يجلبونه إلى ديارنا، ثم اخترق ذهنك حجاب الماضى فكشفت عن تاريخه، وما ترنم الأدباء بشأنه فى المديح وما صاغوه من زخرف القول، فى المفاضلة بينه وبين السيف إلى آخر ما تستطيع سرده على سبيل الاستطراد - فإنك تجد زمن الملاحظة يطول بقدر ما يسمح به حسن تصرفك، لأن كل حركة ذهنية من هذا القبيل تنبه خلية خاصة، ولا تكاد تكل الواحدة حتى تتنبه الأخرى.

لا تستطيع النفس أن تصوب سهام الملاحظة إلا إلى شيء واحد فى زمن واحد، وقد يكون الانتباه إليه قهريا إذا قوى سببه كصوت الموسيقي، ورؤية البرق الخاطف، وسماع الرعد القاصف. وقد يحدث فيها امتعاضا وألما، كمن أصيب بجرح وتولى الطبيب تضميده.

غير أن النفس حينئذ هربا من إحساس التوجع تتوسل إلى الانصراف عنه بعامل آخر كالتنهد أو الصراخ أو اضطراب الأيدى والأرجل، لتحول الملاحظة إلى أمر آخر تحدثه؛ كأنها تسعى بطبيعتها لتهدئة الخاطر السقيم، فتقيم شيئا سهلا مقام شيء صعب. ومثل هذا ضحك الحزين " وشر الشدائد ما يضحك "، ولعله من الجسم تخفيف للوعة، كالعرق يفرزه الجسم تقليلا لوطأة الحرارة. وغالبا يبكى الأطفال بأصوات رهيبة، ولم يكن بكاؤهم يأسا من فقدان الشيء، بل تسلية وتخفيفا لمصيبة الحرمان. وإن من يرزح تحت أعباء البؤس تتلهف نفسه لاستذكار ما تمتع به من قبل، أو تنصرف إلى انتظار أسباب الفرج ترجو بها تخفيف وقع الشدة. حتى إذا صلح الأمر وجبر الكسر فهيهات أن يذكر الإنسان سابق آلامه، وتراه يكره من يعكر عليه صفاء سروره بتذكيرها إياها.

وإذا كان العقل لا يتفرغ إلا لشيء واحد، فكيف تأتى للإنسان أن يكون كاتبا ومفكرا فى آن واحد؟ لو فكرت لعلمت أن هذين الأمرين ليسا خاضعين لسلطان

واحد. فأحدهما صادر عن الفكر، والآخر صيرته العادة آليا.

الملاحظة نور تستجلى به النفس حقائق المرئيات وأشباهها من المحسات، فبينما الإنسان يمر بفكره على الأشياء بدون إمعان وروية، ولا يستطيع أن يغوص فى مضامينها، ليتعرف شأنها، وما تحتوى من خير وشر، تجد المصور يرمق الأشياء بعين الخبير، فيرسم ورق الشجر بدرجات تتفاوت فى الخضرة، بحسب نصيبه من الضوء، فأحيانا مشربا بسمرة وأحيانا بصفرة. وتجد الفيلسوف ناظرا إلى السماء، غواصا فى بحار الفكر والتأمل. على أن النفس المدركة تتفاوت مدركاتها للشيء الواحد بتنوع أطوارها كالنشاط والكسل، والجوع والامتلاء، والصحة والسقم، والسرور والحزن، والعلم والجهل، فتجدها لا تستقر على حال واحدة كزئبق مقياس الحرارة. ولا خلاف فى أن حالها فى الصباح غير حالها فى المساء، وهى فى الشتاء غيرها فى الصيف، وهى صغيرة غيرها كبيرة أو معمرة، وهى ساذجة غيرها عالمة مدبرة مجربة. فكم لعب اليأس بفكر لاعب الشطرنج مثلا، فتفيض عليه الملاحظة وحيا ينفخ فيه روحا يقهر بها خصمه فى ميدان المناضلة. وقد تعترضه العقبة الكأداء فيحكم الملاحظة ويخرج منها حليف الفوز ناجحا. وكم التذ الإنسان من زخرف الشيء لأول وهلة، أو استجاد مذاقه فانبرى يحمده، ويحبب النفوس إليه، مع أنه لو راقبه بإمعان، وأفاض عليه شعاعا من نور الفكر لأنجلى عن سم فى دسم.

فالملاحظة نعيم الفكر، وسلوى للمتوجع، ومفزع المحزون، وحسبنا دليلا على علو شأنها ما نرى آثارها الكبار عند ترداد النظر إلى شيء معين.

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

ناهيك بدرجة المراقبة التى يلوذ بها الأتقياء، فيعرضون أعمالهم على محك الانتقاد قبل أن يختموا صحيفة يومهم؛ ويحاسبون أنفسهم على ما فعلوا، فإذا كان خيرا عزموا على الاستكثار منه، وإذا خطرت فيه شائبة الباطل استعاذوا بالله منه.

لا سبيل إلى تقويم الملاحظة إلا بالملاحظة على سلامة الحواس ومعالجتها بالتمرين. إذن تدرك العين الفروق بين الأشكال ما جاء منها منظما، وما حدا عن النظام ، وكذلك بين الألوان وما بينها من الدرجات، وتدرك الأبعاد بموازنتها بأبعاد معلومة لديها من قبل؛ كذلك تدرك الأذن المسموعة سواء أكانت من خرير الماء، أم من عصف الريح، وتغريد الطائر، وغناء الإنسان، وعزف الآلات، ونفخ المزامير.

من اشترط فى العلم أن يكون طبيبا، أو على الأقل عارفا ما يعرض للحواس من الأمراض، مستطيعا تقويم المعوج منها، ما خرج عن محجة الصواب. وكثيرا ما رأينا قصار النظر من التلاميذ جالسين فى مؤخر الحجرة بالمدرسة، بعيدين عن المرئيات التى يقيد المعلم تسجيل على السبورة. فأمثالهم يطيش سهم بصرهم، ويتوسم فيهم المعلم الضعيف بلها هم بريئون منه. وقد تعترى الأعضاء الداخلية أمراض تعوق السمع عن إثبات المعاني، وتؤدى بالطفل إلى أن يفهم فيه ما ليس حقيقيا ، وكم من تلميذ يتبادر إلى معلمه أن سمعه سليم، ولو فحصه لعرف مركز الداء، واستعان بالدواء: واعلم أن بالحلق قناة موصولة بالأنف، إذا سدت لا تؤدى الأذن وظيفتها، ومثلها كالصفارة إذا سد ثقب منها.

تفقّد حجرة بالمدرسة وراقب تلاميذها فلا تكاد تجدها خالية من تلميذ فاتح فاه. يفعل هذا قهرا ليتنفس منه لأن الأنف - وهو عضو التنفس الطبيعى - مسدود ، وقد زودته الفطرة بزغب شعرى لينقى الهواء الداخل إلى الرئة من الجراثيم. فإذا أمره المعلم - ولا مرد لأمره - بإغلاق فمه فقد حاول عبثا، وظلم نفسه.

فإذا تبين لك أن فتح فمه يدل على أن تلك القناة مسدودة، علمت أن سمعها معطل لا يضبط المسموعات الواصلة إليه، ومحتاج إلى علاج جراحي.

الفصل الحادى عشر

نوابغ فى قوة الذاكرة

من الناس من قوته الفكرية فى الحفظ والذكر غاية فى الحدة والمضاء، كأبى العلاء المعري، والأصمعي، وحمّاد الراوية. أما أبو العلاء المعرى فافتتن المؤرخون باستعداد قوتيه، حتى حدثوا عنه أن الأصوات الأعجمية التى لا يدرك معانيها تتطبع فى ذهنه ويستطيع أن يرددها كما سمعها. وقالوا من غريب حذقه فى قوة التعريض أنه حضر مجلس المرتضى فى بغداد فجرى ذكر المتنبى وكان المرتضى يكرهه ويتعصب عليه، وكان المعرى يحبه ويتعصب له، فانتقصه المرتضى وأخذ يتتبع عيوبه، فقال المعرى: لو لم يقل إلا قصيدته التى مطلعها ": لك يا منازل فى القلوب منازل " لكفاه. فغضب المرتضى وأمر بإخراجه وقال المرتضى لمن حضر: أتدرون لماذا اختار الأعمى هذه القصيدة دون غيرها من غرر المتنبي؟ إنما عرض بقوله"

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل

فقدر مع ذلك قوة إدراك المرتضى للمغازى البعيدة، والتلميح الذى لا يأبه له إلا فطاحل الأدب؛ والنوابغ فى الحفظ والذكر.

وأما الأصمعى فكان كثير الحفظ ، قوى الذكر، إماما فى اللغة والغرائب،ويستدل الأدباء على حذقه وبراعته أن اجتمع مع أبى عبيدة عند الفضل ابن الربيع وقد ألف كل منهما كتابا فى الخيل، فلما سئل أبو عبيدة أن يقوم إلى فرس

ابن الربيع ويسمى كل عضو فيه، أبى وقال: لست بيطارا، وإنما أخذت ما كتبت عن العرب. ولما سئل الأصمعى قام وجعل يضع يده على كل عضو ويسميه، وينشد ما قال العرب فيه. فلما فرغ أعطى الفرس.

وأما حمّاد الروايه فقد استدعاه هشام بن عبد الملك وقطع فى سفره إليه اثنتى عشرة ليلة راكبا جملا مهريا، ولما مثل بين يديه قال له: إنما بعثت إليك لبيت من الشعر خطر ببالى لم أدر من قاله وهو:

فدعوا بالصبوح يوما فجاءت قينـــــة فى يمينها إبريق

فقال فى الحال: هو لعدى بن زيد من قصيدة، وانبرى ينشدها من ذاكرته.

من الناس من قوته أضبط للمرئيات دون المسموعات، ولا قوة الحفظ فى ضبط المرئيات يتذكر الأصوات إلا إذا قرنت بكتابة أسمائها أو رسم مسمياتها.

وقد حكى عن أحد البارعين فى فن الرسم أنه زار لندن ليقابل أحد أصحابه فنسى اسمه ولكنه رسم وجهه واستعان بذلك على السؤال عنه.

ومن لم تمنحه الفطرة نبوغا فى حدة هاتين القوتين فحسبه أن يشحذهما بفهم الأمور وترتيبها وتنسيقها وربط أطرافها بعضها ببعض.

فإن الحقائق المفككة الأوصال يكون مثلها فى الذهن كمثل الكتب المبعثرة، يخزنها معها شغفا بالعلم، ولكن سوء ترتيبها يجعل الحصول عليها عند الطلب صعب المنال.

قال أبو نواس فى وصف الخمر:

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء درّ على أرض من الذهب

فاعتبر الأدباء المشبه به هنا أمرا خياليا، وما زالوا كذلك حتى تزوج المأمون -أمير المؤمنون- بوران بنت الحسن بن سهل، وقدم إليها ليلة الزفاف حصير نثرت عليه اللآليء، فتمثل المأمون بهذا البيت وقال: « كأن أبا نواس وهو يصوغ هذا البيت كان حاضرا معنا ».

فهذه الحقيقة البديعة التى صورتها قريحة أبى نواس قبل أن تخلق، لم تكن تأتى إلى ذاكرته لو كان ذهنه مضطربا، وحفظه ضعيفا، وذكره على حال لا تستطيع التوفيق بين الأشباه والنظائر.

ومما يدل على تباين درجات هاتين القوتين أن الناس يسمعون موضوعا واحدا، فينقده كل منهم بحسب ما ركز فى طبعه من الميول إلى الشكل أو اللون أو العلة والمعلول أو السبب أو المسبوب. وقد سمع بشار بن برد أحد الناس يفسر بيتا من شعره فأعجبه تفسيره، وقال لراويه: ارو هذا المعنى فو الله ما عنيته.

والعبارة تصاغ لتؤدى معنى خاصا فإذا هى تحتمل معنيين أو أكثر، والقارئ يحتاج حينئذ إلى مراعاة سياق الكلام ليصرف معناه إلى المقصود منها.

فما أشبه هذه العبارة بجسم بلورى ذى أسطح تنبعث منها ألوان جذابة، يرى بعض الناس منها ما لا يراه الآخر، وكل منهم يعبر عما أبصرته عيناه وخالج نفسه.

يحضر الناس حفلة الغناء، ويظهرون ما لا قبل لهم به من الانتباه، ثم يخرجون فيترنم أحدهم بتلحينه على مثال الأصل، ويتعثر الآخر فى أذيال الخيبة. فالقدرة على إبراز المحفوظات غير القدرة على صيانة هذه المحفوظات، ولا سبيل إلى سبر غور قوة الحفظ إلا بما تظهره قوة الذكر إلا رادى من الأعمال.

وعلى مقدار معاناة الذهن التعب عند حفظ الشيء يكون رسوخه فيه، كالمسمار إذا دق فى الجدار، حتى إذا ثبت فيه كان استذكاره سهلا. وبديهى أن الإنسان إذا استراح تدفقت على ذهنه تيارات الأفكار، هامة أو غير هامة، سديدة أو غير سديدة. أما التذكر الإرادى فهم محك العقل تتقيد به النفس فى دائرة محدودة عند البحث والمناظرة. وإذا جنحت عن الموضوع قام منها رقيب يقود زمامها إليه.

وأحيانا يهمنا استذكار أمر، فننصب له شباك البحث، ونقدح زناد فكرنا، ولكنه يستعصى فنتركه إلى موضوع آخر، وإننا لكذلك وإذا بالغرض الذى كنا ننشده قد رفرف على الذهن.

فالسر فى هذا أن الغرض الذى قصدنا استذكاره قد كان بالموضوع الثانى أكثر ارتباطا وغابت عنا حقيقة هذه الربط.

الخيال:

هو ملكة قوامها الحل والربط، وأدنى درجاته ما يستذكر من المحفوظات مع التصرف بالزيادة أو النقصان، وأسماه ما جرى تركيبه على غير مثال، كالصائغ يتصدى للعناصر فيجمعها ويسبكها فى قوالب أخر ، نرى الطفل لا يريد أن يخضع لغيره، وأقصى أمانيه أن يبعد عن مراقبة الناقدين لكى يجد مجال الخيال واسعا ، غير أن خياله فى هذا الطور طفل مثله، ليس مضبوطا ولا خاضعا لسلطان العقل، ولذلك كلفه بعض المربين مزاولة الحقائق الكونية، وأبعدوه عن قراءة الروايات والخرافات، فإنها لا تزيده إلا انحرافا عن الحق.

سأل معلم تلميذا أن يذكر مثالا للدلالة على أن الحرارة تمد الأجسام فقال التلميذ: « إن النهار صيفا يطول بتأثير الحرارة فيه » فاستعمل القياس ولم يفطن إلى أنه لا ينطبق على الواقع. ولا تكاد تسمع منه جوابا مثل ذلك إذا ضبط خياله، ووقف على حقيقة الأسباب لطول النهار صيفا، وقصره شتاء.

للخيال فى النوم مجال واسع. انظر إلى الطفل وهو نائم تجده يتخيل أنه بين يدى مرضعة، فتشاهده يحرك شفتيه كأنما يرضع ولا ثدى فى فمه. حدث تارتينى وهو أحد مشهورى الموسيقيين فى القرن الثامن عشر: أنه رأى الشيطان فى الحلم خاضعا له، فناوله تارتينى الكمنجة وأمره أن يلحن بها فى نوع من الإيقاع حدده له. فعزف الشيطان بمهارة فائقة تركت فى ذهن الموسيقى وهو نائم أثرا عميقا. ولما استيقظ عادت إليه الذكرى من شدة وقع الصوت فى نفسه، فأمسك الكمنجة وشرع يحاكى تلك النغمة حتى جاءت مطابقة للأصل، وكان كم أمره أن ابتدع قطعة موسيقية سماها «عزف الشيطان». ولولا أن تارتينى عبر عن ذلك الذى هبط عليه فى منامه بأنه شيطان لتوسمناه ملكا، ولقطعنا بأن السر الذى وصل إلى خياله نوع

من الإلهام فى الصناعة التى اشتهر تارتينى بها.

ومن تعلق ذهنه بأمر لا تعكر الوساوس والأخيلة فى شأنه مستيقظا كان أو نائما. حتى لقد رأى بعضهم فيما يرى النائم أنه يقاسى من العذاب أشده، ولما استيقظ تبين له أن رجليه لامستا شيئا حارا. وكثيرا ما يخيل له حلمه المفزع أن كابوسا يضايقه، ثم يعرف سبب ذلك أنه كان نائما على جانبه الأيسر ممتلئ المعدة بالطعام. ومفسرو الأحلام يطلعون الحالم على نوع العمل الذى بات ذهنه مشغولا به. فقد روى أن مملوكا مثل بين يدى سيده الملك مدهوشا. وكاشفه بأنه رأى فى منامه أنه يسفك دم الملك، وأقام له الدليل على أنه خادم أمين، ففزع الملك مما قصه عليه وقال له: « لو لم تكن فكرت وأنت مستيقظ فى شيء من هذا ما رأيته فى الحلم » وأمر به فقتل. تهيأت للنوم يوما وأنا حزين لوفاة صديق لي، فرأيت فى الحلم كأن حاديا يغنى بصوت المحزون، فبكيت ثم استيقظت وعيناى مغرورقتان بالدموع.

الخيال فى اليقظة:

وكما يعرض الخيال للنائم يعرض للمستيقظ ؛ والقارئ متى فرغ من قراءة بعض الحوادث المفزعة. يغوص ذهنه فى بحر من الخيال لتصويرها. وإذا أخذ مجلسه فى مكان هادئ، وتشاغل عن شؤونه، وسمح للخيال بالجولان، فسرعان ما يسرح فى الفضاء، ويبنى القصور فى الهواء، ويسلى نفسه بإدراك الأماني، وعدوه المبين هو الذى يقطع سلسلة هذا الخيال الشهي.

ومن الناس من يصوغ الخيال قضاء لغرضه، ثم ينقلب مزاجه فيحسبه صدقا، فإن أشعب كان يؤلمه أن يجرى الصبيان وراءه مصفقين استهزاء به. رآهم على هذه الحال يوما، وأراد أن يصرفهم عنه ، فالتفت وقال لهم على سبيل الخيال: « ألم تعلموا أن فى جهة ... ثريا يسدى المال إلى كل من دخل منزله » فتركه الصبيان وأسرعوا إلى منزل ذلك المثرى. فلما رآهم ذاهبين إليه وقع فى نفسه صدق هذا الخيال فتعقبهم.

والطبيعيون يعتقدون أن الخيال دليل الباحثين، ولم يعهدوا باحثا وصل إلى

حقيقة مجهولة إلا بعد حدس وتخمين. والناس على بكرة أبيهم يرون البخار الصاعد من القدر الغالية بقوة ترفع غطاءه مهما كان ثقيلا؛ ولكن «وات» وحده بما أوتيه من براعة فى الخيال استنجد بهذه القوة لإدارة الآلات فنجح. ويتخذ الرياضيون والسياسيون طرقا فرضية لحل المشاكل ثم يحسبون نتائجها ويدخلون بها فى طور العمل على سبيل التجربة ولا يزالون يتخيلون الوسائل ويمحصونها من الشوائب، وينصرفون عما تجر عليه من الخطأ، فإذا الحجب تتكشف عن مكنون الحقائق.

الحقيقة ضالة الفلاسفة يحرصون عليها فى مدوناتهم، وينتقون لمدلولاتها العبارات المتينة التى لا تدع للبس مجالا، ويحترسون من تزويق الألفاظ وتنميق الأساليب، فإنهما يبعدان عن فهم المقصود. وهى كذلك أساس المعاملات، فالتاجر لا ينصف المشترى إذا بالغ فيوصف سلعته وجاوز به حدود قيمتها، والطبيب يسيء إلى المريض إذا استعار للدواء اسم دواء يشبهه ، وتضيع الثقة من المؤرخ الذى يمجد من لم ترفعهم أعمالهم. وكم تثور الفتن ويضطرب بين الحلفاء حبل الولاء، إذا راج سوق الخيل فى نصوص المعاهدات، فإنه يخرج مدلولات الألفاظ عن سياج المعاجم اللغوية، وإليها وحدها يرجع الأمر عند ما تستحكم حلقات النزاع.

أما الأدباء فعلى عكس هؤلاء لا يعذب عندهم ماء القول إلا حاجة الأديب إلى الخيال إذا طرق أبواب المجاز والاستعارة فى أمور تحتاج إلى الفراسة وصدق النظر. وكذلك قول المتنبي:

راميات بأسهم ريشها الهدب تصيب القلوب قبل الجلود

فالمطلع على الشطر الأول لا يدرى أإلى الحقيقة سار الشاعر أم إلى المجاز؟. ولا يكاد ينتهى من قراءة الشطر الثانى حتى يعرف أن الغرض بالسهم تلك العيون النجلاء على سبيل التجوز.

فالخيال يصون الصنعة من الابتذال، وينفخ فى القول والعمل روحا فياضة،

ويشحذ الذهن، ويدعو إلى الإمعان وترداد النظر، ولو جف معينه من الكتابة أو الشعر أو التلحين لذهبت مسحة البلاغة، ولتجردت من العوامل الحية فى تحريك الهمم وإثارة الخواطر. كان ابن الرومى وحيد عصره فى الشعر. فقال له بعضهم: « لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ». فقال : «أنشدونى شيئا من شعره» فأنشدوه فى الهلال:

وترى الهلال كزورق من فضة　　　قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال: «واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ذاك يصف ماعون بيته وهو ابن خليفة؛ وأنا أى شيء أصف ».

فما أحوج الخيال البليغ إلى المرئيات يستحضرها الشاعر ويصوغها فى أسلوب جميل يحسب اقتداره ومهارته فى الصناعة، بحيث يجمع الكلمات والعبارات، ويُسبل عليه ثوبا قشيبا من البلاغة تهتز منه النفس فرحا. إليك حمدونة الأندلسية ذهب بها الخيال عند وصف الحصى فى الوادى مذهبا أجادت فيه وبرزت إذ تقول:-

تروع حصا حالية العذارى　　　فتلمس جانب العقد النظيم

ووصف المتنبى صبره وأجاد فى خياله حيث قال:-

رمانى الدهر بالأرزاء حتى　　　فؤادى فى غشاء من نبـــال

فصرت إذا أصابتنى سهام　　　تكسرت النصال على النصال

وأبو العلاء المعرى وهو كفيف البصر، قبس من نور الطبيعة ما جعل ذهنه سيالا فى سبك الخيال بدرجة يعجز عنها المبصرون. وشعره حافل بمثل هذا الخيال الرائع. وقد راقنى تشبيهه البرق فى سرعة تألقه بذى العين القريحة وقد غلبه النوم، يفتحها بدافع المرض ويغلقها حبا فى النعاس، وهكذا يتعاقب الفتح والإغلاق على وجه السرعة. ووصف طلوع الفجر بالشيب، والشفق بالزعفران، وادعى على سبيل الخيال أن الليل يميل إلى النجوم الزاهرة، فلما شاب بطلوع الفجر، خاف

هجر النجوم والهجر شيمة الغواني، فوارى شيبه بخضاب الزعفران - أى الحمرة التى تبدو مع الفجر - وخياله من السلاسة والغرابة يجرى على هذا النسق مع أنه كف بصره وهو فى الرابعة من عمره، وهذه المدة على قصرها زودته بالمشاهدات، فلبث يستمد منها فى شعره طوال حياته.

العقل:

هو ملكة تدبر الحركات الإرادية من أى نوع كانت. وقد فصلنا القول فى أن الغرائز تهيمن على الجسم وتقود الإنسان ليعمل العمل بلا رؤية، وتكون غالبا نتائجه سديدة مفيدة، ولكن الخلقيين لا يعولون على هذا النفع ولا يثيبون الإنسان من أجله لأنه جاء مصادفة من طريق المقدمات المنطقية. وذلك كاندفاع من لا يحسن السباحة إلى البحر لانتشال مشرف على الغرق، وكسعى الأم لتخليص ابنها من مخالب الخطر.

وقد بذل جهده مثبتا بالمشاهدة أن للحيوان الراقى عقلا مستفادا من الخبرة الذاتية وإن يكن أدنى من عقل الإنسان. رأى فى حديقة الحيوان بأمريكا قردين فى قفص واحد: أحدهما مسن والآخر صغير. وكان المسن لا ينفك يؤذى الصغير كلما بصر به، وأينما التقى معه. وبينما كان الحارس يكنس القفص انقض عليه القرد المسن وقضم قفاه، وكاد يذيقه الموت لولا أن خلصه منه القرد الصغير، فقد عضه فى ساقه عضة أنسته صوابه، وأرجعته عن العدوان. إذا التمست سبب هذا تبين لك أن إشفاق القرد الصغير ليس من مجرد رؤية القرد الكبير يفترس الحارس، بل لابد أن يكون فكره قد صاغ من مستودعات الذاكرة قضايا هى أن القرد المُسن اعتدى على شخصه من قبل، واعتدى على الحارس الآن، فهو مؤذ معتد يجب الخلاص منه. فلما حانت الفرصة وشغل القرد المسن عن نفسه هجم عليه القرد الصغير، وانتقم منه انتقاما يدل على أن إبرازه ليس غريزيا، وإنما أراد ذلك ليقفه عند الحد الذى تتطلبه دواعى الاجتماع.

فهذه القضايا التى ارتبط بعضها ببعض قد أثارها إحساسه ووجدانه الشخصى والاجتماعي، وهى كالقضايا الأولية التى نشاهدها فى الطفل. نراه يمسك اللعبة بإحدى يديه، وإذا رأى مع غيره لعبة أخرى يبكي، وإذا أعطى إياها يسر. فنفهم من هذا قضية بسيطة هى أن نفسه تشتاق الكل أكثر من الجزء، وتعلم أن الجزء أقل من الكل قيمة ومقدارا وإن كان لا يتنبه للتعبير عن ذلك. نراه إذا أراد الجلوس وألزمته الوقوف يبكى وينزع إلى الجلوس. فكأنه صاغ قضية مضمونها استحالة اجتماع الضدين: القيام والجلوس فى زمن واحد. نراه ينازع غيره فى المكان الذى يريد الجلوس فيه، لأنه يعلم أن الجسمين لا يحلان فى مكان واحد. نراه يمشى إلى الشيء الذى يريده، لأنه يعلم أن الوصول إليه ممكن. نراه يسأل عما لا يعرف، ومتى شرح له سكت واقتنع، لعلمه أن للأشياء طبائع وحدودا ومميزات. ونراه يسأل عن فاعل الفعل، ولا يقتنع بأنه جاء بلا فاعل وهكذا. ومتى كبر استعان بتلك القضايا البديهية على صوغ القضايا النظرية، وحاول إبداء الحكم فيها. ومتى اتسع نطاق عقله، وازدادت معلوماته، تجده يتأنى ولا يتسرع فى الحكم، بل يعرضه على بساط البحث، ولا يؤلمه أن يوسعه الناس انتقادا، ولا يمتعض إذا جاء حكمهم مخالفا لحكمه، وظهر رأيهم فيه أضبط، وحكمهم أصوب، لأنه حينئذ يهمه الوصول إلى الحق، ولا يبالى أوصل إليه بنفسه أم مشاركة غيره فى تمحيص المسائل، وإزالة غشاوة الباطل عنها.

وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنية ما شاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسات، ويحتفظ بها، ويذكرها عند الحاجة.

فما أوسع الجمجمة على صغرها ! لأن العقل جمع بها شوارد المسائل، حتى يصح أن يقال: إن الإنسان عائش بعقله فى جو روحانى فسيح الأرجاء. وإذا كان فى هذا مثار دهشة المتأمل، فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألوفا من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف.

الوجدان:

إن المحسات التى تصل إلى الذهن إما أن تدعو إلى الفرح والجذل وإما أن تدعو إلى الغم والملل وهذا الأثر هو ما نسميه بالوجدان.

سل ضميرك لماذا يتسرب إليك السرور إذا قابلت صديقا حميما ،؟ وسل آخر لماذا يمتعض من الغم وتظهر على محياه ملامح الكآبة؟ ولو التمست سببا لذلك لوجدت أن الارتياح فى الأمر الأول والألم فى الأمر الثانى كفيلان بهذه النتائج.

نعم للعقل شأن كبير فى ترجيح وجدان على آخر، لأننا نرى الطفل إذا مرض ونصحه الطبيب أن يتعاطى الدواء يأنف أن يلبى الطلب، لأن العلاج له طعم كثيب لا تسيغه نفسه وليس لعقله سلطان عليها. ولكن الرجل الذى يقدر الأمور بعواقبها، لا يؤثر فيه طعم الدواء رغم مرارته، فيُقبل على تنفيذه إرادة الطبيب عن رغبة فيها، لأنه يتقى به وطأة المرض ويدفع به غائلة العلة.

وقد يسود المزاج النفسى حكم العقل، فتجد الإنسان يحزن على أمر مما اتفقت العقول على أنه داعى الفرح. قال المعرى:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ولأبى الطيب المتنبي:

تصفو الحياة لجاهل أو لغافل   عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه   ويسوقها طلب المحال فتطمع

وتجد المتفائل يفرح مما يحزن منه الناس غالبا ، وتنطبع طبائع البشر على صفحة وجهه، وتصيبه الحوادث الجسام فلا تلتوى قناته، ويسالمها ليستخلص منها لنفسه نصائح وحكما وعبرا. ولا يعبأ بتقلبات الأيام، لأنه يعتقد أن الدنيا مسرح تغدو عليه الناس وتروح، ولكل امرئ منهم شأن يطلبه، حتى إذا أرخى الليل سدوله

نامت العيون، واستراحت النفوس. وإذا انتهى العمر استعاض عن هذه الحياة حياة أبقى وأهنأ.

ولا تجد مظهرا لترداد الفرح والحزن متعاقبين كطلعة المقام، علاقة الوجدان بالحركات الجسمية يخسر الصفقة فيكتئب من ألم الحزن، ويربح بعد ذلك فيبش من بسطة الفرح، ويستطيع الناظر أن يعرف هاتين الحالين بمجرد الاطلاع على وجهه. ويذلك نطق لسان الشاعر فقال:

نظر العدو بها أسرّ يبوح

متى تك فى صديق أو عدو	تخبرك الوجوه عن القلوب
والعين تعرف من عينى محدثها	إن كان من حزبها أم من أعاديها
الود لا يخفى وإن أخفيته	والبغض تبديه لك العينان
لا تسأل المرء عن خلائقه	فى وجهه شاهد من الخبر

وللبارودي:

رب خل تراه طلق المحيا	وهو جهم الضمير بالأحقاد
فتأمل مواقع الحظ تعلم	ما طوته صحائف الأكباد
إن فى العين وهو عضو صغير	لدليلا على خبايا الفؤاد

وأحيانا يحصل البكاء من فرط السرور كما يقول الشاعر:

يا عين قد صار البكا لك عادة	تبكين من فرح ومن أحزان

ودبيب الأقدام يرشد كذلك إلى تعرف أحوال النفس. فخطا اللص والجبان

والشجاع والمجرم تخبر عن الحقيقة، حتى لقد عرف لاظوغلي[1] كيف يصدر حكما عادلا فى حادثة خفى فيها المجرم: أمر المشتبه فيهم فأحضروا المشتبه فيهم، ودعاهم جميعا إلى دخول مجلسه والخروج منه عدة مرات وتفرس فى أمرهم، ثم استدعى واحدا منهم وحصر فيه التهمة وما أخطأ لأنه رآه آخر الداخلين إذا دخلوا، وأول الخارجين عندما يخرجون.

كذلك تفصح نبرات الصوت عن كثير من الأغراض كالحماسة والفخر والخضوع والاستعطاف والخوف. وللأمهات الذكيات معرفة بأحوال الطفل يستطلعنها من صوته عند بكائه، فإنه يعرب أحيانا عن امتعاض من ألم أصابه، وأحيانا يرشد إلى أنه جوعان أو عطشان. ولقد أجاد المتنبى إذ يقول:

إذا اشتبهت دموع فى خدود تبين من بكى ممن تباكى

هذه الأعراض البدنية النفسية متلازمة غالبا. وقد تتخلف عند كبار المفكرين الذين يضبطون حركاتهم، ويخضعونها للإرادة. فتراهم يضحكون فى معرض البكاء متغافلين عن دعوة الوجدان، وكذلك تتخلف عند البله الذين يجهلون حقائق الأمور .

روى التاريخ أن أبا مسلم الخراساني - وهو الرجل الفذ الذى أمات الدولة الأموية وأحيا الدولة العباسية - كان لا يلعب بقلبه السرور، ولا يستفزه الغضب، يأتيه نبأ الفتح العظيم فلا يظهر على محياه أثر السرور، وتنزل به الفوادح فلا يرى كئيبا. كذلك كارليل وصف بيرنز الشاعر بأن المصائب كانت تصب عليه مدرارا. فينثرها عنه كما ينثر الجواد الماء من شعره. ولا أنكر عليك أن التصنع من هذا القبيل مخالف للطبيعة البشرية، ومهما خضع الإنسان لتصرفات الإرادة فإن الحقيقة التى

(١) هو ممن خدموا محمد على باشا والى مصر وافتدوه بالأرواح، وهو الذى دبر للقضاء على المماليك فى ساعة واحدة "مذبحة القلعة"

اختفت فى الصدور توشك أن تظهر دلائلها وإلى هذا يشير الأثر: « من أسر سريره ألبسه الله رداءها »، حتى إن المجرمين يقترفون الآثام بعيدين عن أعين الرقباء، وأنفسهم وحدها هى التى تفضح ما كتموه

ويعيد عن الكاتب البليغ، والشاعر المطبوع، والمصور الدقيق، أن يصيبوا كبد الحقيقة فى التأثير النفسي، ما لم يدرسوا العواطف والحركات البدنية الملازمة لها، والمؤثرات التى من شأنها تحريك الهمم الفاترة، والعزائم الخامدة.

إذا عرفت هذا سهل عليك معرفة التلازم بين الحركات الفكرية والجسمية، وقد صور هذا التلازم بأمور: فإما أنه سلسلة من الحركات الفكرية التى تضم حركات الإدراك والوجدان والإرادة والحكم والإنقاذ، ويقابلها سلسلة أخرى حسية تنجم من تأثير المنظورات فى الحدقة والشبكية ثم فى أعصاب البصر والخلايا المخية فالغلاف الأسمر الحساس، ثم يتدلى إلى أعصاب الحركة فالعضلات فالأعضاء المنفذة؛ وإما أن سلسلة من الأمور الحسية يتلوها من الجانبين نظام روحانى، كأن الحس بحر ذو شاطئين من القوى الروحانية؛ وإما أن العاملين: الحسى والروحانى يعملان معا فى آن واحد ولا فاصل بينهما، غير أن التأثير ذو وجهين حسى ويؤثر فى الجسم، وروحانى ويؤثر فى العقل

مذهب هربرت فى القوى الذهنية:

سبق أن أشرنا أن الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والفكر كلها ملكات. وأذكر هنا- تكميلا للفائدة- ما ذهب إليه هربرت؛ فإنه اعتقد أنها إذا كانت ملكات أمكن كلا منها أن يقوم بنفسه، ولكننا حين نعالج الحفظ مثلا نسعى لتقويم الملاحظة والإحساس والخيال والفكر، وحين نريد تقويم الخيال نتطلع إلى تقويم القوى الأخرى، لذلك اختار أن يسميها صفات ليستفاد منها معنى المشاركة. ووراء ذلك أعتقد أن المخ يحتوى على قوتين فحسب: قوة التأثر بالمحسات، وقوة دمج المدركات.

فقوة التأثر بالمحسات تتولد منها المعانى والأفكار على نظام طبيعي. فإذا ائتلف جديدها وقديمها ارتبطا معا ورسخا فى الذهن، وإذا تنافر عارض أحدهما الآخر. وأفضى ذلك إلى بقاء الأنسب.

وقوة دمج المدركات مثلها كمثل قوة هضم الأغذية، فكما أن الطعام بهذه القوة يستحيل إلى دم، كذلك المعانى بتلك القوة تتآخى وتتآزر، ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معا فى مادة معنوية، يسيغها الذهن ويمتصها المخ كما تمتص الإسفنجة الماء، وتتوقف الحياة العقلية، وبها تتفاوت مقادير الأشخاص. والذهن حينئذ بمعونة الحواس يدرك العالم الخارجي، ويستعين بسابق خبرته على تمحيص الأمور. إن منظر المدينة من بعيد يراه الشاعر والفلاح والمصور، ولكن مدركاتهم عنه تتفاوت بحسب ما ركز فى ذهنهم. والشمس فى طور الكسوف لا تترك فى ذهن الطفل ما تتركه فى ذهن العالم، الذى يصوب إليها نظره ويتريث حتى يستذكر ما قرأه عنها، فيعرف أن القمر حال بينها وبين الأرض فى أثناء دورانه فحجب ظله ضوءها عنا، وهى فى ذاتها لم تتغير، وهى حركات الكواكب خاضعة لقوانين يعرفها الفلكيون ويعينون منازلها بالحساب الدقيق، ويبنى المنجمون عليها أحكام السعود والنحوس. نعم لا يقف ذهنه عند هذا الحد فقط، بل يتجاوزه، فيذكر عقيدة القدماء بأنها كانت معبودا، وأنها لفرط سموها، وعلو قدرها، كانت الشياطين تحاول أن تغتصب نورها فتتوارى عنهم، كما كانت تتوارى إذا انفرط فيما بينهم عقد المودة والولاء معلنة عليهم غضبها بالكسوف. حدث التاريخ أن الميديين والليديين اختصما، ودبت بينهما عقارب الخلاف، فامتشقا الحسام وما كادت لظى الحرب تستمر بينهما حتى أظلم الجو نهارا، ولبست الشمس ثوب الكسوف حدادا على ما فعلاه فاعتقدا أن إلهها غضبان من هذه الفتنة، فأغمدا السيوف، ونشرا لواء السلم.

هذه الأفكار المتناسقة التى جادت بها قريحة المفكر عند ما أبصر ناظره الشمس فى طور الكسوف، وحائلى ذلك من أحداث جعله يفكر جيدا من أهمية الشمس،وماذا تفعل فى نفوس البشر.

الفصل الثانى عشر

الميول ومراقبتها

الميول مظاهر الشوق الطبيعى تتجلى فى الطفل إذا ترنح فى اللعب، وأطلق العنان لحركاته الإرادية. وقد أنصف روسو إذ كان يقف من وراء حجاب ويراقب الأطفال من كثب فى أوقات لهوهم، فيرى حركات غريبة يفعلونها، ويفتنون فيها، وترتاح نفوسهم إليها ولو أخذ منهم الجهاد مأخذه. تفقد ميولهم نحو الراحة واحتساء المشروبات، وتفقدها فى الآراء والعقائد تجد لكل منهم شأنا خاصا يهواه ويتعصب له، ويقيم الدليل على رجحانه، نرى حولنا أناسا فى طبعهم حذق لصناعة يغفل عنها المعلمون. ويحولونهم على الرغم من إرادتهم إلى غيرها فينهزمون. وقد تلجئ الضرورة شخصا إلى الكسب من مرتزق لا مجال فيه لمواهبه فيعمله كالمسخر، ويعيش به كئيبا، ولا يظهر عنده إقدام على إتقانه، فيتبادر إلى ذهن المشرفين عليه أنه ضعيف الذهن كليل القوة. وكم تمر بأمثاله الأيام والليالى فى معترك الحياة، فإذا هذا الضعيف شاعر أديب، أو كاتب قدير، أو مؤلف بارع، أو مصور ماهر، أو عالم بالغ، أو خطيب قدير، وقد ورد فى الأثر: « **اعملوا فكل مُيسرٌ لِمَا خُلق له**» (حديث نبوي شريف).

عرفت بين الطلبة زمن الدراسة الأولى من كان ينظم القصيدة التى تموج ألفاظها بالمعانى فى بيت واحد، ولو كلف حل مسألة رياضية لفترت همته، فكان يخيل إلى المعلم أنه عاجز الفكر، والأيام وحدها أسفرت له عن شهرة رائعة فى عالم الأدب.

ومنهم من كان ذهنه يخترق حجب الأحاجى الرياضية، وكلما صعبت مراميها ووسائل الوصول إلى حلها، زادها إمعانا وسعيا لكشف غوامضها، وكانت مع ذلك قريحته تخمد دون كتابة النثر وقرض الشعر، فيصفه المعلم بأنه ضعيف الذهن، مع أنه ممتاز فى تخصصه.

صحبت من الأمين رجلا وحقق لى الاختيار أنه حاد الذهن قوى العقل، إذا نطق استهوى عقول سامعيه بما يبتدعه من المعانى وما يزخرف من العبارات. هذا الرجل قد شغلته المحن، وضايقته أسباب المعيشة، ولو صادفته عناية المربين لأنجبت أديبا قديرا.

وخبرت آخر حرمته يد الإهمال ثمرة التعليم الصحيح، وكان لفرط ذكائه إذا عرضت أمور تستدعى دقة الحساب زاولها بفكره وكان جوابه صحيحا صائبا، وما يدرينا أن يكون هذا الشخص رياضيا منقطع النظير، لو وفق إلى مرشد بصير ومن يعتنى به.

هكذا اقتضت إرادة الله تعالى أن يوزع النبوغ بين الناس لتتأكد الروابط الودية بينهم، وهذا سر من أسرار الحياة. والنبوغ كالنار الخامدة إن لم تجد من يشعلها فلا فائدة منها وستظل هامدة إلى أن تصبح رمادا تذروه الرياح.

ليس من ينكر فضل الحريرى صاحب المقامات المشهورة، فإن صيته ذاع حتى دعى إلى رياسة ديوان الإنشاء فى بغداد. فلما حضر إليه كلف أن يكتب فى موضوع محدود فلم يجر لسانه ولا قلمه فى قصيرة أو طويلة. ذلك لأن ذهنه مطبوع على نوع روائى معين لا يشق له فيه غبار، فليس بعجيب أن يفشل فى كتابة ما لم يمرن فيه نفسه من قبل، وليس لديه نبوغ فيه. وكذلك الأديب المبرد وهو إمام فى حل مشكلات اللغة العربية، وله قدرة منقطعة النظير على فهم القرآن والأحاديث النبوية، كان يخطر له الخاطر فتعييه الكتابة فيه. وقد اعترف أن عرضت له حاجة إلى بعض إخوانه وأراد أن يكتب إليه فأحجم. ذلك أنه رتب المعنى فى نفسه، ثم حاول صوغه بألفاظ تليق به فلم يستطع. فما أشبهه بحجر المسن يشحذ ولا يقطع!

هذا وقارئ التاريخ يستطيع أن يستشهد بكثير من أمثال هؤلاء الذين منحتهم الفطرة مواهب بديعة فى ريعان الشباب، فحفظتها لهم وديعة، وسترتها عن العبث بها، حتى سنحت الفرص فزكت وظهرت بشائرها.

روى أن عبد الله بن الزبير وهو صبى كان يلعب مع إخوانه، فمر بهم رجل ففزعوا منه، أما عبد الله فتقهقر واستنهض عزيمتهم بقوله: يا صبيان اجعلونى أميركم وشدوا بنا عليه ففعلوا. كذلك مر به عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الصبيان ففروا منه، أما هو فوقف غير هياب ولا وجل، فسأله عمر عن عدم فراره معهم، فأجاب: " إنى لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقا فأوسع لك ". هذه الشجاعة بدت من عبد الله وهو صغير، فنمت فيه وهو كبير. وكان من أمره أن استقل بحكم المدينة، وقامت بينه وبين الحجاج حروب دموية انتهت بقتله. وروى عن سير هرسل أن أباه علمه الموسيقى فى إبان صباه فعاش بها، ولكن ميول الشباب نهضت به فصار فلكيا كشف " أورانوس " من بين الكواكب السيارة، واستدل على وجود كلف الشمس.

كذلك حدثنا التاريخ عن لينوس أن أباه زج به إلى المدرسة ليتعلم اللاتينية، ثم إلى مصنع ليكون إسكافيا، فلم يكن إلا كعامة الناس، ولحسن الحظ لقى من تفرس فى طبعه ميلا لعلمى النبات والأعضاء فسدده إليهما، فبرقت فيه بروق النبوغ، وأصبح فخرا لأمته وللعالم. ولنا من سيرة نابليون بونابرت شاهد وعبرة، فإنه برع فى الرياضيات فى غضون حياته الدراسية، ولضعفه فى الأدب وفى اللاتينية التى كانت شعار العلم فى ذلك العصر، وسمه المعلمون بالضعف وحكموا على عقله بالجمود. فكم بعدت أحكامهم عن جادة الصواب. وكم شغلتهم شؤونهم عن مراقبة مميزاته الكامنة فيه. وكم نطقت فعاله التى كان يزاولها وقت فراغه بما ركز فى فطرته من الميول.

قال المؤرخون: إن عاصفة باردة ثارت فى الجو جمدت ماء المطر فنزل ثلجا غطى

وجه البسيطة وسد المنافذ، فاستعان وهو صبى برفقائه على أن يحفر الخنادق ويقيم الحصون، ثم قسمهم طائفتين على تخاصمهم، وأقام نفسه قائدا لحركة الهجوم، واستمر النضال والجلاد خمسة عشر يوما حتى ذاب الثلج، فاندكت الحصون وصارت قاعا صفصفا، فرجع هو ورفقاؤه إلى المدرسة، طاوين فى صدرهم تلك النزعة الحربية حتى جاء أوانها، فنضجت ثمرها، وفتحت لها الأيام صدرا رحيبا.

واعلم أن الطفل وقت فراغه تستولى عليه ميوله وتقود زمام حركاته، إلى تنفيذ رغباته، حتى إنه ليذهب إلى الشارع، ويشارك أبناء السبيل فى شؤون اللعب، مخالفا نصائح أبويه، وربما لبّى أمرهما قسرا، ثم يشاغلهما ويعود إلى نزعته كالخيزران. ونرى التلميذ يدخل بمحض إرادة أبيه قسم العلوم من المدرسة الثانوية فيخفق، لأن أباه تصرف فى هواه جهلا منه وانصرافا عن المصلحة، ثم يرجع التلميذ فيتخير لنفسه قسم الآداب فينجح. هذه الميول وكل امرئ يضرب فيها بسهم مثلها كالمعطف يتعهده الصانع بترتيب وتنسيق يلائم الجسم، وإذا لبسه شخص آخر لا يوافقه.

وقد نجح مهرة المعلمين فى اتخاذ المشوقات سبيلا يستحثون بها الميول الجامحة، فيحببون القراءة إلى الطفل بما يعرضون عليه من الكتب ذات الصور المزخرفة الجذابة، فيهيم حبا بالقراءة. ويحببون إليه قراءة سير الرحالين، وأوصاف ما جمعوه من علم نافع، وأدب ناضج، وثروة طائلة، ومستكشفات رائعة. فكم قرأ ليفنجستون أسفار الأسفار فى إبان صباه، وهو عامل فى مصنع نسيج، ولفرط حبه لها ملأ بقراءتها أوقات الفراغ، وكثيرا من أوقات العمل، حتى أصبح رحالة ذائع الصيت.

الفصل الثالث عشر

العوامل المؤثرة فى الأخلاق

الوراثة:

لا ينكر أحد أن الوراثة عامل كبير لحفظ النوع، غير أن من لم يعتد بها اعتبر أنها ليست خاضعة لقانون ثابت. فقد يرث الابن من أبيه شبه عضو من أعضائه الظاهرة كسحنة الوجه أو أجزائه، وقد يرث شبه عضو من أعضائه الباطنية كجهاز الهضم أو التنفس أو العضلات أو المجموع العصبي. والمشايعون للوراثة يستشهدون من التاريخ لوراثة الحرف كالمصارعة والغناء، ولوراثة الصفات الحميدة كالشجاعة والأنفة وقوة الإرادة، وبينوا بالإحصاء أن الوراثة تكون فى الجنون وطول العمر وحب الانتحار والانقباض الغالب على النفس.

وفى عالم الحيوان تجد حدة حاسة الشم وراثية عند الكلاب، حتى إن بعض أنواعها يرث من أصله قوة لقنص معين، وإن هنود شمالى أمريكا يقتفون أثر أعدائهم بمجرد الشم، ويورثون أبناءهم هذه الخاصة. فإذا صحت مشاهداتهم، وتمسكنا بعدم الوراثة فى الأمور الكسبية فإننا نعد هذه المميزات من الغرائز، وما يورث فيها إنما هو الاستعداد لأداء تلك الخاصة على شريطة أمري: سلامة الأعضاء الكفيلة بأداء هذه المميزات، والتمرين المبنى على المحاكاة، أما إذا ضعفت الصحة، أو كانت الأعضاء بمعزل عن التمرين الصحيح، قد انعدمت تلك الموهبة.

وصفوة القول أن الحى تؤثر فيه المؤثرات الخارجية، فإذا تكرر تأثيرها فيه وفى نسله تكرارا لم تشبه عوارض، فإن الوراثة تجرى فى النوع كما تجرى العادة فى الفرد، وينتقل منها فى الفرع شيء وراثى ولو قليلا. هذا الرأى يقربنا كثيرا من مذهب أرسطو أن للإنسان روحين: حيوانية وتخضع لقوانين الوراثة، وملكية ويهيئها الاستعداد للاستفادة من التمرين.

وإذا كان تطرق عامل الشر إلى الطفل بحكم الوراثة قهريا، وورث من أبويه أعضاء مريضة، فهل يستطيع المعلم أن يقوم اعوجاجه؟ وإذا سيق رغم إرادته إلى الإجرام أفيترك وشأنه أم يجب بذل الوسع فى إصلاح نقصه بالطرق الصناعية التى جنى الفلاسفة ثمارها؟ وقد قلت الجرائم فى البلاد التى شيدت مدارس الأحداث يشغلونهم بتعلم الحرف والصناعات حتى تستقيم أخلاقهم ويستفيد المجتمع والوطن منهم

البيئة:

الوطن الأول للطفل هو بطن أمه، وحينئذ لا تكون له حياة مستقلة بل تابعة للجسم الذى استقر فيه. فإذا عنيت الأم بصحتها نما واستكمل خلقه، وخرج إلى منفسح الوجود كامل الاستعداد؛ وإلا فقد أساءت إلى نفسها وإليه وربما أجهضت. ومن ضروب الإهمال فى مراعاة صحته حينئذ حملها العبء الثقيل، أو تعاطيها للغذاء الغليظ، أو حشوها المعدة فتضغط جسمه وتشوه أعضاءه. وكذلك ذوات الأمراض العصبية وذوات المزاج الحاد شواذ الخلقة غالبا.

حكى أن صاعقة سقطت على قرية فشاهدتها حامل عصبية. فسقطت مغشيا عليها، وانقبضت أحشاؤها فأصاب الضغط دماغ الجنين فأفسد مركز عقله. والحكيم توماس هوب نسب ما فيه من خلق الجبن إلى ما لقيته أمه من الأهوال وهو جنين فى بطنها. فإن العبارة الإسبانية " أرمادا " كانت حينئذ تطوف حول سواحل انجلترا وتهددها.

ويعد ولادته يكون وديعة بين يدى مربيته، تتصرف فيه بما أوتيت من رحمة وشفقة، أو قسوة وجبروت. تهمله من الرعاية فيتساقط الذباب على عينيه ويؤذيهما؛ ويهبط على شفتيه فيسقيه سما زعافا؛ وأكثر الأمهات يجهلن ما يلاءم نموه؛ وما أشد إيذاء الصديق الجاهل! يسيء من حيث يريد الإحسان. تراهن يلاطفنه ربتا على ظهره، يعبثن بشعر رأسه فى موضع واحد، لإزالة ما عسى أن يكون به من الهوام، فيناله الأذى وهن لا يشعرن. وقد يقيدن استقلاله بالتقميط، أو يمنعنه من مشاهد الطبيعة الرائعة، أو يقللنْ عرض الأشياء السارة عليه فيقضين عليه قضاء لا شفاء له

البيئة الطبيعية:

للإقليم والمناخ تأثير ظاهر فى الأجسام والأخلاق، فساكنو الأودية ليسوا كسكان الجبال فى صفاء الخلقة، ورصانة العقل، ومتانة الجسم. وسكان الأقاليم المعتدلة ألطف خلقا، وأبهى جمالا ، وأوفر حصافة، وأكثر حبا للصناعة، وأشد تلهفا على العلوم، وهم فى الحقيقة أهل الحضارة والإمارة والذوق الحسن والاختراع المفيد. ذللوا العالم الأرضى والمائى والهوائي، ولهم كل يوم فتوح علمية نافعة، وبدائع فنية جديدة. وسكان السواحل أذكياء لتمتعهم بمناظر البحار، ولاعتمادهم على لحوم البحر غالبا وفيها الفسفور الذى يساعد على الذكاء. وهم فوق ذلك أهل جد يجيدون السباحة، ويتجشمون الأسفار البحرية، ويتنسمون رياحها المنعشة.

والعرب مطبوعون على الشعر لاستقلال أفكارهم، وقناعتهم بشظف العيش. وغزارة ملكة الخيال فيهم، وامتداد أعينهم فى ساحة مترامية الأطراف، تحت سماء صافية زرقاء ساطعة الكواكب. كل هذا أوحى إليهم من بدائع الخيال ما أوحي.

والبدو مشهورون بالكرم والاستقلال وبالشجاعة؛ مشهورون بالكرم لأن فقر بلادهم حبب إليهم المهاجرة فساروا فى البوادى المجردة من الأسواق، وربما نفذ من أحدهم الزاد والماء فيجد من الصدور الرحبة ما يقر عينه، ويخفف عنه عناء

السفر؛ مشهورون بالاستقلال لما تمرنوا عليه من القناعة والخشونة، ينصبون خيامهم حيث ينبت الكلأ يتركون فيه دوابهم، وإذا زحمهم زاحم هجروه واستعاضوا عنه أرضا أخرى بدون عناء؛ مشهورون بالشجاعة لأن كل فرد يمرن يديه على استعمال السلاح دفاعا عن نفسه من مهاجمة وحش أو عدوان معتدٍ.

أما المناطق غير المعتدلة فحيوانها شرس ضار فتاك. تجد فى أدغال إفريقية الفيل النفور والأسد الضارى والتمساح المفترس والحية السامة والذباب المؤذي، وتجد أمثال هذه الحيوانات فى آسيا الصغرى هادئة، حتى إن بعض الدببة تحاكى الغنم فى طاعتها للإنسان واستئناسها. ولا تكاد تجد بها هوام سامة.

وقد أصاب ابن خلدون فنسب للسودانيين الطيش وكثرة الطرب والولوع بالرقص عند إيقاع الألحان، وعلل هذا بأن طبيعة الفرح انبساط الروح الحيواني، فالحرارة تهيج فيهم هذا الخلق، كما تهيج المغتسلين فى الحمامات. فإذا تنفسوا فى هوائها الساخن امتزجت حرارته بنفوسهم، فاهتزوا طربا ومالوا إلى الغناء.

والمكان الخصيب تتوافر فيه الخيرات، فينغمس أهله فى النعيم والترف، وينشئون منكسفى الألوان بلداء. انظر إلى أنواع الحيوان المتشاكلة، فإن ما يسكن منه القفر ومواطن الجدب كالغزلان والنعام والمها والزرافى وحمر الوحش أجمل مما يسكن الأرياف والمراعى الخصيبة فى صفاء الخلقة، وتناسب الأعضاء؛ فالغزال أخو الماعز والزرافة شبيهة بالبعير وهكذا.

ونستنتج من ذلك أن البيئة الطبيعية التى يعيشها الفرد لها أثر فعال فى تكوين غرائزه وتنميتها.

البيئة الاجتماعية:

يحتاج الإنسان إلى الرفيق للاشتراك معه فى مهام الحياة المتنوعة، فوجب عليه أن يقاسمه حبه، ويحافظ على ولائه. وقد علمت من الفصل السابق أن الإقليم يؤثر فى طباع سكانه وغرائزهم. وأحيانا تطرأ الحوادث الجسام على هؤلاء السكان، فتتغير

أخلاقهم ويؤثرون فى طبيعة الإقليم. فالعرب كانوا رعاة أغنام، راضين من الحياة بعيشة الكفاف، خاضعين لأحكام الإقليم عليهم، فلما ظهر الوحي واتبعوا نوره، انقلبت طبيعتهم فهجروا عيشة الكفاف، واندفعوا فى الممالك كالسيل الجارف، ونصبوا أنفسهم فيها ملوكا.

حكى التاريخ أن امرأ القيس شبَّ فى قومه مترفا، عاكفا على اللهو والخلاعة والفسق والسكر والعربدة والجلوس فى مجالس أهل الريبة والنقيصة؛ ولما وصل إليه نبأ قتل أبيه وهو علىٰ تلك الحال صدع، فانقلب كيانه، ونطق لسانه، بهذا القول المأثور، والشعر المنثور: " لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر، وغدا أمر "

وطوى صحيفة اللهو، وانطلق فى الفلوات طالبا الأخذ بالثأر على عادة كبار النفوس من العرب.

وقرأنا من أخبار الثورة الفرنسية الكبرى أن كثيرا من العصاة كانوا هادئى الأخلاق فى زمن السلم، فلما ثارت عاصفة الثورة انقلبوا كالوحوش الضارية، وكان لبونابرت منهم أعوان مخلصون.

العقل كالجسم تؤثر فيه بيئة المعانى ويؤثر فيها. تبهره المحاسن فيتلقاها بالقبول، ثم يصوغها من جديد صوغا يلاءم مزاجه، لا فرق بين أن تكون هذه المحاسن من المنظورات أو المسموعات. قال أبو تمام:

وأحسن من نور يفتحه الصبا ... بياض العطايا فى سواد المطالب

قيل: إنه نظم صدر هذا النبت ثم أعياه القول فلم يستطع إتمامه ثم سمع سائلا يستجدى بقوله: من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا فاستجاد قوله، واستعاره منه، وكمل هذا البيت. ترانى أجلس فى حديقة تشدو بلابلها وتسجع أطيارها على أغصان الأشجار، والماء يمر بها فيسقيها، والنسيم يحرك ساكنها فيشجيها، وأرى السحب فأناجيها بما ناجى به الشاعر الأندلسي:

كللى يا سحب تيجان الربا بالحلى   واجعلى سوارها منعطف الجدول

فإن جلال هذه المشاهد يهز وجداني، ويملك ناظري، ويشحذ تأملي، ويوحى إلى الذاكر فتدخر منه ما تريد، ويصوغ منه الخيال ما يشاء، وما ظنك بخيال حققته براعة الصناع فأنطقوا الحديد، وأطاروا المعاقل، وسيَّروا الأعلام فى البحار.

وقد علمت أن الخبرة الذاتية خير مصدر العلم الصحيح. ومن ذا الذىٰ يستطيع أن يستوعب الأمور كلها؟ والعمر مهما طال قصير. وربما لا يهتدى الإنسان إلى معرفة الحقائق التجريبية إلا وهو فى آخر مرحلة من العمر، ويموت قبل أن يستفيد مما قضي عمره فى الحصول عليه، يموت ويترك المجال لشخص آخر يعيد الكرة لينتهى إلى مثل هذه النهاية، مع أن الحقائق ينبغى أن تكون من مجهود الجماعات كل منهم يسدى إلى الآخر نتيجة عمله ليزيد عليها.

لذلك كان من واجب الإنسان أن يستعين من آراء غيره، ويتبادل مع المفكرين نقد المسائل، ويقرأ سير النوابغ، مستعيرا منه العبر والنصائح، واكتب خزائن العلوم، جمعها المؤلفون بعد عناء وجهد. فما أوفر السعادة لمن عكف على قراءتها، وفهم أغراضها، مستغنيا بها عن هذا العالم المكتظ بالأحقاد والنفاق.

تقضى ضرورة الاجتماع على الإنسان أن يدرس طباع معاشريه محتكا بهم، فإن جهله بأخلاقهم يجره إلى أن يغتر بأحاديث أهل الخديعة فيحاسنهم حث ينبغى أن يخاشنهم، أو إلى أن يخشاهم فينقلب علمه جهلا.

وتقضى ضرورة الاجتماع على المدنى ألا يكون عقله مجرد وعاء ترسب فى قراره المعاني، بل منبرا للاستفادة من علمه وتجربه فى المصلحتين: الخاصة والعامة، سالكا السبيل التى تهيئه لأن يكون عضوا عاملا.

وقد تحقق الناس صدق الاجتماع فتعاونوا على ترقيه وسائله، وسسوا الأندية للمؤتمرات العلمية والاجتماعية، فإذا قويت بينهم روابط الود ذللوا الصعاب، وعاشوا فى سعادة كاملة.

السعى لاختيار البيئة:

ننظر إلى النبات فيخيل إلينا أنه ثابت فى مكانه، ولو فحصت عن جذوره لعلمت أنها تتشعب فى الأرض، وتظل تغوص وتغوص فى أعماق الأرض طلبا للغذاء.

والحيوان والإنسان مفطوران على حب الانتقال من بيئة إلى أخرى، ويشعران أن الحبس يقضى على السعادة قضاء، ولذلك جُعِل أكبر عقوبة للإجرام قال المتنبي:

إذا صديق نكرت جانبــه	لم تعيني فى فراقه الحيـل
فى سعة الخافقين مضطرب	وفى بلاد من أختها بدل

إن حب الإنسان لنفسه يدعوه إلى السعى وراء المناخ الصالح والجليس الصادق، وإذا استوطن أرضا يفضل ناحية على ناحية، وأناسا على أناس. ويمارس العمل وإذا وجد منه ضجرا هجره واستبدل به غيره. والمهاجرة - مع ما فيها من مفارقة الأهل والأصحاب - تهيم بها النفوس الأبية حبا فى الثراء، وطلبا لاجتلاء محاسن الطبيعة، وشغفا برؤية المتجددات فى عالم الصناعة، والوقوف على أخلاق الأمم، ودرس ما وصلوا إليه من العلوم.

نعم إن النفس الطيبة تجمح بالطبع من البيئة السيئة، وتود لو أن صاحبها يهاجر إلى حيث يطيب له المقام. وإنها لكذلك إذا خاطر يوحى إليها أن التذرع بالصبر أفضل، وأن الجهاد لإصلاح البيئة السيئة واجب تستدعيه محبة الوطن. عند ذلك تهب من رقدتها هيابة وغير وجلة، لتعالج النقائص معالجة الطبيب الحاذق، متذرعة بما أوتيت من عزم ثابت، وفكر ثاقب، وإرادة صحيحة؛ وكلما استعصت وسائل العلاج الناجع زادتها الرغبة إقداما ونشاطا. والنفس التى هذا شأنها خليقة بأن تتولى قيادة التربية والتعليم.

ويقول المثل: « اطلبوا العلم ولو فى الصين ».

نعم، إن العلم النافع وطن للمفكرين أولى النفس السامية، يهتم به أصدقاء الكتاب أو محبو العلم، خضعت لأحكامه أشتات الصناعات، وأفاض من نوره شعاعا على عقول العاملين، فاخترعوا المدافىء للوقاية من وطأة البرد، والمراوح والتكييفات لتخفيف الحر؛ ورسموا- مستعينين به - مناظر بديعة رائعة، جذابة خلابة، يتمتع برؤيتها المقيم فى وطنه؛ وسجلوا الأغانى على شرائح الـسى دى والأشرطة، حتى أصبح فى وسع الإنسان أن يسمع ويرى كل شيء عبر الإنترنت والقنوات الفضائية. وسماع الموسيقى وهو بين جدران منزله.

وعلى الجملة يتسنى لمن ركز العلم الصحيح فى ذهنه أن يقلب الأمور على وجوهها، ويتخير أجملها، ويتخذ من جحيمها نعيما يريح النفس، ويجلو عنها صدأ الهموم. وبيئة العلم مع هذه المزايا لا تحتاج إلى ثراء واسع يعجز عنه العقل. ومن توافر لديه المال فلا حرج عليه أن يخرج من وطنه ليتفقد شؤون الناس. ثم يعود إليه قوى الجسم موفور العقل.

التربية والتعليم:

إن المعلم كالغارس يتعهد الشجرة بضم عود مستقيم إلى ساقها لتنمو على الاستقامة. وإن الطفل كالغصن الغض فيه استعداد للاسترشاد بتجارب المشرفين عليه. ولأمه عليه الإشراف إلى الستين من عمره، ثم يشاركها الأب ويتضافران على إصلاح شأنه واختيار بيئته. ولا يكاد يدرك سن البلوغ حتى يتكامل عقله، ويسمو به وجدانه فتهيم نفسه بالموجودات: الذاتية والاجتماعية تزدادان، وميوله ومطامعه تتضاعفان، وكلما مارس الصعاب وتقلب على جمر الآلام ازداد صفاء، وحقق رخاء

قارن بين رجلين: أحدهما بدوى قنوع بشظف العيش، عقله غفل من زخارف الحياة، والثانى نشأ فى حضن الحضارة والرفاهية حتى قدر ذوقه على فرز ضروب المحاسن؛ إن الفرق الذى يتبين لك بين هذين الرجلين هو أثر التربية الصحيحة التى ننشدها.

وكم طالت العصور، وانقضت الدهور، ولم ينته البحث فى طرق التعليم، وما وصل الناس إلى أقصى غايات العلم، وكلما خطوا إليه وسبروا أغواره رأوه بحرا واسع الأرجاء، جزيل السخاء. وأنت إذا قدرت ما وصلوا إليه فى غضون ستة آلاف سنة اشتغلت فيها العقول فرادى وجماعات، تعلم أننا أدركنا منه غاية لم يكن أحد يتوقعها. فإن الفلسفة التى كانت فرائصنا ترتعد عند ذكر اسمها، لاشتمالها على المسائل التى تحتاج من العقل إلى جهد وعناء، أصبحت سهلة المتناول، فاسترشد بها الصانع والتاجر، واهتدى بها السائح والمنقب عن ماضى الإنسان والحيوان وحاضرهما، واستعان بها المعلم فى استجلاء الغرائز والاعتداد بها فى إيقاظ الهمم الفاترة، والميول الطاهرة. وقد دونت ببطون الأسفار تجارب الحكماء من عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى وقتنا هذا. ولا يكاد القارئ يفرغ من قراءتها حتى تتجلى له المجهودات التى سبروا بها غور العقل، والخطوات التى تدرجوا بها لدرس أحواله النفسية، وما أطول الأشواط التى قطعوها فى سبيل البحث لإدراك مرامى الحقيقة! ولا يزال المعلمون يعتقدون أن فواعل الوراثة عقبة فى سبيل نجاحهم؛ بيد أن لوك وهربرت ضربا صفحا عنها.

قال الأول: " إن عقل الناشئ كالصفحة البيضاء، ينقش عليها المعلم ما يشاء، والعادة والاختبار عاملان كبيران للنجاح، ونحو ٩٠ ٪ من الناشئين قد شكلتهم التربية فكانوا على حسبها محسنين أو مسيئين ". ولا أدرى لماذا لم يعتدا بالوراثة مع أن آثارها ظاهرة لا تحتاج إلى برهان.

واعتقد الثانى أن الأرواح عوالم مجردة من الاستعداد الوراثي، وكلها متشاكلة من بادئ الأمر. والطفل الذى يراد به أن يكون نابغة أو عبقريا يتوقف مصيره على والديه. اعتقد هذا وهو لا ينكر أن هناك أفرادا لا تنجح فيهم التربية مطلقا مهما بلغت براعة المعلم.

إننا نعول فى التأديب على القدرة الصالحة والانطلاق فى ميدان التمرين

والتجارب التى تهيىء الجسم والعقل للجهاد فى سبل الحياة جهادا يتفق هو والميول والمصلحة فى المجتمع الإنساني. نقتفى أثر استعداد الطفل ونقف على حدوده لتتخذ منها مقياسا لما نختاره من العلوم. على أنه لا يسوغ لنا أن تقتصر على مطالب البيئة الحاضرة، بل ننظر إلى أفق من العلوم أعلى قدرا وأرجح وزنا، لنبرهن على أننا أمة ناهضة.

إن الضابط الذى يكفل لنا اختيار مادة الدراسة هو أن نفحص عن أهمية العلوم لأنفسنا، فلجسمنا ولعقلنا ولنظام أعمالنا ولتثقيف وجداننا ولضبط أخلاقنا ولكل ما يساعدنا على نيل سعادتنا حقوق لها علاقة وثيقة بحياتنا الكاملة، ولا نعرف هذه الحقوق إلا إذا استوعبنا دراسة العلوم الموصلة إلى هذه الغاية، والتى من أجلها شرع التعليم والتأديب. يجب أن ندرس العلوم لتتخذ منها سلاحا نحارب به الرذائل، ونحافظ به على الصحة؛ ويجب أن نستنير بنبراس العلوم لنسترشد به فى تحصيل القوت، ولنعرف كيف نحافظ على ولاء المعاشرين واقتباس ثمرات مجهوداتهم، وكيف نملأ فراغ أوقاتنا بممارسة الفنون الجميلة التى نستمد منها الراحة ونستمتع بمشاهدتها أو ممارستها.

الفصل الرابع عشر

أنواع الغرائز

غريزة حب الذات:

غريزة حب الذات هى العماد الكبير والوازع العظيم الذى يدفع الكائنات الحية إلى تحصيل أقواتها، والدفاع عن سلامتها؛ فالنبات تكبر جذوره وتتشعب فى باطن الأرض سعيا وراء الغذاء، ومن أجله يعدو بعضه على بعض تسلقا واستنادا وامتصاصا. والحيوان طلبا للغذاء يبطش قويه بضعيفة، ووحشية بأليفه. ومع أن الإنسان قد ساد أنواع الحيوان لا يستطيع أن يحصى ما يهاجمه فى كل لحظة، فهو ما عاش مهدد بالهوام تتسابق لامتصاص دمه، وحقنه بنفثات سمومها، ومهدد بجيوش الجراثيم تناوئه أينما ذهب متغذيا كان أو متنفسا، وتترقب فيه الضعف فتنقض عليه وتقتله.

لو أن الناس تحابوا لتعاونوا على مجابهة الأعداء، بهمة، لكنهم اختلفوا فى المشارب والأهواء، وسلموا على أنفسهم سيف القضاء، واستعجلوا الفناء.

وكلما زادوا حضارة وعلما، زاد التنازع بينهم فتكا ونقضا وهدما

تجد الطفل القاصر يعبث بممتلكات غيره، ويتمنى أن يكون كل شيء ملكا له، لأن مدى شهوته للطعام والشراب بعيد. اصبر على هذا الطفل حتى ينمو عقله، وتنفذ إرادته فى صلب الحقائق تجده لا يتحقق محبة ذاته إلا إذا وصلها بمحبة غيره نوعا ما، فإذا واسى مكروبا أو أعان بائسا أو أطعم مسكينا فكأنه يجر النفع إلى

نفسه، لأنهم لا ينفكون يذكرون رحمته بهم فيردون له جميلا مثله، أو ينطقون بشكره إذا أعجزتهم القدرة. هذا وإن ترقب المجازاة من أجل الدوافع لإسداء المعروف واجتناب المنكر. وقد حبب الله تعالى إلى النفوس الأتقياء محبة العمل الصالح وبغضهم فى الشر، ورغبة فى نيل ثوابه واتقاء عقوبته.

يحب الإنسان أبناءه لأنه يتوقع منهم المساعدة إذا قدروا على الكسب، وأضناه الكبر؛ وهذا الحب ظاهر فى الإناث مطلقا نحو صغارها حفظا للنوع، وترى هذا الحب يأخذ فى النقص كلما كبروا، واستطاعوا السعى واعتمدوا على النفس. وما تسامح المرأة لأبنائها إذا أذنبوا إلا وازع هذا الحب الغريزي. جاء فى أمثال الميداني: أن رجلا تزوج امرأة وله أم عجوز، فقالت المرأة للزوج: لا أنا ولا أنت حتى تخرج هذه العجوز عنا. فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلا، حتى أتى واديا كثير السباع فرمى بها فيه، ثم تنكر لها فمر بها وهى تبكى فقال: " ما يبكيك يا عجوز "؟ فقالت: طرحنى ابنى هاهنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد ". فقال لها: " تبكين له وقد فعل بك ما فعل، هلا تدعين عليه "؟ قالت: إنه حبة عمرى بهجة قلبي. وكما يقول المثل: " قلبى على ولدى انفطر وقلب ولدى علىّ حجر ".

فإذا علمت أن حب الوالدة لولدها طبيعي، فلا أخالك تنكر أن حب الوالد لوالدته أو لوالده وليد المعروف وثمرة العطف والحنان، فالولد يحب والديه متى أحس عطفهما عليه، ومتى عاقباه انقلب حبه كرها، لأن الغرض الشريف من العقوبة التى يوقعانها به يدق فهمه على ذهنه، فيتبادر لعقله القاصر أنهما يسيئان إليه.

ويحب الإنسان إخوانه مدفوعا بعامل المبادلة فى المنفعة، وهذا الحب مؤقت يبقى ما بقيت المصلحة. قيل: إن رجلا جمع أبناءه الثلاثة وأعطى أحدهم خبزا، والثانى لحما، والثالث فاكهة، وجلس الجميع مع بعض، فتطلع كل منهم إلى ما بيد أخويه، واتفقوا على أن يقسم كل منهم نصيبه على ثلاثة، يبقى الثلث لنفسه، ويبادل أخويه فى الثلثين الآخرين، فتم لكل واحد منهم أنصبة متعادلة من الخبز واللحم والفاكهة، ولولا هذا النفع المتبادل ما اتفقوا.

يشترك الإنسان والحيوان فى أن العزلة مضادة لطبعهما، وأن الاجتماع فيه تساند وتآزر، فالنحل حيوان اجتماعى لا يستطيع صنع العسل إلا بمساعدة رفقائه، والنمل لا يدخر قوته إلا بمشاركة أفراده، والخطاف لا يهاجر من أوطانه إلا أسرابا، والدواجن تعيش هنيئة إذا اجتمعت، ويرى عليها البؤس إذا افترقت. والبقرة المعزولة لا تدر اللبن ولا تسمن مثل البقرة وسط القطيع.

الأثرة والإيثار:

الفضيلة وسط بين طرفى الأثرة والإيثار، وقد ورد: " **حب لغيرك ما تحب لنفسك** ". نعم تنحط عن الفضيلة نفس من يبذر فى ماله ولو فى سبيل الجود، ونفس من يلهو عن غيره بمصالح نفسه، ومن يلعب الغرور بعقله فيرى نفسه جديرة بالمديح وهى مجردة من وسائله، ومن يصادر إخوانه فى حقوقهم ويقف منهم موقفا ممقوتا، فيحقد على من ساووه، وينكر فضل من فاقوه، ويستخف بمن نقصوا عنه.

وليس من المحبة المنشردة أن يجامل الإنسان أخاه بعبارات السرور عند سبوغ النعمة، وأن يسليه بالكلام عند نزول الكارثة. وإنما المحبة الحقيقية أن يتوجه بالفعل إلى جر النفع ودرء الضر متخذا من المال والجاه عضدا قويا. ولا يكون إشفاقه على البائسين صادقا إلا إذا جرب لوعة الجوع والعرى والحاجة، ولذلك شرعت زكاة **الفطر بعد صوم** شهر رمضان لتكون النفس قد عرفت وطأة الجوع والعطش فتسعى فى تخفيفها.

أراد معلم أن يبث فى نفوس تلاميذه محبة الإحسان إلى البائسين، فأخر عنهم الغذاء قليلا حتى هاجمهم ألم الجوع، ثم أقبل عليهم وقص حديث من نكبتهم الأيام ، فطردوا من ديارهم ، أو أوذوا فى نفوسهم وأموالهم، فجادوا بالنزر اليسير، والكريم من جاد بما عنده.

ولا يخفى أن تعويد الناشئ مد يد المساعدة للمحتاجين مقلل من شوكة الأثرة، ولاسيما إذا وجد من إخوانه إقبالا على فعل الجميل، فليشترك التلاميذ فى جمع إعانات ينفقونها فى تعليم من تتوافر فيهم المواهب الذهنية من الفقراء، أو يتعاونوا جميعا على تفهيم المسائل كما كان يفعل بستالوتزى إذ كان يجلس التلميذ الذكى بين التلميذين الضعيفين ليرشدهما: ناهيك بما تحدثه زيارة ملاجئ العجزة ومستشفيات المرضى فإنها داعية إلى محبة المعروف، مرشدة إلى أن الإنسان عرضة لتقلبات الزمان، وما أحوج هؤلاء المرضى إلى كلمة تسلية يسمعونها من زائر تخفف عنهم لوعة الوحشة والأحزان، أو إلى هدية تريح نفوسهم، وتدفع بهم إلى التفكير فى وسائل الشفاء!

وللأندية والمعارض وجمعيات التعاون والنقابات والمجلات والصحف وممارسة المناقشات الموصلة إلى الحقائق شأن كبير فى تأليف النفوس بعضها ببعض على قواعد الإخاء المتين والحب المتبادل. وقد قرر علماء الاقتصاد أن الشخصين المجتمعين يشتغلان فى يوم واحد ما لا يستطيع الفرد أن يعمله فى يومين. فالفرق بين العملين هو فضل الاجتماع وثمرة التعاون والمحبة بينهما.

إن المجتمعات وحدها وسيلة متينة لتوثيق عرا الوداد، وتمكين أسباب الإخاء والود بين أعضائها. فقد يكون العضو محبا لقوم يشاركهم فى مجتمع خاص، ومحبا لآخرين يشاركهم فى مجتمع آخر. بل قد يكون للفرد الواحد اشتراك مع غيره فى مجتمعات عدة، فيتضاعف حبه لهم بمقدار ذلك.

الفصل الخامس عشر

غريزة الخوف

الخوف غريزة مشتركة بين الحيوان والإنسان، ويخفف وطأتها على الإنسان ما يتوخاه من طرق أبواب الحيل. ولا يدرك معنى الخوف على حقيقته، من عاش فى المجتمعات المتباينة وأحس بالأمن والأمان. وغالبا يعتمد فى تصويره على ما يرسمه الخيال، أو ما يجود به الكاتبون من وصف المحن التى تفتك بالإنسانية فى الحروب والزلازل والمناجم، وبين ألسنة اللهب وثورة أمواج البحار. ومع أن هذه الأخيلة مؤثرة لا يرسخ أثرها فى الذهن رسوخه إذا أصيب الإنسان بشيء منها وأنجاه طول العمر.

أرادت كاتبة أن تكتب فى وصف الخوف الذى يحسه السارق، ففكرت أن تدخل دكانا، وتتظاهر بالسرقة فتقدمت إلى البائع وأغلظت فى القول، وضايقته فى المعاملة، وأعرضت عن الشراء؛ وبينما هى فى الطريق إلى الباب، تناولت من الأرض سلعة. وما كادت تخرج حتى أدركها الحارس وضبط ما معها، وأوسعها شتما وإيلاما، وسلمها إلى شرطى رافقها إلى قسم البوليس للفصل فى أمرها. فلما مثلت بين يدى وكيل النيابة أدهشه حسن زيها، وجمال وجهها، مع تفاهة الشيء المسروق، فسألها عن التهمة فاعترفت بها، ثم استفسرها الأسباب، فأجابت بأنها ما فعلت ذلك حبا فى السرقة، بل حبا فى درس الوجدان الذى يلازم هذا الموقف.

يتردد على النفس شيء واحد فيكون أحيانا مصدر سرور، وأحيانا مصدر الخوف. فالطفل يرى الكلب اليوم فيقترب منه ويلاطفه، ويراه فى غد فينأى

ويتهيبه. وإذا تساءلنا عن سبب هذا الاضطراب علمنا أنه رأى الكلب لأول عهده مسالما فمال إليه، وعندما أقبل الليل وآن أوان نومه، وألهاه اللعب عنه ولم يمتثل أمر أمه، أمرت الخادم أن تصوت محاكيه نباح الكلب، وأظهر الحاضرون الفزع من سماعه، فذهب مسرعا إلى فراشه وانكمش فى مضجعه ونام. ولما استيقظ صباحا، ورأى الكلب عينه، وسمع نباحه على تلك الصورة التى سمعها ليلا فلا تعجب إذا رأيناه يخافه، إذ الخوف الذى كان كمينا عنده قد أثارته التربية السيئة.

بمثل هذا نعلل الفرق بين الحمام الذى يأوى إلى أبراج صاحبه ويرفرف عليها مستريحا مطمئنا، والحمام الذى يسكن الجهات الأخرى. فالأول استأنس لأن غريزة الخوف عنده كامنة لم يثرها تأثير، فلم يهاجمه أحد ولم يؤذه صياد، عادة ألفها من الإنسان وقد وصاه الله بهذه المعاملة. أما الحمام الآخر فيسمع غالبا دوى البارود المفزع، ويشاهد شبح الإنسان مقرونا به، فتتنبه عنده غريزة الخوف بمجرد رؤية الإنسان، ويفطن إلى أنه يريد الاعتداء عليه فيخافه. أما ذراريه فربما لا تشاهد مثل هذا الاعتداء، ولكنها تحاكى أصولها فى هربها من الإنسان فتخشاه تبعا.

أعراض الخوف:

عند الخوف يحس الجسم وقع قوة عنيفة يرزح تحتها، وتهتز جوانبه من هولها، فيهرع الدم إلى القلب ليثير فى الإنسان الاستعداد لدرء الخطر أو الفرار من وجهه. وتبدو أعراضه فتدل عليه، يمتقع اللون، وترتعد الفرائص، وترتعش اليدان، وتضطرب العضلات، وتتصلب المفاصل، ويتصبب الجبين عرقا، ويقف شعر الرأس، وتتسع الحدقة، ويخفق القلب، ولا يعود التنفس من الأنف كافيا فينفتح الفم .

وكذلك يفعل الخوف فى العقل، فيتكدر صفاء الشرايين، ويغلب النسيان، وتتعطل الإرادة الصالحة، إذ لا تجد فكرا يقظا، ولا عضوا مطيعا، ويستسلم الذهن للخيال المروع، حتى إذا رأى غير شخص ظنه رجلا، وتستولى عليه الوساوس،

ويزل عن مواقف الصواب.

وكثير الخوف يعتدى على المزاج ويجره إلى الهلاك، كما يحصل للمجرمين الذين ينفذ عليهم حكم الإعدام. يقفون بين يدى الجلاد والسياف، وإذا قدم أحدهم للقتل مات الذى يليه من شدة الفزع والجزع .

مثيرات الخوف:

تثور النفس بفطرتها عند سماع الأصوات الشديدة التى تصل إليها من غير انتظار ولا استعداد ولا تعرف لها أسبابا ظاهرة. أصيب محمد على باشا الكبير بصيحة مزعجة من جراء إعدام المماليك فى قلعة مصر، كانت تنتابه أحيانا فيسمع منه زئير كزئير الأسد يتقطع من سماعه نياط القلب. جلس رسام إلى جانبه ليرسمه، ولما سمع هذه الصيحة هلع فؤاده، ومات من شدة الفزع.

وكثيرا ما نرى المتفززين تعروهم رعدة الخوف لأقل صوت أو حركة. وهم الذين قالت فيهم عائشة أم المؤمنين: «إن الله خلقا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفقت الريح خفقت معها. فأف للجبناء».

ومن مثيرات الخوف رؤية المشاهد الغريبة العجيبة المضطربة، كرؤية لص مسلح فى هيجانه، وكجماح حصان انقلبت سحنته ونصب أذنيه وفتح منخريه. رأيت فى أسفارى طفلا يترنح من البشاشة والسرور، وقفته أمه ليطل من نافذة القطار، ولما تحرك اضطرب مزاجه فعبس وبكى بكاء مرا، ولما أدارت وجهه عن رؤية المناظر المضطربة المتجددة سكن جأشه. وكذلك شاهدت طفلا يلعب الخوف بعقله، فعبست ملامح وجهه، لأن حامله اقترب من البحر فكدرت أمواجه المتلاطمة صفاء سروره.

ومنها المباغتة كما إذ حادثنا متكلم على غير انتظار، أو نبح علينا كلب، أو مثل أمامنا شبح غريب الصورة.

ولعلك تقدر ما يعترينا من ألم الرجفة وقد فتح الريح مصراع النافذة فجأة. خطر لى أن أتفقد كيس النقود وقد اعتدت وضعه فى سكان خاص من ملابسي، فلما لم أجده ذهل عقلى وضاع صوابي، وكادت تباريح الحزن تستولى على لولا أنى تحققته فى مكان آخر، والفأر تتصلب مفاصله متى يرى القط أمامه، ويستسلم لعدوه من شدة ما يعروه من وقع الخوف.

ويثور الخوف عند العزلة والجلوس فى الأمكنة المظلمة والجحور والمغارات، لأنها أماكن خلوية . موحشة، أو لأن الظلام يعوق البصر عن رؤية الخونة من بنى الإنسان والضوارى من الحيوان، وقد جاء فى المثل: " الليل أخفى للويل "، وقيل: إذا أقبل الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي.

ومن مثيرات الخوف توقع الزلل عند ذوى الأمزجة العصبية، فترى من يقف موقف الخطابة أمام الجمهور مرتعد القلب، ذاهل العقل، متلجلج اللسان، لأنه يخشى أن يخيب رجاؤه فى النجاح، أو لا ينطبق على الواقع. ومهما كبرت همة الخطيب، واستجمع الغاية من ابتكار المعانى وذلاقة اللسان، فلا يستطيع أن يقف فى الناس موقفه بين الأصحاب أو بين من اعتاد محادثتهم.

وقد يكون الخوف من ضعف الصحة، ولا يغيب عنك ما يحدثه عند الإنسان الجبان ضعيف العزيمة، وما يتردد على ذهن المحموم من المفزعات فيخيل إليه مزاجه المضطرب صورا من الوحوش الضارية تتأثره، أو صخورا من السماء تنحدر عليه، وتراه يتملص منها فى قلق وحيرة.

يقيس الإنسان عرض الطريق الذى يسير عليه فلا يجده يزيد على نصف متر، ولكنه إذا سار على المشارف العالية أو البحر، يلعب به الوهم ويسوقه إلى موارد الخوف رغم إرادته، فتجده يحتاج إلى ما يستند إليه، وإلا فإنه لا يتمالك الوقوف. ومن ذلك أن شخصا حكم عليه بالإعدام، فشدت على وجهه عصابة، وأعلم أنه سوف ينفذ فيه الحكم ، وبدلا من أن يُعدم ، سُلط عليه رشاشا من الماء الفاتر، فظنه

دما يقطر منه وغشى عليه فمات من تأثير الوهم. وبين ظهرانينا أناس بذروا فى شهواتهم، وقضوا القضاء العاجل على سعادتهم بانغماسهم فى الترف والنعيم، فيحسون بأنهم مرضى، وحينئذ يوسوس لهم الخيال فيحملهم على اعتقاد أن فيهم داء، فيفزعون إلى الطبيب ليفحص عن مرضهم فيستريب، وربما اختلق لهم علة وخوفهم بطشها فيعيشون من هذا الوهم المضاعف فى ذل دائم وقلق مستمر. ولو حسبت من يموت فى زمن الوباء وجدت أكثرهم يلقى حتفه من تأثير الوهم، والوهم من ألد أعداء الإنسان

ومن محدثات الخيال المزعج قراءة القصص، وهى أشد الأمور استرقاقا لذهن الناشئ. وما ظنك بمن يجلس بين يدى أمه أو عجائز البيوت ولا يسمع إلا نوادر العفاريت والجان، وما يفعلونه من ضروب الأذى والحرمان، بلينا بهن فى العهد الأول من طفولتنا، واعتقدنا صدق روايتهن لصغر عقولنا. وإن من يوطن نفسه على اعتقاد أنها من التخرصات والأكاذيب، ثم ينطلق رابط الجأش إلى اختبار مصادرها، لا يجدها إلا كضباب أرسلت إليه الشمس أشعتها فبددته. وقد كفانا المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده مؤنة البحث عن حقيقة هذه الأوهام إذا أسمعنا: أن فى مصر دربا يدعى حيضان المسلى بين الأزهر والدرب الأحمر، اشتهر بالمخاوف، وذهبت فيه أحاديث الناس مذاهب شتي، لضيقه وظلامه وإهمال وسائل الأمن فيه؛ حدثنا أنه عقد رهانا مع طائفة من إخوانه لاختراق هذا الدرب ليلا، وما بدأ بالسير حتى انتابه الوهم، وبدت عليه أمارات الخوف، وكان كلما صور له الخيال شبحا مفزعا تجلد وأيقظ فكره وأحيا عزيمته، وسل سيف إرادته، واندفع إلى حجب الوساوس فمزقها، ومر فى سبيله كالسهم من الرمية. وبينما كان سائرا سمع غطيط نائم فتعقب الصوت واسترشد به إلى مصدره، وإذ هو غلام كان يلعب مع إخوانه الصبيان وغلبه النوم فأيقظه، وتقدم به الأستاذ إلى من حضر فى الطرف الآخر من الدرب، وقص عليهم من أمره علما، وصوب لتلك الإشاعة

من همته سهما، وأثبت لهم من التجارب عزما وحزما، واقتلع من نفوسهم ضلالة ووهما.

منافع الخوف:

الخوف المعتدل من أكبر عوامل الإصلاح، والعاقل يجعله كالنار يتدفأ بها ولا يلمسها، وهو الذى يحمل النفس على التريث والأناة، ويثير المواهب الفكرية لتمحيص الأمور، وقد ورد: " من خاف سلم ".

فإذا دب دبيب الخوف فى إنسان على أثر رؤية حيوان ضار، ففر من موقفه إلى مواطن السلامة، ضنا بحياته أن يعبث بها الشر، أو إذا دهمته النار فى منزله فثبت أمامها رابط الجأش يفكر فى وسائل النجاة، ودفع غائلة الحريق، حمدت مغبة هذا الخوف الذى نبه القوى الفكرية على خطر الموقف والاستعداد له، ودرء مخاوفه بما يستطيع من الإقدام والنشاط.

رأس الحكمة مخافة الله:

وخوف الله تعالى رأس الحكمة، لأنه يضبط النفس الجامحة ويكفها عن مباشرة الاعتداء، فى غيبة الرقباء، وكفى بالله رقيبا. وماذا عسى أن يكون خطر الملحدين على المجتمع الإنسانى وقلوبهم مجردة من هذا الوازع.

فى الخوف قوة روحانية تكفل تحرى الإصابة والسلوك بالإنسان فى مسالك البحث والتنقيب، لتخير الأسباب الراجحة التى ترشده إلى السعادة، على أنه قد يبذل ما لا قبل له بد من وسائلها، ثم تفلت منه الغاية المنشودة، ويضل حيث يريد الفوز. ذلك لأن الأسباب المعقولة التى جال فكره فى اختيارها، ربما لا تكون أسبابا حقيقية فى الواقع. فقائد الجيش يرسم خطة الهجوم التى يتوسم فيها النجاح فى ساحة الحرب، ولكن عدوه ربما حسبها من قبل – على سبيل توارد الخواطر – وأعد لها العدة، فيتبدل الأمر، وتسوء العقبى.

لذلك جاءت مشروعية الاتكال على الله بعد إجادة الأسباب. وهذا الاتكال برهان على عجز الإنسان وقصر عقله فى الإحاطة بالحقيقية.

فحسبه أن يزاول الأمر بعد عرض أسبابه على محك الفكر، ثم يقف بين طريقى الأمل بالنجاح والخشية من الخيبة، ويضرع إلى الله تعالى راجيا حسن التوفيق، إلى أقوم طريق.

رأينا من الناس من اندفع بلا عقل فى سبيل المضاربة، ودخلها من غير حساب لعواقبها، فربح وخرج من السوق ظافرا محسودا. ورأينا منهم من يدخل السوق ويزن الأمور بميزان العقل، ويحكم عليها حكما منطقيا يقينا، فيحجم عن الشراء، مع أن الواقع ربما لا يتفق مع رأيه، فأمثال هذه الحوادث لا يصح القياس عليها. ولو تأملت معنى الحياة، وتفهمت ما تحتويه من البيان، وما تدلى به من الحجة، لعرفت أن الله عنده مفتاح الغيب، وأننا لا نملك من أمورنا إلا أن نزنها بعقولنا، ونماشى الدليل ونستند إليه، ونعول عليه، فإذا عادى القدر مسعانا، فلا حول لنا ولا حيلة. إن الذى يستسلم للمضاربة إذا صحت معه الأحوال وجرت معه الأمور فى طريق غير معقول، يوشك أن يرد منها موردا يقضى على ماله، وما أحكم المثل المشهور. " ليس المخاطر محمودا وإن سلم ".

الفصل السادس عشر

الشجاعة

الخوف غريزة كما علمت ، أما الشجاعة فصفة كسبية تجود بها التربية ويصقلها التمرين. والجبان والشجاع سواءان عند الصدمة الأولى، ثم يتفرقان فيخور الجبان ويتعثر فى أذيال الخيبة، ويحتال الشجاع ليتملص من الأذى. وقد أنصف ابن حزم ففسر الشجاعة: " بأنها بذل النفس للذود عن الدين أو الحريم أو الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلما فى المال والعرض وسائر سبل الحق؛ والصبر على ما ذكرنا جبن وخور، وبذلها فى عروض الدنيا تهور وحمق، وأحمق من ذلك من بذلها فى منع الحقوق والواجبات، وأحمق من هؤلاء قوم لا يدرون فيم يبذلون أنفسهم، فيتعرضون للمهالك: إما إلى العار، وإما إلى النار ".

وقد التبس على بعضهم معنى الشجاعة فعدها غريزة، ووصفها بأنها قوة نفسية كامنة تظهرها الحوادث من غير انتظار، حتى إن الشجاع بعد خروجه من ميدان القتال يرى أن ما أبداه فيه من البسالة والإقدام ممكن لكل شخص، إذا أتيح له موقف مماثل لموقفه.

والحقيقة أن هذا الوصف ليس يدل على الشجاعة التى نحن بصدد بحثها فى هذا المقام، بل ينطبق على غريزة الهرب الآتية، وهذه الغريزة تتنبه فى أحوال استثنائية، عند الطوارئ والحوادث الفجائية.

وإذا سلمنا جدلا بأن الشجاعة غريزة، تأتي وجودها كالغرائز الآخر فى كل شخص ومن دون جد ومكافحة، وكاد من العبث حينئذ أن تعد من ألقاب العظمة والتمجيد، وأن يتأسل بها الفخر فينتقل بالميراث من جيل إلى جيل.

الهمجى لا يرى الشجاعة غريزة، بل يعتقد أنها تتولد بالعلاج، ذلك أن الوالد يذهب إلى الغابة فيصيد الأسد، ثم يشق صدره ويستخرج قلبه وينضجة ويطعمه أبناءه فيشبون على الشجاعة. وليس اختيار القلب من بين الأعضاء لإطعام أبنائه إلا دليلا على أن القلب هو آله الشجاعة، فإذا تمثل فى الجسم هو آلة الشجاعة، فإذا تمثل فى هذا الجسم وجرت عصارته فى الأعصاب ظهر الابن الصغير بمظهر البسالة والإقدام ، وهل الشجاعة فى نظر المتمدين إلا صلابة فى الجسم، ورزانة فى القلب، وممارسة للمخاطر، واندفاع فى حومة الوغى بصدر رحب، واستخفاف بالموت فى سبيل المحافظة على النفس والأهل والعشيرة والوطن؟

إن أغلى شيء يملك من الإنسان لبه إنما هو الحياة، ولا شيء ينجيها من الأذى ويجعلها بمعزل عن مواقف الهلاك سوى البعد عن المخاوف، أو بعبارة أخرى، إن الجبن سبيل الحياة الهادئة التى ترتاح إليها النفوس الضنينة وهو لا يحتاج إلى كفاح، ولذلك عدّ من الغرائز، فيكفل سلامة الجسم فى الطور الأول، حتى تتولد الشجاعة فتتسلم زمام الأمور، وتسيرها على الوجه الأكمل.

والشجاعة التى عليها مدار كلامنا ينطوى تحتها حب الكسب من وجوهه الشريفة، والصراحة فى القول، وخدمة الأمة بإبراز المخترعات النافعة، وارتياد المجاهل، والجهاد بأنواعه المشروعة.

قال ملك لوزيره وهو يختبر حذقه: ائتنى بأردأ طعام، فى أقبح إناء، يحمله أحقر إنسان ، فظن الوزير أن طِلبة الملك سهلة ميسورة، فاستحضر فولا ووضعه فى وعاء من الخزف، واستأجر لحمله إلى الملك عاملا حقير الملابس، وكاشفه بالأمر. فدهش العامل وقال للوزير: لقد أخطأت المراد، وحدت عن طريق السداد؛ دونك

الطعام الذى تقدر الوجبة منه بعشرات من الجنيهات، وهو الطعام الغليظ الذى تضعف المعدة دون هضمه؛ دونك الوعاء الذهبى المكلل باليواقيت، وقيمة الصفحة منه مئات من الجنيهات، وهو الوعاء الذى إذا كسر كانت الخسارة باهظة؛ دونك فلانا الثرى الوارث المنغمس فى النعيم والترف، اللاهى عن مهام الحياة، الذى لا يبالى أن يكيل المال جزافا؛ خذ هذا الذى وصفته لك إلى الملك فإنه الذى عناه بطلبه. وأجرؤ وأقول: إنى - وإن كنت فقيرا معدما - ذو نفس شريفة غنية. وهل فى شخص غيرى يتحقق معنى الشجاعة وأنا أسعى إلى القوت بياض نهاري، ومتى انتهى النهار جئت بأجرى الزهيد وصرفته على بيتي، معتقدا أنه ثمين، لأنه ثمرة عرق الجبين؟

نعم تتمثل الشجاعة فى هذا الشخص وفى البناء مثلا، ذلك الذى يقوم بعمله واقفا على عود خشب قد ينكسر به، أو يفلت منه فيهوى إلى الأرض، وهو على كل حال معرض لزمهرير البرد ووهيج الشمس، قانع من القوت بالنزر اليسير، راض من الرزق بالأجر الزهيد.

كذلك تتمثل الشجاعة فى نفس العامل الذى انطوى به باطن الأرض، إما فى مناجم الفحم بعيدا عن مناظر الكون الجميلة، متنفسا فى جو من الغاز السام، وربما انفجرت فيه عين ماء، أو التهب فيه الغاز فيذوق الموت الزؤام. وإما فى مسابك الحديد وقبس النار يلمع فى الأفق، وآلاف الشرر تتصعد فى الجو، ومذوب الحديد يجرى كالماء فى الجداول، إذا مس الجسم شيء منه ذهبت النفس شعاعا.

كذلك تتمثل الشجاعة فى نفوس المستكشفين الذين يهجرون أوطانهم وما حوته من نعيم، لتفقد البلاد النائية، واستخراج حاصلاتها، والانتفاع بخيراتها، ويزيدون رفاهية العالم بما يوسعونه من الأرزاق عليهم وعلى الناس.

وتتمثل فى نفس الجندى الذى يخرج إلى الحرب وعلى جسمه العديد من الأسلحة، والجو متلبد بالبارود، يلقى إليه الأمر بالهجوم فينقض على الحصن

المسلح، وينال منه إحدى السعادتين: الفوز على العدو أو الموت الشريف، ويبنى له ولقومه حصنا من الفخر، ومكانا من الرفعة. ومن لنا بمثل خالد بن الوليد الذى قال وهو يحتضر: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشى كما يموت الشجعان فلا نامت أعين الجبناء».

وتتمثل الشجاعة فيمن يسهرون للمصلحة ويجيدون المخترعات، ويزاولون التجارب على ظهر الأرض، أو فى الجو وقرار البحر والموت يهدد حياتهم. وكم ضحى بها العلماء، رغبة فى إدراك طلبهم، فماتوا شهداء المصلحة العامة، كالشخص الذى يخلص غيره من شر أحدق به، حبا فى حياة أخيه، وإرضاء لضميره الشريف.

وتتمثل الشجاعة فى نفس أصحاب المبادئ السامية، تأمل نصيحة أم عبد الله بن الزبير له، وقلما سمعت بمثلها من أم إلى ولدها. دخل عبد الله على أمه فقال يا أماه: خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى لم يبق معى إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا فما رأيك؟. فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك فى الدنيا؟ فقال يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبوني. قالت: يابني: إن الشاة المذبوحة لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك، واستعن بالله

فترى لصاحب المبدأ عقيدة راسخة ينطلق لتأييدها ونشرها، غير مبال بسخط الساخطين، أو عقاب الحكام، وكل ما يلقاه من العدوان حينئذ يقع فى نفسه موقع القبول. فكم صبر الأنبياء والحكماء على أذى الناس لاعتقادهم أن الحق ناصرهم. وكم تحمل جوناس هوناوى استهزاء الناس به، سائرا فى شوارع لندن فى يوم ممطر،

حاملا مظلة اخترعها لم يعهدها الناس من قبل. وقد لبث فى جد متواصل حوالى ٣٠ سنة لا يبالى بما يوجهونه نحوه، حتى نجح فى نشر استعمالها.

هذه الجهود التى استلزمتها الشجاعة على ما فيها من السمو ورفعة القدر، يراها الحكيم دون شجاعة من يجاهد نفسه فيحضها على الفضائل، ويبعدها عن الرذائل، ولا عجب فإن صلاح النفس دعامة صلاح الأمور.

الفصل السابع عشر
غريزة الهرب

إذا التقى القط بكلب فأعراض الفزع تبدو عليه : يقف شعره ، وتتقلص أعضاؤه ، وينتفخ بطنه ، ويكشر عن أسنانه ، ويرتفع صوته. يفعل هذا فعلا غريزيا متى أحس من نفسه ضعفا أمام عدوه ، ليزعجه بهذا الانقلاب الغريب قبلما يتخذ إلى الفرار سبيلا. وترى السبع وهو سيد الحيوانات يركن إلى الحيل عند لقاء عدوه ، فيخشى أو يتقهقر حتى يستجمع قوته ، ثم يتحيّن الفرص للافتراس.

إن الشجاع إذا فاجأه الخوف لا تفتر همته ولا تتزعزع عزيمته ، بل يتريث ليوازن بين قوته وقوة خصمه ، ويعالج الأمر لعله يجد مجالا للفوز ، وإلا التمس طريق الفرار صونا لحياته ولا عار عليه ، وينشط الجسم حينئذ نشاطا قلما خطر له ببال.

فقد حدّث أحد السائحين أنه رأى رجلًا فارًا من أسد يحاول افتراسه ، وفى أثناء فراره تسلق جدارا عاليا ، ولما زال الخطر عاد هذا الرجل إلى تسلق الجدار فشق عليه. وربما لا يحصل الهرب وإنما يقوم مقامه الاضطراب إذا اشتدت وطأة الخوف، كالذهول الذى يحسه المستيقظ وقد شُبّت النار بمنزله . وربما برَق شعاع من نور يثير فيه النشاط إلى إخماد النار أو الفرار طلبا للمساعدة. وكالفزع الذى ابتأست به قلوب اليابانيين من الزلزال الذى نكبت به البلاد فى صيف عام ١٩٢٣ ، فقد كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، تكتظ أرجاؤها بالقصور الضخمة والشوارع المعبدة ، وأهلها مسوقون بالمطامع، يدخرون الأموال لعمر ، وعيش سعيد ،وفى غضون خمس دقائق اندكت تلك الصروح ، وغارت فى

الأرض تلك الأبنية ، وغضبت الطبيعة فجرت من الويلات ما جرته تلك الحرب الضروس فى مدى الخمسة الأعوام.

مادت الأرض وانشقت طرقاتها فابتلعت الغادين والرائحين ، وخرّت المبانى على رؤوس الساكنين ، واندلعت ألسن النيران ، وهاجت أمواج البحر ، فهلع القوم من شر ما رأوا ، وانطلقوا على غير هدى يحاولون الخلاص ، وكلما خرجوا من خطر تلقاهم غيره ، ومن نجا من هذا وذاك بات عرضة للجوع والعطش والعرى .

هكذا ازدحمت عوامل الهلاك ، فأطارت لب العاقل ، وروعت قلب الشجاع ، وخرجت البلاد من هذا المصاب دامية الجروح مهيضة الجناح ، ولولا صدور مفعمة بالشجاعة وقلوب لم يتسرب إليها اليأس لباتت اليابان أثرا بعد عين.

رأى وليم جيمس أن الاضطراب من الفزع يحصل عقب الإحساس به ، ويحصل الخوف تبعا للاضطراب ، وانتقد قول بعضهم فلان ساءه حظه فحزن ثم بكى ، ورأى فلان عدوه فخافه ثم فر. لأنه يرجح تقدم البكاء على الحزن فى المثال الأول ، وتقدم الفرار على الخوف فى المثال الثانى ، واستدل على رجحان رأيه بالاضطراب الذى نحسُّه أولا متى بدأنا بالمسير فى طريق مظلمة ، ومتى باغتنا صوت مزعج ، ومتى رأينا صاحباً يتقلب على فراش الآلام.

الفصل الثامن عشر

غريزة الغضب

هى كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميول، ولا صلة بينه وبين المعانى التى تفرغ لها الذهن. وتخالفها فى أن الخوف يجعل الإنسان على الهزيمة والفرار، وأن الغضب يفضى إلى الهجوم والاشتجار.

عند الغضب يسرع الدم إلى القلب كما يحصل عند الخوف، ثم يثور فينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن فيحمر الوجه، وينتفخ الوجدان، ويجيش الصدر، ويعبس الوجه، وتنكشف الشفتان عن الأسنان، وينطلق اللسان بالسباب، وتتأهب الأعضاء للفتك كالوحش الضارى ساعة الافتراس.

وقد مثل الإمام الغزالى الدماغ عند الغضب بكهف أضرمت فيه نار فاسود جوه، وحمى مستقره، وامتلأت جوانبه بالدخان وكان فيه سراج مضيء فانطفأ نوره.

أعراض الغضب:

ومتى اشتد الغضب فى إنسان وتوهجت سورته، ولعبت بالعقل شدته، حمل على ارتكاب الجرائم من غير مبالاة، وأثار الحرب من غير عناء، وأوعز إلى الانتقام ممن حوله ولو لم يكن لهم به صلة، وشفى الغليل بالأذى وفعل ما يتحاشاه العقلاء. يفقد أعصابه فيهيج غيظا ويمزق أداة اللعب، وتعثر الرجل بالحجارة فتدقه بالأرض دقا، ويكره الآكل الطعام فيكسر أطباقه، ويسمع المجرم الحكم الصارم

فيسب القاضي، وكثيرا ما نسمع حوادث الانتحار من جراء ثوران النفس عند الغضب.

لا ننكر الغضب الذى يتولانا من رؤية أشياء سيئة يندى لها الجبين. ومن سماع المكابرة فى المناظرة، ومن التمسك بالرأى الذى لا يستند إلى الدليل، ولدى إغفال الحق، وإنكار الصدق، وعند الازدراء، وفى مواطن الإيذاء.

إن الغضب كالأفعى ذات الملمس اللين إذا بطشت غدرت، وكالقوة الغاشمة إذا حكمت ظلمت، وكمسيل الماء ذى اللجة الجارفة لا يأمن من عثاره، من سار فى تياره.

إن الغضب إذا هبط بمقدار مناسب كان منبها للحمية، محركا للنفوس الأبية، موقظا للنخوة، مثيرا للشجاعة والفتوة.

فينبغى للعاقل ألا يتأثر بفواعل الغضب، وأن يحارب وسائله ما استطاع.

كظم الغيظ:

ولقد صدقت عزيمة رجلين ذاعت شهرتهما فى السماحة والحلم: معاوية بن أبى سفيان والأحنف بن قيس. كان معاوية يسمع كلام الناقد فلم تأخذه ضغينة ولم ينتقم منه، وإنما كان هذا يدفعه إلى توخى العدالة، وإزالة أسباب المظالم؛ ولا تسل عن ثمرات صنيعه فكانت كلها خيرا وبركة. ومن مأثور حكمه: « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ».

ولما سئل عن ذلك قال : « كنت إذا مدوها أرخيها، وإذا أرخوها مددتها».

وأما الأحنف فقد جاءه رجل وأخذ يسبه والأحنف مطرق صامت، فلما رآه الرجل مغرضا عنه أقبل يعض إبهامه ويقول: ياسوءتاه، والله ما يمنعه من جوابى إلا هوانى عليه.

بلى سقراط بزوجة شرسة كانت تكيل له من ألفاظ السباب ما ليس له به طاقة،

وضاقت أمامه الحيل لتثقيف طباعها، فأشار عليه أصحابه أن يطلقها فأجابهم " إنى لا أحنق عليها لأنها بهذه المعاملة السيئة تعلمنى فضيلة الصبر ".

وروى المويلحى أن ملكا سمع اثنين من حراسه يذمانه من وراء خيمته، فرفع الستارة وقال: " ابعدا قليلا خشية أن يسمع الملك محاورتكما ".

وقال ابن المقفع: " إنى علمت موطنا واحدا، فإن قدرت أن تستقبل الجد بالهزل فيه أصبت الرأى وظهرت الأصحاب، فتجيبه إجابة الهازل المداعب فى بشاشة، وطلاقة من الوجه، وثبات من المنطق ".

هذه المرتبة من التسامح لا تنال إلا بتوفيق من الله، وتوطين النفس على المكاره، واحتمال أذى الناس، والترفع عن نقائصهم، كما يترفع السبع فى قفصه عن النظر إلى من يحبه.

وما أحرى المستاء أن يلتمس المعاذير للمسيئين بأنهم من المكانة بالدرجة التى يعتد بها، أو بأنهم أساؤوا من غير قصد ولا إرادة، أو بأنهم قصدوا الإساءة ليتعرفوا مقدار ما يسديه المحسن من المغفرة فيكفروا عن ذنوبهم، ويرجعوا باللائمة على نفوسهم.

نعم لا يليق بنا أن نجبن أمام إساءة المسيئين لئلا يستهتروا بنا ويزيدونا بلاء. وإننا لو أنصفنا أنفسنا لأسعفنا المسيء بحلم نداوى به خُرقة لعلهُ يكبر النعمة، ويشكر الصنيعة، ويزنها بميزان عقله. حتى إذا رأينا فيه نزوعا إلى الشر علمنا أننا غرسنا المعروف فى أرض قاحلة فتستبدل بالإحسان عقوبة الحرمان.

ويكون كظم الغيظ بالتجلد والتسلي؛ أما التجلد فهو نهاية ما تبلغه نفس الحليم من الصبر، وهو مفتاح الهوادة والأناة. وأبلغ ما نستشهد به فى هذا المقام ما حكاه المويلحى أن وزيرا أراد أن ينصح الملك باجتناب الخمر، لأنه يخذل النفوس فى مواطن الإصابة، فلم يرتح ضمير الملك إلى هذه النصيحة التى أثارت فى صدره نار الغيظ فهم بالانتقام: أمر بالأقداح فمدت، وأخذ يحسو الشراب حتى امتلأ، ثم أمر

بابن الوزير فأجلسه على مرمى سهم، وقال لأبيه سأريك إذا كان للخمر تأثير فى قواى العقلية؛ وهنا رمى السهم عن القوس فأصابه فى قلبه إصابة أسقطته على الأرض صريعا مضرجا بدمه. رأى الوزير هذا المنظر الفظيع فتجلد، وقال للملك: فعلك هذا - أيها الملك - قد بلغ من الإصابة حدا لا يستطيع إله الصيد والقنص أن يدركه.

فقدّر شأن هذا الحلم السديد، والنظر البعيد، فى أشد ساعات المحن، ولو بدرت منه إذ ذاك فلتة من كلامه أو حركات أعضائه لكان هو وأهل بيته وقودا للظى غيظ الملك.

ومن مخففات الألم المثير للغيظ استذكار حوادث الماضين ملوكا كانوا أو أمراء، والمصيبة إذا عممت هانت. فكم سمعنا عن ملوك أصبحوا من الرعايا، وأمراء أذاقتهم الأيام مرارة البلايا. وحيثما كان الإنسان عرضة للشدائد فما أحقه إذا حكم القضاء أن يستسلم لحكمه، وليس فى الشكاية من بلاء سوى أنها تفتح للشامتين أبواب المهانة والازدراء.

هل للغاضب أن ينظر إلى وجهه فى المرآة وقت الغضب؟ إذا فعل ذلك وجد وجهه الذى يقطر ماء البشر منه قد تبدلت به غيوم الكآبة، فصار قاطبا عابسا كالحا مكفهرا.

والمرضى وأصحاب المطامع عرضة لبلايا الغضب، فليخفف الإنسان على نفسه وقع المرض وثقل المطامع.

وكثيرا ما يفشل وهو يطلب الأمر الواحد، فكيف به إذا تشعبت المطالب وخرج من الجميع صفر اليدين؟

وإذا ساورتك هموم الغضب فأخلد إلى السكون، لأن الحركة تحدث الحرارة وهى تثير الغضب. لذا حاول أن تأخذ حماما باردا كى تهدئ أعصابك الثائرة، فإن النار لا تطفئها إلا الماء، عليك أن تتعهد بدنك بالنظافة، وجسمك بالتنزه،

وأحشاءك بالرعاية، وعقلك بالراحة. وعليك أن تزيل عن صدرك صدأ الهموم بترتيل الشعر،وسماع الألحان، وإدمان النظر إلى جمال الطبيعة والسير فى الحدائق بين الورود والأغصان أو على شاطئ البحر بين الخضرة والمياه والسماء الزرقاء، فإن هذا كله قد يزيل الغضب وتهدأ تماما.

الآثار السلبية للغضب:

ولا يغيب عن بالنا أن الذهن ساعة الغضب يختل مزاجه ولا يعود قادرا على أن يجول جولة صادقة فى تربية النشء، وقد يثور لأقل الأسباب ويبطش، ويذهب فى ميدان التعذيب مذاهب شتي، ولذلك اشترطوا فى المعلم أن يكون من الحلم والأناة والهوادة وترقب المصلحة بحيث يتمالك نفسه ويصدها عن الغضب إذا قصر التلميذ فى واجبه العلمى والأدبي ، وأجدر بالمعلم أن ينقب عن أسباب هذا الإهمال ويحاسب نفسه لعله يكون قد فرّط فى بيان الدرس، أو جاوز حدا لا يستطيع ذهن الطفل تمثيله وإدماجه فى سلك معلوماته. نعم إن التلميذ إذا أوجس خيفة من صارم العقاب يخمد فكره ويقف عند فهم أسهل المسائل، وربما داهن أو راءى وقلبه مملوء بالكراهية، فينبغى على المعلم أن يسلك مسلك الصواب، ولا يعتمد على درس أطوار الطفل من خلال حركاته. إذ أن الغضب – مهما كان قليلا – يجر إلى عواقب بينها وبين التأديب بون بعيد. ويحسن بى هنا أن أورد أمثلة تؤيد ذلك.

رأى والد فى ابنه إهمالا فهم بإنفاذ العقوبة، فاتقاها الولد بالهرب، ولما لم يدركه الوالد رماه بكرسى أصاب فى رأسه شريانا فأدماه، فندم الوالد ورجع خائبا أسفا من شر ما فعل.

غفل طفل عن حفظ درسه فأوقعه المعلم تحت طائلة العقاب، وضربه بمسطرة ضربة مبرحة فجرح يده، شق ذلك على المعلم فاستعان بغيره على تضميد الجرح وتخفيف لوعة الألم، ولما اطلع والد الطفل على ما حصل استفظع العقوبة، وشفى

غليله من المعلم بشكايته. فانظر كيف أدى الغضب بالمعلم إلى خرق في الرأى ومضاعفة العذاب، " ومعظم النار من مستصغر الشرر ".

هذا قليل من كثير لو أراد الباحث أن يبسطه لا تسع به المجال، لأن حوادث الغضب كالشرر تتصاعد من النار المتأججة لا نكاد نحصيها ، والتلاميذ أكثر الناس مهرة في المكر، يزنون فطانة المعلم بما يبدونه من أمثال ذلك، فإذا آنسوا منه امتعاضا وزللا وانطلاق في الغضب استهتروا به، وزادوه هما، ودبروا له المكايد، وألصقوا به التهم. وإذا عرفوا فيه الاقتدار والحكمة هابوه، وامتلأت عيونهم وقلوبهم منه تقديرا واحتراما.

الفصل التاسع عشر

غريزة القهر والغلبة

عند مسيس الحاجة تنزع النفس بطبيعتها إلى المنازعة والمدافعة مبدية ما عندها من قوة تحقق بها الفوز ، تأمل القط هنا وإسرافه فى البطش بالجرذان يطاردها ويسد عليها المنافذ، ويغتالها بمخالبه الحادة وأنيابه المسنونة، وكثيرا ما تقف أمامه مذعورة من هول الموقف فتسهل له سبيل الفوز عليها والفتك بها. والديكة يهارش بعضها بعضا، والخرفان تناطح، والديك الرومى يهاجم لابس اللون الأحمر القاني، وربما كان هذا اللون رمزا للحرب فى نظره.

والإنسان يبطش بقوته البدنية وبما عنده من قوة العقل والتدبير، فيخترع العدد والأسلحة ويصيد ما شاء من ضوارى الحيوان وكواسر الطير ولو بعيدة عنه، وإذا تجرد من إنسانيته جرد سيفه على أخيه، وبطش به، وأنذر بشر مستطير، وهدد سلامة العالم.

فقديما اعتدى أحد أبناء آدم على أخيه قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾. ومن ممارسته لقوته واعتماده عليها فى أطوار حياته وعدم اكتراثه لتحرى سبل الحق تسربت بالوراثة منه إلى ذريته، فبدت فى البدوى والحضرى وفى العالم والجاهل وفى كريم النفس ولئيمها " والكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع " .

على الفروسية وحدها معول البدوي، فيها ينصب نفسه زعيما على قومه، ويبذ

أقرانه فى ساحة القتال، ويصول على من يسحب حقه، وينازل من يمس كرامة عشيرته ومن يلوذ به، ويبلى البلاء الحسن فى المحافظة على شرفه، حتى أصبح الأخذ بالثأر من أقصى أمانيه. بذلك مجده الناس وكرموه وتفاخروا به وأحلوه أعماق قلوبهم، وأكبروا قدره وتنافسوا فى الانتماء إلية بالقرابة والمصاهرة، وعاونوه على تنفيذ أغراضه، وجادوا له بنفوسهم لاعتقادهم أن وصمة العار لا يزيلها إلا الأخذ بالثأر، كما تزيل النار خبث المعادن.

أما سكان المدن فشغلتهم حضارتهم ورفاهتهم عن المصارعة البدنية، وعدوا عمرهم أغلى من أن يقامروا به؛ فأنابوا عنهم حكومة يقظة مسلحة، وكلفوها الذود عنهم فى الوقت العصيب، واستعانوا بها على حماية حقوقهم، ثم وجهوا قوسهم إلى تذليل القوى الطبيعية واستخدامها لتشييد قواعد العمران وترقية شؤون الجماعات. بذلك استعاضوا عن خشونة البدوى دماثة الطبع وزينوا بها مجتمعاتهم، ورفعوا شأن من تحلى بها فصارت غريزة من طول ممارستها. ولا تكاد ترى عند أحدهم من الجراءة البدنية ما تراه فى البدوي؛ بيد أن طبيعتهم الأصلية لا تزال تتغلب عليهم فيتحينون الفرص للإفلات من وطأة القانون، ويتخذون من أسنة ألسنتهم وقواطع حججهم ما هو أشد بأسا من الحسام، وإذا أعيتهم وسائل الإقناع واستمروا على تعصبهم لرأيهم خرجوا من حظيرة المجادلة إلى المشادة، فهددوا وأوعدوا.

ومن دلائل تمجيد الناس للقوة البدنية إكبارهم لأبطال الحروب، والمبارزة من أشد الوسائل لاحتدام الخواطر وجيشان القلوب وإضرام نار الحرب. يبرز من الجيشين بطلان للمشادة والمغاضبة، ثم ينتصر الفريقان كل لصالحه ظالما كان أو مظلوما.

وربما كانت المبارزة آخر سهم فى كنانة المتحاربين، ومفزع زعمائهم حقنا لدماء المستميتين. فقد دارت رحى الحرب بين على ومعاوية يبعث فيها النفوس بالثمن

البخس، وخشى المسلمون اتساع نطاق الفتنة، فتقدم على إلى معاوية وقال له: " علام يقتتل الناس؟ هلم إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور " وهذا مما امتاز به على من ضروب الحكمة. ومن غلب عقله هواه، وقلب العداوة صداقة، والمكافحة مصالحة، والحرب سلما، كان أولى بالإعجاب وأحق بالإكبار، ومثل على من يجود بحياته لتقليم أظفار الفتنة.

وإلى عهد قريب كانت المبارزة مرجع المتنازعين يلجؤون إليها للفصل فى أمورهم. والمتفرجون يتهافتون على ميدانها. هاتفين مصفقين لمن يحوز الفوز، وهو يعد صاحب الحق فى نظرهم ولو كان فيه دعيا. ولكى لا يتفاقم الشر يقف الأطباء من ورائهم لتضميد الجروح وإسعاف المصاب، ومتى شهد له الحاضرون بالفخر برد دمه الثائر، وانثنى إلى المهزوم عاطفا عليه متقدما إليه بوجه باش وصدر رحب، ويده ممدودة للمصافحة إيذانا بأن صلة الود قد عادت، ونيران الضغينة قد التهبت واحترقت.

والناس تلقاء هذه الغريزة صنفان: صنف بالغ فى قهر غيره استرسالا منه فى مطالب هذه الغريزة، ومنهم قدامى الإغريق ومن جرى على شاكلتهم فقد اتخذوا للحرب إلها، وبلغ استهتارهم بالضعفاء حدا ممقوتا، ذلك أنهم كانوا يرمون الطفل من فوق جبل مرتفع متى تسرب إليه المرض الذى يشل أعضاءه فيصبح مغلوبا على أمره، عالة على أهله وعشيرته، عائشا فى أحضان الذل، منذرا بذرية سقيمة، والحياة تتطلب الجهاد الدائم لمصارعة الشدائد والنوازل، وما لم تتحقق فى الإنسان بشائر القوة فالموت خير له ، بهذا وبغيره ضل أتباع هذا المذهب وغلبوا اليأس على الرجاء، وجردوا قلوبهم من حلية الرأفة وهى أكبر مزايا الإنسان، ينصبون الفخاخ للضعفاء، ومتى صادوهم ارتكبوا معهم الفظائع وأذاقوهم مر العذاب، وكلما سمعوا منهم تأوها استخفهم الطرب فازدادوا سرورا، وهؤلاء هم المردة الجبابرة السفاكون لدماء الأبرياء. وصنف آخر استعانوا بالقوة لتخفيف ويلات الإنسانية،

يجودون بمالهم وعمرهم، ويتجاوزون عن حقهم فى القصاص، وما العفو إلا عند المقدرة، فهؤلاء قد شايعوا دين الفطرة فى أسمى مبادئه المبسوطة.

ثم كانت الرحمة المطلقة شعار فريق من الهنود، حرموا ذبح الحيوان استفظاعا لتعذيبه، واستنكارا للنزول فى الفتك إلى مستوى الحيوان ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى الذى عاش نباتيا، ومن شدة تمسكه بمبدئه كف عن أكل اللحم حتى فى وقت الحاجة، فقد روى أنه مد يده يوما إلى طعام وصفه الطبيب فوجده دجاجة، فامتنع عن الطعام وخاطبها بقوله: " استضعفوك فقتلوك هلا قتلوا شبلا ".

ومن يتفقد حالنا الاجتماعية يرى الأقوياء يهزؤون جهارا بالضعفة، ويناوئونهم، ويستحلون أموالهم، منتحلين الأسباب التى تخولهم ارتكاب الظلم، وهى دين أهل النقيصة والإثم. وربما أيدوا مذهب الاشتراكية فيقولون: ما بالنا نرى الناس متفاوتين فى اليسار، وأخلق بالأقوياء أن يكونوا به ممتازين. وربما استبدوا فاعتقدوا أن الناس فطروا على الظلم، واحترموا الظالمين ترويجا لمذهب زهير بن أبى سلمى «ومن لا يظلم الناس يظلم» وربما تمثلوا بقول الإباحيين:

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

أما القوة الغاشمة فهى عارية تماما، يذهب بزوالها فضل المستندين إليها؛ إن رفع العقيرة بالحق من دون الاستنصار بالقوة لا يجدي، لأن صوته وحده فاتر، وسلاح القوة وحده قاهر، وقسطاس العدل لا ينصب إلا بتناصرهما وتوازهما، ومن جاهد فى الحياة بدونهما معا فلا محيص من انهزامه. وكما تكون القوة بالسلاح تكون باجتماع القلوب ومعاضدة الأيدى وطهارة النفوس من أوضار الحقد، عند ذلك يستند كل إلى صاحبه كما تستند الصخرة إلى الصخرة، فيتكون منهما بناء راسخ يكافح قوى الطيف على مر الزمان.

الأمم كالأفراد تثيرها القوة، فتلهو عن الحق وتستهتر بالضعيف، وتريد أن تحافظ على عظمتها فتشيد الحصون وتجهز الجنود، وإذا سئلت ماذا تقصد من وراء

هذا، أجابت بأن الاستعداد للحرب من ذرائع السلم، ثم تخونها عقيدتها المتكلفة فتتنصل بأتفه الأمور لتشعل نار الحرب، فتدفع إليها من غير حساب لعواقبها الدفاع السهم إلى الرمية. ومع أنها تعلم أن الحرب تجر الشر على الغالب والمغلوب على السواء، فإن بوارق الأمل بالانتصار تتلألأ أمام عينيها، والنصر معيار لقوة الشعب، وعليه مدار عظمتها وفخارها، على أن طبيعة القهر كمينة فى النفوس تظهرها القوة ويخفيها الضعف، والسنن الكونية لا تدافع ولا تعارض، وليس للكائنات منها مهرب، والحرب من لوازم الحياة تقتضيها سنة تنازع البقاء، وربما تهادنت عناصر الموجودات زمنا ولكنها تعود إلى الخصام، إليك الصخر الأصم تخرج ناره إذا قدح فيه، والأشجار الكثيفة فى الأحراج تحركها الرياح فتحتك فروعها بعضها ببعض وتشتعل، وجوف الأرض فى سير الأرض، وتخر من بطشه رواسى الجبال فتتناثر جزرا ووهادا. وقد يخرج البخار من شق أرضى جاذبا معه مذوب المعادن والأحجار فتتراكم وتحدث الجبال، والماء يتأثر بالشمس فيستحيل بخارا، يذهب إلى الجو صاعدا وينعقد سحابا، ثم يتكاثف وينزل إلى الأرض ماء. والحيوان يتغلب على النبات، والإنسان يسطو على الحيوان، وعلى الإنسان تتغلب عوامل الفناء فيموت، وتمتزج أشلاؤه بالتراب ويصير غذاء للنبات، وهكذا تنتقل الكائنات من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة بنظام دقيق لا يعتريه فتور ولا يصادفه خلل وهذه إرادة الله وحكمته.

تهذيب هذه الغريزة:

كل شيء فى نظر الطفل داخل فى حدود الممكنات، فإذا نال ما طلب فقد لبّى نداء غريزة التملك واستراح، وإلا فإنه يغضب فتتنبه فيه هذه الغريزة وما تنبهت إلا لتريح أعضاءه الهائجة بالصياح والعويل والتمريغ على الأرض ولطم الوجه وتمزيق الثياب، ولا يزال كذلك حتى تخمد ناره وتهدأ ثائرته. ومن ذا الذى يستطيع كتمان هذه القوة التى تنوء بحملها صدور الأقوياء، فالعين تذرف الدمع تلطيفا

لحرارة الحزن، والقلب يفزع إلى الصراخ تخفيفا لوطأة الفوادح، وهذا ما صيّر النسوة أصبر من الرجال على حمل المصائب، وما أحكم الخنساء فقد النساء الدمع عندما نكبت بوفاة أخيها فقالت:

أعيني جودا ولا تبكيا ألا تبكيا لصخر الندي

والإغضاء على بوادر الغضب أخف ضررا من قمع القوة المتهيجة، والعاقل من يقابلها بالملاينة والملاطفة والمباحثة فى أسبابها حتى يهدأ الخاطر الثائر. روى أن ابن الراوندى قال:

كم عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

فهاج لسماعها أحد الحمقى، واستفظع صدورهما من عالم دين وهم بقتله، فمضى قدما إلى مصر وقابل ابن الراوندى عرضا، وكاشفه بجلى الأمر، فرأى ابن الراوندى من الحكمة أن يتنكر، ملتمسا له عذرا فى هذا التعصب الذى هو من بلايا الجهل. ثم أخذ يستطلع رأيه فيما اعتزم عليه، ويحادثه فى شؤون الحياة المعقدة، ويطلعه على عجائب الخلاق، فى قسمة الأرزاق، ويريه العالم بائسا محروما، والجاهل منعما قرير العين مخدوما. ومازال ابن الراوندى به حتى أقنعه بصحة ما سمع من الشعر فهدأ مزاجه المضطرب.

وللجماعات حماسة يبدونها فى المواقف الدينية والوطنية تألما من شيء تستنكره، فتهيج أعصابها ويتولاها اليأس، وتسير فى السبل هاتفة صارخة. فإذا أرغمها حفاظ الأمن على التزام السكينة اعتقدت أنها صودرت فى شعورها، فيزداد ألمها، ويقودها الانفعال النفسى إلى أحرج المواقف. ولا شيء أجدى من مقابلتها باللين والحلم وسماحة الخلق. ولا علاج أنجع للغضبان من تهدئة ثائرته وتطيب خاطره.

والطفل النشيط يؤذيه الفراغ، فيتسلط على أهله، ويكدر عليهم صفاء عيشهم،

ويستنزف ما يسلبه من أموالهم. فعلى المؤدب أن يشغل فكره وقت الفراغ والعمل بالمسليات، ليحول ذلك بينه وبين تدبير الفساد

ونفس العصبيين تجيش عند الحوادث، فتسهل لهم ارتكاب الجرائم تصريفا لقوة القهر فترخص فى نظرها الحياة، حتى لقد فشا داء الانتحار يستشفى به المصاب بالآم الغيظ، فيتعاطى السم أو يهوى من المرتفعات، أو يجنى على نفسه بالحرق أو الغرق. والانتحار التدريجى أكثر فتكا، لأنه استسلام إلى الأهواء التى هى حبائل الشيطان، والتمادى يريح أعصاب العاكفين عليها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر.

لو بحثت لعلمت أن الغضب الجامح هو الداء العضال الذى يزحزح العقل عن أطواره ويزعزع أركان الجسم. وعلاجه معاملة الغضبان باللين، وتوصيته بالصبر على احتمال المكاره، وقلما أفادت النصيحة متى توافرت أسباب القوة، ولذلك توجهت عناية المربين إلى توزيع هذه القوة فى غير وجوه الضرر.

وفكروا فى المبارزة بالعصى والرمح المغمودة النصول، لتمرين اليد ودفع الخطر، وفكروا فى نظام الكشف الذى راج سوقه بين النشء للتدريب على الخشونة والشجاعة وعيشة الخلاء، استكثارا لأسباب الصحة، واستدرارا للخير واجتنابا للشر.

ما أسعد الأمم التى تضافرت أفرادها على مغالبة القوى الطبيعية، فقد ذللوا تيارات الهواء والماء واستخلصوا منها قوة عنيفة، وجمعوا كثيرا من أشعة الشمس فى بؤرة فاستحوذوا على حرارة قوية، ونجحوا فى استخدام الكهرباء والقوة البخارية، ولا يزال الفكر الإنسانى يجول فى فضاء العالم منقبا عن كنوزه المستورة وقواه الدفينة.

الفصل العشرون

غريزة التقليد

لكل حيوان استعداد خاص فى التقليد، فالقرد يوزعه استعداده أن يقلد الحركات البدنية، والببغاء يقلد النطق. وبالتقليد استعان العلماء فعلموا الطيور المغردة ما شاؤوا من النغمات، فوضعوها بحيث ترى صورتها فى مرآة، ووضعوا وراء المرآة آلة صداحة، فيخيل إلى الطائر عند عزفها أن طائرا آخر يغنى فيهم بمحاكاته. والحمام – وقد اعتاد تناول الحب الصغير حتى إنه لم يعد قادرا على ازدراد الحب الكبير ولو أضناه الجوع – يجتمع مع الحمام الذى يتغذى بالحب الكبير فيندفع إلى تقليده، وهذا هو سر تقليد النظير.

إن الإنسان فى طوره الأول قلد الطبيعة والحيوان فيما سمع ورأى وصنع، فسمى طائفة من الأفعال بأصواتها، وقد ورد بين ألفاظ اللغة العربية حفيف الشجر، وخشخشة الثوب الجديد، وقعقعة السلاح، وصلصلة الحديد، وخرير الماء، وصرير القلم، وهرير الكلب، ودق الباب، وطنين الذباب، وكذلك بين ألفاظ اللغة الانجليزية هابل بابل للنرجيلة، وتريك تراك لنرد تلد المغاور فبنى البيوت، ورأى الزنبار والهدهد يبنيان أعشاشهما فطلى بيته بالجص، ورأى الذئب يقع فى الغنم فتعلم الصيد، وقلد الليث فنسج الشباك لاصطياده، وشاهد الحبة تسقط على الأرض فتنبت وتنمو حتى تصير شجرة، فقلدها بالزراعة. وقلد زخارف الطبيعة فنقش على الخشب والحجر ما راقه من النبات والزهر والحيوان والإنسان. وقلد

تغريد البلبل فغني ، وقلد أخاه الإنسان فى الترتبل والشعر والخطابة و لملبس والصناعة وهكذا.

التقليد والحاجة إليه:

يبتدئ الطفل بالتقليد فى الشهر الرابع من عمره، ويزداد بها غراما كلما تقدمت سنه لهيامه بتعرف الموجودات التى يجهلها، وسبيله الواحدة لذلك هى جنوحه لمحاكاة النظراء، وتقليد كل ما له تأثير فى نفسه، يرى الفرس تعدو فتدفعه غريزة التقليد إلى ركوب عصاه. ويرى القطار فيجتمع مع إخوانه ويقلدونه.

ولحاستى السمع والإبصار مجال عظيم فى التقليد، لأنهما ينقلان إلى المخ أثر المحسّات ذات الوقع الحسن فيقلد بصورة طبق الأصل.

واعلم أن ضرورة الاجتماع تلجئ الإنسان إلى اقتفاء أثر سلفه ومعاشريه وتقليدهم ليحافظ على العادات القومية، وليتآزر بهم فى قضاء مصالحه.

كان عمر بن الخطاب ورعا يحب المتقشفين ، استدعى يوما أبا موسى الأشعرى ومن يليه من العمال للمثول فى حضرته، فانطلق أحدهم وهو الربيع بن زياد الحارثى إلى عمر، وسأله عما يروج عند عمر وينفق عليه، فأشار إلى خشونة العيش، فمضى ولبس جبة صوف وعمامة وخفا، وحضر بين يدى عمر فى جملة العمال. فصوب عمر نظره وصعده فلم يقع إلا عليه، فأدناه وسأله عن حاله، ثم أوصى أبا موسى الأشعرى به. فهذه الخطوة ما جاءت إلا من رائع تأثير التقليد، وقد ورد: " الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف "، وفى المثل: " لولا الوئام، لهلك الأنام ".

وإن أدنى أنواع التقليد ما حوفظ به على الأصل بدون تصرف ولا إتقان على النحو الذى يتبعه صناع الفخار فى قنا. عادة ألفتها الأمم الساذجة ووضعتها موضع الاحترام. زرت مصنعهم يوما، ولما رأى بعضهم أن الشك داخلنى فى مقدرتهم الصناعية عمد إلى طين وسألنى أن أقترح شيئا يصنعه، ثم انبرى فصنع طستا

وإبريقا يجمعان إلى دقة الصنعة رقة الذوق. ثم أعادهما إلى عجين كما كان، ولم يرد أن يدخل على ما ورثه من أسلافه شيئا خوفا عليه، كأن بدعة الصناعة من البدع الدينية التى لا يسوغ إدخال التعديل عليها.

وإذا وصفنا التقليد بأنها من دعائم الحضارة وجب علينا أن نفسر ذلك بضرورة الاطلاع على المقلد وبحثه وتمحيص أدلته، لتندفع النفس إلى تقليده بوازع صادق. والتقليد روح توثق الرابطة بين الفرع وأصله، ومن هنا نشأت محبة المحافظة على القديم. وقد تغلو الأمة فى احترام قديمها فتقتصر على ما أوصلته إليها الوراثة وتغض الطرف عن التغيير الذى تدعو إليه الطبيعة وأطوارها، فتكسد بضاعتها، وتبور صناعتها، ويسل عليها الدهر سيف الحرمان، وتبطش بها عوامل الفناء.

ومن أمثلة الجمود والغلو فى حب القديم والتحيز لمذهب " ليس فى الإمكان أبدع مما كان " ما روى أن أحد الهنود الذين يحرمون قتل الحيوان وأكله، قد باحثه عالم ألمانى وأراه بالعيان نقطة من الماء الذى يشربه تحت المنظار، فتخيلها لكبرها غديرا من الماء، وقد اكتظ بالهوام السابحة فيه، فلم يقتنع الهندى بما رأى بعينه، وسخر بقول هذا العالم، وكسر النظام إصرارا على الباطل وعنادا للحق.

وقال كمبيري: " إن طالبا تعلم فى أديار القرون الوسطى وصل إلى سمعه كشف كلف معتم فى كرة الشمس فدهش وقال: علم الله لو أنك قرأت بإمعان كتب أرسطو لوجدته وصف الشمس بأنها كوكب لا يعترى نوره ذبول. فما أبعد مسافة الخلف بين هذه الحقيقة ومزاعم المستكشفين! عليهم أن ينظفوا عدسة المنظار من أثر الغبار، ثم ينعموا النظر لعلهم يبصرون الحق جليا. أما إذا أخطأ بصرهم وشاهدوا ما شاهدوه أولا، فليعلموا أن الكلف الذى رأوه إنما هو سحابة تغشى أعينهم ". فما بال طالب العلم فى الجيل الثانى عشر من الميلاد قد تمسك بقول أرسطو نابغة القرن الرابع قبل الميلاد، ولم يحفل بتجارب ستة عشر جيلا ترقى فى غضونها العقل الإنساني، وتقدم العلم، وكشفت التجارب عن حقائق كانت

مستورة! ما باله نظر إلى المشاهد ومحصها بعقل غيره، وأهمل عقله من النظر، وعاقته الثقة بالمتقدمين عن استجلاء الحقائق، ولو كانت أعيننا تراها، والمراصد الفلكية تساعدها! أليس يدل ذلك على أنه اكتفى من البحث بالتقليد العمياء، وقضى على مواهبه، وعطلها من التنقيب.

وللمثال الحسن تأثير رائع فى تثقيف الطباع، فالطفل الذى ينشأ بين أبوين فاضلين يقلدها، ويقتبس منهما لطيف القول ودقة الذوق وحسن الصنع، وهو بعينه إذا عاشر منحطى الأخلاق سرت إليه روح العدوى من طريق التقليد. نعم للقدوة الصالحة تأثير رائع فى النفوس. ومما روى أن واشنطون رئيس الأمم المتحدة افتتنوا به، فتفتحت لهم أكمام الفتوح.

ولما قام نذير الحرب بين الممالك المتحدة وفرنسا، استعار خلفه لنفسه اسم واشنطون وجرى على سننه، فسرت فى العروق روح الحمية والإقدام، وكان النصر حليف جيشه.

التنويم المغناطيسى - الاستهواء - يوقظ غريزة التقليد من سباتها فيخضع المنوم لإرادة المنوم، ويطيعه بلا شعور، ويقلده بلا تبصر؛ وحوادث التحقيق الجنائى برأت شركاء بعض المجرمين، لأنهم كانوا عند اقتراف الجرائم مسلوبى الإرادة.

لا نريد أن يحترف المعلم مهنة الاستهواء، وإنما نريد أن يكون كبير النفس، حسن الطوية، نافذ الرأي، قدوة فى القول والفعل. ولعلك عرفت قصة الأعرابيين النجديين نابر ودابر. كان نابر صالحا تقيا، وكان دابر شريرا سمجا، فسنحت الفرص يوميا لنابر أن يركب جواده وكان عزيزا لديه، فمر فى طريقه على دابر وقد لبس ثياب الضعف والمسكنة، فلما رآه رق لحاله وترجل وطلب إليه أن يركب الجواد. وعندما تسلم دابر زمامه - وكانت نفسه تتطلع من قبل إلى استلابه - ساقه مسرعا، تاركا مالكه يتفطر فؤاده حزنا على جواده المغصوب، وجمله المسلوب؛ فناداه نابر: " ألا فاقترب منى - أيها الأخ - ولا أريد أن أشق عليك باسترداد

جوادي، غير أن عندى لك نصيحة ولا أخالك إلا عاملا بها، إنى أرجو ألا تذكر لأحد ما فعلت معي، خشية أن تشح يد الكرماء، عن بذل العطاء، إذا هم سمعوا هذه الإساءة إزاء فعل الجميل "؛ هنالك صعق دابر من هول جريرته، وندم على ما فرط منه، ورد إلى صاحبه جواده، فما أبلغ تأثير هذا الكريم، فى نفس اللئيم!

ولنا من أبى نصر الفارابى مثال حسن يدلنا على ما كان له من روعة التأثير فى عقول جلسائه. فقد نبغ فى درس اللغات حتى عرف منها أكثر من سبعين لسانا، وزاد فعرف كيف يخلب عقول الناس ويملك زمام عواطفهم بإرادة صادقة وبراعة فى إيقاع الألحان الموسيقية. حضر يوما مجلس سيف الدولة وكان المغنون يعزفون فخطأهم الفارابي، ثم اجترأ وتناول المعزف وركب عيدانه وعزف فضحك الحاضرون جميعهم، ثم ركبها تركيبا آخر وعزف بها فبكوا جميعا، ثم ركبها تركيبا ثالثا وعزف فناموا حتى البواب، ثم تركهم وانصرف.

ويدلك على حب روسو للطبيعة المجردة من زخارف الصناعة أنه كلف تلميذه أن يحاكيها بالتصوير من دون نظر إلى المبادئ التى وضعها علماء الفن. وهؤلاء يفضلون البدء بمحاكاة البسيط من الأمور كالخط المستقيم وأوضاعه وأشكاله، حتى إذا تم لك ذلك ركب منه ما شاء من بدائع الكون. وأدنى درجات الرسم ما جاء من باب المحاكاة البحتة بحيث لا يسمح للطفل أن يزيد عليه شيئا، ليختبر جولان نظره، واعتداده يجعل الصورة مطابقة الأصل، واعتماده على تمرين العين على النسب بين بعض الأجزاء وبعضها وبينها وبين الكل. وتلى تلك درجة يراد بها تمرين الحافظة والذاكرة، كأن تعرض الشكل على الطفل، حتى إذا شبعت منه نفسه لفت عنه نظره وانطلق يجمع فى رسمه ما عسى أن يكون وضعه وشكله، وهذه الدرجة تختلف باختلاف قدرة ملاحظته على ضبط المرئيات.

فى ليلة عاشوراء اعتاد الفرس أن يحتفلوا بموكب لهم فى مصر حدادا على وفاة الحسين بن علي، وفى أثناء مروري شاهدت رجلا يجول بين المارة شاخص العينين،

مستطلعا حركات الواقفين وأزياءهم، مترقبا أوضاع المشاعل التى يسير القوم فى ضوئها، وإذا هو مصور توجهت نفسه إلى درس عناصر هذا المشهد، ليفرغه فى قالب الرسم من ذاكرته.

وفوق هذه الدرجة مرتبة من أحرزها فقد برع وأصبح من كبار المصورين، وتعتمد هذه المرتبة على قدرة الخيال على تصوير المعانى وإلباسها ثوبا حسيا يوحى إلى الذوق اختيار ما يكون له حسن الوقع وعميق الأثر، فتراه يقرأ الحادثة التاريخية، ثم يرقمها على الورق برسم يشف عن معانيها، ويجمع من رموزها طرفا لا يستعصى على اللبيب فهمها. يستطيع الرسام والحفار تصوير المعانى الحقيقية والخيالية كما يستطيع الكاتب أن يصورها، غير أن الأولين يمتازان بأن لغتهما يفهمها الناس على السواء. ومن بارع الخيال الذى يتم عن الحقيقة أن نائما صحا فى صباح يوم مشرق، فاختار لهذا المعنى تمثالا نقشه على صورة صبى غائص فى نوم عميق.

وابتكر مصور مشهدا للبؤس فتخيل قافلة تسير فى الصحراء وقد اشتد المرض برجل منها فتخلف عنه. غير أن رفقاءه قبل أن يتركوه قيدوا جمله بجواره، فلم يلبث الرجل أن مات، أما الجمل فقد تقطعت أحشاؤه من ألم الجوع والعطش واشتداد الحر، وأقبلت إليه ضوارى الوحش وكواسر الطير وصارت تتدانى منه كلما لحظت فيه الضعف، والجمل المسكين ينظر إليها نظرة الخائف، ويستسلم لبطشها استسلام الضعيف، تذوب نفسه حسرات عند ما يلوى رقبته ليراقبها ولا يستطيع دفع الشر. كان تيمورلنك أعور أعرج، وكلما رأى صورته على حقيقتها استشاط غيظا وأوقع الأذى براسمها، فرسمه مصور مهيئا للصيد، جالسا على إحدى ركبتيه، مصوبا بندقيته، ناظرا إلى الهدف بعين واحدة، فكانت براعته فى اختيار هذه الفرصة من دواعى استحسان الصورة بوضعها الحقيقي.

وقد طالب معلم الإنشاء أن يقلد الطفل النماذج الأدبية بين منثور ومنظوم،

يحفظها ويستذكرها ويرتلها ويمثلها مقلدا واضعها؛ ثم ينتقل به درجة فيطالبه بتقليد معناها متصرفا فى ألفاظها وتراكيبها بنثر منظومها أو نظم منثورها. ومن مباشرة هذه المعانى وإبداء القدرة على أدائها والتصرف فيها على النهج الذى يرتضيه البلغاء ولا ينفر منه الأدباء، يحصل للخاطر موهبة، وتتربى عنده ملكة الإنشاء، وبها يسترسل فى الكتابة، وتأتى إليه المعانى متدفقة بدون تكلف.

الفصل الحادى والعشرون

غريزة المنافسة

يهوى الحيوان والإنسان منافسة الأقران للفوز عليهم، ولا يعتد بما يعانيه من المشاق فى سبيلها. فالدابة تسير وحدها وتجهدها المسافة القصيرة، حتى إذا سايرت غيرها من الدواب تحملت ما لا طاقة لها به من الجهد ونسيت آلامه رغبة فى المباراة. بيد أن أصائل الجياد لا هم لها إلا أن تنطلق كالسهم إلى الرمية سواء أسارت وحدها أم سايرت غيرها، كأنها تجرد من شخصها مناظرا تباريه على سبيل الخيال. قال المعري:

ولما لم يسابقهن شيء　　　من الحيوان سابقهن الظلالا

والطفل كثيرا ما يتفق هو وإخوانه على المباراة عدوا فى ساحة المدرسة، ثم ينسى حدود قدرته على الجرى، وينصف قوته كلها فى مبدأ الشوط، فيفتر نشاطه وتخوز قواه قبل الوصول إلى نهاية السبق. وقد تخونه نفسه فتنزله فى ميدان المباراة قبل موازنة قوته بقوة نظرائه.

وكم ينهض الإنسان وحده لإدراك أمنية تموج فى صدره ويخرج منها بصفقة المغبون، فلا يحزن على فشله حزنه إذا بارى غيره وفشل فى إدراك غرضه.

إن الله تعالى اقتضت مشيئته أن يختلف الناس فى مواهبهم وأقدارهم وأرزاقهم، فترتب على هذا التخالف تفضيل بعضهم على بعض بحكم لا محيص عنه، فكان منهم الأمير والحقير، والعالم والجاهل، والفقير والغني، والمسرف والمقتصد،

ودرجات كثيرة ومتوسطة بين هذه الأطراف، ليكمل بذلك تعمير الكون، ويخدم الناس بعضهم بعضا فى شؤون الاجتماع؛ وبغير ذلك لا يستقيم عدل، ولا تسكن ثورات، ويقع الناس فى المشاكل، لانعدام الوازع الذى يجعل للقوى سلطانا على الضعيف. وقد ورد فى الأثر: " لا تزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا ".

هؤلاء الأحرار ينازعون فى أننا نصف النابغ بصفات الفضل، ونفاخر به ونلقبه بلقب السادة العظماء، ونخلع عليه رداء النبلاء، ونزين صدره بوسام ليست له فى ذاته قيمة، وإنما قيمته فى الدلالة على ما يشير إليه من جد وأمانه وإخلاص. ولو أننا حرمنا النوابغ من ميزة يعرفون بها فهل يستطاع كتمان الفضل؟ أليست للفضائل ألسنه فصيحة ناطقة يفهمها الأذكياء؟ وأية طريقة تتبع لتسجيل هذه الفضائل فى بطون التاريخ والإشادة بذكر أربابها؟

هؤلاء الأحرار غالبوا الفطرة فغلبتهم وأنستهم العمل بما يعتقدون فأصبحت تجدهم مدعوين بالألقاب، لابسين أوشحتها، متنافسين فى التحلى بها، متطلعين إلى المزيد منها، مستنكرين على الزعانف والجبناء والبخلاء أن يقفوا فى مستوى الكبراء والشجعان والأسخياء.

رأى روسو أن المنافسة تمدح وتذم من وجهين: فتمدح لأنها تدفع إلى الجهاد فى ميدان الحياة، وتذم لأنها تحدث الجفاء والقطيعة، وتعكر صفاء الولاء بين الإخوان. والفضائل كلها أوساط بين الأطراف.

طرق روسو بـب المباراة من وجهين، مع العلم بأنه فضل التعليم الفردى على التعليم المدرسي.

أولًا : حث " إميل " على مباراة المعلم، على شرط أن يتنزل للعلم إلى درجة تزيد قليلا على الأفق المناسب للتلميذ، ولهذه الزيادة يستنهضه بالمنافسة فى أمر هو داخل فى حدود قدرته. وأنت خبير أن المبتدئ يفرح إذا رأى الفرق بينه وبين معلمه يسيرا، وينقبض يأسا، ويزيد الخيال تعسا، إذا رأى معلمه أسبق منه بمراحل، ومن

نتائج هذا اليأس توقف الذهن عن المحاكاة.

عهدنا الطفل يصمت أحيانا عن الإجابة عن سؤال يلقى عليه؛ ولعل هذه قد نشأ من خوفه التعثر فى أذيال الخطأ، عارفا غزير علم معلمه، معتقدا أنه منزه عن الغلطات كثير الحسنات. فإذا رأى معلمه أخطأ مثله، ثم عاد إلى خطئه فأصلحه، واسترشد برأى العقلاء لرتق الفتق، وتلمس موضع الصواب، أفتظن أن خوفه يعاوده؟ كلا. بل يظهر فيه مقدار كبير من الإقدام والصراحة والاجتهاد.

وثانيا : حث إميل على أن يوازن بين أعمال يومه وأمسه، متوقعا أن يكون عمل اليوم أصلح من عمل الأمس، لأنه اليوم أكبر سنا، وأغزر عقلا، وأشد مرونة وقدرة على تنفيذ الأمور، افرض أن الطفل رسم صورة ثم ألزمه المعلم بالاحتفاظ بها، ووضعها على الجدار، راقما عليها تاريخ البدء والتمام، فإنه بريء من مجموع أمثال هذه الصورة عقدا مرتبا على حسب ترتيب أزمنتها، وبالحرى مرتبا بحسب الجودة التى يجود بها تقادم الزمن والتمرين والتهذيب. ولا يكاد يطلع عليها صانعا حتى يراها متدرجة فى سلم الرقي؛ متقدمة فى طريق البراعة، بعيدة عن مخازى الحقد، وقد سبقه إلى هذا المعنى رجلان: هما أعشى همدان والمعرى قال الأول:

رأيتك أمس خير بني لؤي　　　وأنت اليوم خير منك أمس

وأنت غدا تزيد الخير ضعفا　　　كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقال الثاني:-

ينافس يومى فى أمسى تشرفا　　　وتحسدا أسحارى على الأصائل

ورأى " كانت " أن أحسن ما تكون المنافسة إذا توجهت عزيمة المتنافسين إلى الغاية دون الوسائل، فالحقد المسترذل إنما يعترض المنافس وهو سار فى طريقه إلى الغاية، فإذا قطع الطريق إليها بعيدا عن الضغينة، ناظرا إلى نور الحقائق الوضاء، فقد حمد الطريق.

وكأنى بعقلاء المؤلفين وأهل الابتداع يمدون أيديهم لمصافحة من ينقدون أعمالهم ويميزون غثها من سمينها. ونحن إذا سوَّغنا للناقد تقرير الحق حبا فى الحق، فلا نسوغ له التشهير بالزلة والطعن فى قائلها، فإنه لا يدرى كم عانى من المتاعب فى التأليف والابتداع.

التنافس لا يمكن أن يكون العنصر الأوحد للسعادة!:

والواقع أن ثمة عنصرًا من الخوف الحقيقى وإن لم يستند إلى مبرر يزيد من هموم رجل الأعمال. واعنى به الخوف مما يترتب على الخراب والإفلاس!. ولست أرتاب فى أن أكثر الناس معاناة من الفقر فى حداثتهم، هم أكثرهم جزعا من أن ينكب أبناؤهم بما نكبوا به من قبل، فهم يسعون دون هوادة إلى الاطمئنان إلى أنهم جمعوا من المال ما يقوم سياجا دون هذه النكبة.. وتشتد مثل هذه المخاوف عادة لدى الجيل الذى يصارع الفقر ويجمع المال، ولكن أثرها يقل بالنسبة للأجيال التالية التى لم يقدر لها أن تعرف الفقر المدقع. وهذه الأجيال الأخيرة لا حساب لها فى حديثنا هذا.

ولو تتبعنا أكثر متاعب الحياة فى العصر الحاضر لوجدنا أن منشأها ليس سوى الإسراف فى المنافسة والجرى وراء النجاح، كما لو كان المورد الرئيسى للسعادة!. ولست أنكر أن الشعور بالنجاح ييسر الاستمتاع بالحياة، وأن المال - إلى حد ما - قمين بأن يضاعف من السعادة، ولكنى اعتقد انه يخلق العكس إذا تجاوز ذلك الحد!.. فالنجاح لا يمكن إلا أن يكون " عنصرا من عناصر السعادة " فحسب، ومن الخطل التضحية فى سبيل إحرازه ببقية العناصر!

ومع أن النجاح ينطوى على عامل التنافس والتزاحم، إلا إننى أرى أن الجديرة بالتقدير هى المهارة التى أوجدت النجاح، لا النجاح ذاته!.. ولقد يتاح لأى عالم أن يجمع ثروة، ولكن التقدير الذى يلقاه لعلمه لن يقل فى شيء إذا هو لم يوفق إلى الثراء.. ولا عجب فى أن نجد قائدا شهيرا يعيش فى فقر، بل إن الفقر فى هذه

الظروف، قد يكون مبعث فخر له، من بعض وجهات النظر.

المال لدى الأمريكيين هو كل شيء!:

لهذه الأسباب نجد أن الصراع والتنافس من أجل المال ينحصر –في أوربا – في أوساط قد لا تكون أكثر الأوساط نفوذا أو أجدرها بالاحترام. أما في أمريكيا فإن الأمر على العكس، لا حساب فيها للخدمات التي يؤديها الفرد، بقدر ما يحسب الحساب ويقام الوزن للمال الذي جمعه هذا الفرد من " خدماته " المذكورة!..

ففي المهارة المكتسبة مثلا، تجد أن غير الأطباء لا يقدرون الطبيب بمدى معرفته للطب، وغير المحامين لا يقدرون المحامي بمدى درايته بالقوانين، وإنما يقدر أصحاب المهن بمدى دخلهم بالقياس إلى مستوى حياتهم!.. ومن جراء ذلك نجد أن صاحب المهنة الحرة في أمريكا يقلد رجال الأعمال ولا يكون لنفسه مجتمعا أو " طبقة " خاصة كما في أوربا.. ومن ثم يشعر الأمريكيون من باكورة أعمارهم بأن المال هو كل شيء، فلا يعبؤون بأي نوع من التربية يخلو من القيمة المادية..

وفي الماضي كان التعليم يعتبر – إلى حد كبير – نوعا من المران على اكتساب القدرة على الاستمتاع بالحياة. وأعني بذلك الاستمتاع بالأمور الرفيعة، المرهفة، التي لا تبين لغير المثقفين من الناس. وكان من مظاهر الوجيه أن يسرف في تذوق الأدب، والصور، والموسيقي. ولكن اليوم لا نرى هذا الرأي، بل إن الغني في أيامنا قد لا يكون مثقفا في كثير من الأحيان. فهو لا يعني قط بالاطلاع. وهو إذا اقتنى صورا فإنما يقتنيها كأداة للشهرة، ويعتمد في اختيارها على الخبراء. ولا يكون سروره بها وليد الاستمتاع بتأملها، وإنما تنحصر لذته في أن يحول دون استحواذ أحد غيره من الأغنياء عليها!. وكذلك الحال عنده بالنسبة للفنون الأخرى. فتكون النتيجة أنه لا يدري كيف يستغل فراغه.. حتى جمع المال لا يعود يشغل منه وقتا يذكر ، لأنه يسهل عادة كلما ازداد صاحبنا ثراء!.. حتى يصل في أواخر عمره إلى يوم يصيب فيه من المال ما لا يدري كيف ينفقه. وهكذا يتأتى عن نجاحه أن يجد

نفسه فى حيرة! وهو مصير لا مفر منه طالما اعتبرنا النجاح الغرض الأوحد فى الحياة.. ذلك لأن إحراز النجاح كفيل بأن يجعل المرء فى النهاية فريسة للملل والسأم، ما لم يتعلم منذ البداية ما ينبغى أن يفعله بهذا النجاح حين يحرزه!

الإسراف فى التنافس يقضى على المتع الذهنية:

وتجنح " عادة " التنافس - التى فطر عليها بعض الناس - إلى اقتحام آفاق أخرى غير ميدان العمل والتكالب على النجاح.. ولعل " القراءة " خير مثال لذلك، فإن ثمة باعثين يحفزان المرء على قراءة أى كتاب: حافز الاستمتاع بالكتاب، وحافز الزهو الكاذب به!.. وقد أصبح من مستلزمات الحياة للسيدات فى أمريكا أن يقرأن - أو يتظاهرن بقراءة - كتب معينة فى كل شهر.. فمنهن من يقرأنها بأسرها، ومنهن من يقرأن الفصل الأول منها، ومنهن من يقرأن التلخيصات التى توضع لها.. ولكنهن جميعا يحرصن على حيازة تلك الكتب!.. وهن مع ذلك لا يقرأن المؤلفات القديمة المشهورة، وإنما يقتصرن على الكتب الحديثة التى قلما تتوفر لها الميزات التى تجعلها خالدة.. وهذا كله من آثار التنافس الأعمى الذى يشقينا جميعا فى هذا العصر!

والواقع إن مما لاشك فيه أن الدراية بأطايب الأدب متعة " كانت " شائعة بين المتعلمين حتى خمسين عاما مضت - وبلغت أوجها فى " الصالونات الفرنسية " فى القرن الثامن عشر - لكنها أصبحت اليوم قاصرة على نفر قليل من الخاصة والعلماء! وهكذا هجر الناس فى هذا العصر كل المسرات الهادئة، والمسؤول الأول عن ذلك هو شيوع تلك الفلسفة الزائفة للحياة، التى توحى بأن الحياة " مباراة " أو منافسة، لا احترام فيها إلا للغالب الظافر...

وقد تسأل: وما السبب فى شيوع هذه الفلسفة الزائفة؟ والجواب أن المغالاة فى الطهر والتقوى - وفقا للمذهب البيوريتانى - قد أنشأت نوعا من الناس نمت عزائمهم فوق ما ينبغي، بينما كانت حواسهم تعانى الظمأ والجوع.. فكانت النتيجة

أن أنتج هؤلاء القوم فلسفة تعوضهم عن حرمانهم بالانكباب على العمل والانغماس فيه وبالتالى التنافس على التفوق والصراع من أجل الغلبة وبلوغ قمة النجاح!.. ولا يتنظر أن يتغير هذا الوضع قبل انقضاء مائة عام أخرى على الأقل، حين يبدأ مجتمع هذه الطبقة فى التناقص والانقراض بسبب زهد هؤلاء المتكالبين على النجاح فى إنجاب الأطفال واكتفاء أكثرهم بطفل واحد أو طفلين، لانشغالهم بأعمالهم ويجنون المنافسة من ناحية، وعدم شعورهم بمتع الحياة العائلية التى ترغبهم فى إنجاب النسل من الناحية الأخرى.. الأمر الذى سوف يقضي عليهم بالهلاك والانقراض، ليخلفهم من بعدهم قوم أكثر مرحا وابتهاجا وتذوقا للنعم البيتية فى ظلال السلام والقناعة وسكينة النفس..

والواقع أن المنافسة إذا اعتبرت أهم ما فى الحياة كانت الحياة كئيبة، ممضة، لا تعدو أن تكون توترا للعضلات، وإرهاقا للعزيمة، فى سبيل تهيئة أساس معقول لحياة جيل أو جيلين على الأكثر. فإذا تجاوزت هذا الهدف أفضت إلى تعب أعصابي، وإلى عدة مظاهر للفرار والتنفيس والانغماس فى الملذات، فى إسراف لا يقل عن العمل إرهاقا، لاسيما وقد غدت الراحة ضربا من المستحيل. ثم ينتهى الأمر إلى تلاشى القوى والعقم. وهكذا نرى أن فلسفة التنافس لا تفسد العمل وحده بسمومها، بل هى تسمم الفراغ أيضا. فإذا بهذا الفراغ القمين بأن يعيد إلى الأعصاب هدوءها يتحول إلى ملل مضجر. وهى حال تميل إلى التفاقم والاستفحال حتى تنتهى بطبيعتها إلى المخدرات، ثم الانهيار. ولا علاج لها إلا بالتزام قدر من المتعة العاقلة، الهادئة، فى حياة مثالية متزنة..

الفصل الثانى والعشرون

غريزة الفخر

التقليد يتحول إلى منافسة ، والمنافسة تتحول إلى فخر وخُيلاء ، وكلاهما ظاهر الأثر فى عالم الحيوان والإنسان. فالحصان وهو بمرأى ومسمع حصان آخر ينفخ أنفه ، ويحنى رقبته ، ويرفع ذيله ، ويمشى مشية الإعجاب والصلف ، ويصهل مشيرا إلى ما كمن فى صدره من حب الفخر.

والطاووس يدِلُ فى مشيته ، وينشر ريشه ذا اللون الزاهى مباهيا به . فتجده كالعروس يختال من فرط ما منحته الفطرة من الجمال ، ويُسمع الناس صوته لعلهم يلتفتون إليه.

يبدو الفخر من الأطفال وهم على وشك المشى وعندما يستطيعون الإعراب عما يدور بخلدهم، وحيثما يشاهدون ارتياح الناس إلى أفعالهم. سرّح نظرك فى ميولهم إذا لبسوا أجمل الثياب فى حفلات الأفراح والأعياد تجدهم يتيهون إذا رمقتهم العيون فى غدواتهم وروحاتهم، وجل أمانيهم أن يسألوا عن نوعها وثمنها وحسن هندامها ، ويسرهم الإطناب فى ذكر أوصافها ولا يأنفون من المبالغة. ومتى عادوا إلى منازلهم ولم يجدوا للفخر مجالا طووها، واكتفوا من اللبس بما يسد الحاجة

وكما تجد الطفل مطبوعا على حب الفخر ، تجد قلوب الرجال ولا سيما أولى المواهب السامية فى الخطابة والشعر والمناظرة قد أشربت محبته ، وكلمة المديح تبعث فى نفوسهم همة وإقداما وإتقانا. وقد سمع النبى ﷺ أناسا يطرون شخصا فقال:

« لقد قصمتم ظهر الرجل » لأنه إذا يسمع المديح لا يتهالك نفسه أن يستزيد من أسبابه ، وربما طاش سهم إرادته فأورده موارد الهلاك.

عرف الصحفيون الغربيون طبيعة النساء وما يهوين من أفانين التجمل والفخر ، فلم يصفوا محفلا إلا جعلوا همتهم تفصيل ما أبدعن من اللبس ، وما أفرطن من التنسيق . وأهل الترف والبذخ يقيمون المآدب ويصفون عليها أطيب المطاعم والمشارب ، ويتأنقون فى اللبس والأكل والركوب والسكنى ليجعلوا من ذكرهم أحاديث للناس ، ولا يبالون أأنفقوا فيها جميع ثروتهم ، أم طوحت بهم طوائح الديون.

ولولا الفخر ما خاض القواد سبل المنايا برباطة جأش ، ولا دأب أساطين العلم وفرسان البلاغة فى البحث والتنقيب وهو بنية النفوس ، تهجر من أجله اللذائذ ، وتضحى بكل عزيز فى سبيله.

ودائما تطمح النفس إلى الموازنة بين ما أوتيت من فضل وما ناله الخلطاء والمعاشرون ، حتى إذا شفت الموازنة عن شرف حسبها ، وعلو مكانها من العزيمة والإرادة ، وغزارة ثروتها من المال والولد ، تجد شعور الشمم يتولاها ، فلا تحيد عن الفخر قيد أنملة. والنفس الكاملة لا تندفع حينئذ فى تيار الزهو والغرور، بل تستزيد من محاكاة نماذج الفضائل التى زخرت بها تراجم العظماء ، وربما لعبت بها فواعل الغرور فسارت بها فى أودية الصلف والكبرياء ، فتنحل رابطة الوئام بينها وبين الناس ، وتبوء بالخسران.

والفخر بالمحتد ممدود عند الأمم عامة من أسمى الأقدار وكان للعرب حظ وافر منه ذلك لأن الأصل الشريف ينتقل إلى الذرية بالوراثة كما أسهبت الكلام عنه فى باب الوراثة، أو لأن الانتساب فى ذاته يهيئ الخلق لاقتفاء أثر السلف الصالح احتفاظا بسلسلة النسب الشريف. وما أغبى من يفتخر بنسبه المتصل بالأتقياء وهو يشرد عن الصلاح. فعمله حينئذ مناقض لشرف الانتماء. قال البحترى مشيرا إلى

هذا :

ولست أعتد للفتى شرفا حتى يرى فى فِعاله حسبه

وكان كعب بن زهير مولعا بالفخر بجودة شعره، حتى كان إذا أنشد شعرا قال لنفسه: « أحسنت وجاوزت حد الإحسان ».

وافتخر سيف الدولة بأنه أغزى الملوك، فقد جمع نفض الغبار الذى يتلبد عليه فى غزواته، وصنع منه لبنة، وأوصى أن يوضع خده عليها فى لحده، فأنفذوا وصيته. وغلا الأحوص فى الفخر بنفسه، فقال:

وإذا سألت عن الكرام وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

ولا تكاد تجد إنسانا أنكر صولة الفخر وما له من المكانة الشماء فى النفوس، وكتب الأدب مكتظة به وتدعو إليه إذا كانت حقا غير منتحل ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

تجد الروح السامية لا تكتفى بقيادة الجسم وتسلم زمامه وحده بل تود لو أنها احتلت الأجسام الأخر، وصرَّفتها على حسب ميولها، وحلت فيها محل التبجيل. ولا يكون ذلك إلا إذا اندمجت مصلحتها فى مصلحة النفوس، وتجردت من الأغراض الشخصية البحتة. كان أحد الأشخاص مسافرا، وبينما كان يطل من نافذة عربة القطار بصر بشخص مشرف على الغرق، فمد يده إلى حبل الخطر فشده فوقف القطار، ثم عاد فركب. هنالك أكبره الركاب، وصافحوه بيد السرور والإعجاب. فإلى صاحب هذه النفس الكبيرة تنطلق الألسنة بالشكر، وإلى أمثاله الذين ظفروا من العلم بغاية نبيل، ومن الصناعة بثمرة جليلة. وتُزين صدور التاريخ بمثل هذا المجد الأثيل، والباع الطويل، وما ظنك بعمل صالح يعمله الإنسان يبغى به كشف جهالة، أو إنهاضا من عثرة أو إيقاظا من غفلة ؟.

نعم قد يكون مصدر الفخر جمال البدن وصحته، وقد يكون بالرياسة

وبالكياسة وبالبطش وبالمال والأولاد، ولو نظر الإنسان إلى عواقب ذلك لعلم أنها عرض زائل، فمصير الجسم إلى الزوال، ومصير الصحة إلى الانحلال، والقوة إلى الضعف، والمال كالمسافر يحل ويرحل.

وما أشقى من يفتخر بشيء يرقب القضاء عليه في غده، ومن تذكر صروف الدهر وراقب تقلبات الأمور لا يطمئن له قلب، فما هي إلا كلمة القضاء حتى يتغير سعد الإنسان إلى نحس، وينتقل نعيمه إلى بؤس، وإذا قصدت إلى الفخر سبيلا فدونك العقل الكامل فهو الدعامة التي تشيد عليها جلائل الأعمال.

لو أطلق الإنسان نفسه على سجيتها ما أشفقت على البائس، ولا رحمت لوعة الفقير، بل تتبدل بالإشفاق عليه جمودا، وبالعطف إعراضا وصدودا، وبالميل جفاء، وبالحنو غلظة واعتداء. ومن عجب أنك ترى هذا الشخص عينه إذا حشر بين إخوانه يتورط إيثارا للفخر فيخرج عن طبعه، ويجود بما يزيد على وسعه، فيكون حب الفخر للخيرات وازعا، وعن الرذائل رادعا.

ولما كان الفخر محبوبا سارع إليه المفتونون بحق وبغير حق، واختلقوا الحوادث ليموهوا أنهم موسومون بالسخاء والشجاعة، واستحثوا الشعراء ليشيدوا بذكرهم، ويملؤوا الفضاء بمحامدهم، ولكن الأوهام كالضباب تتبدد إذا سطعت عليها شمس الحقيقة، ويكون حالهم كالممثلين على المسارح ينصبون أنفسهم ملوكا وأمراء يتحكمون في رقاب العالم، ومتى انتهى التمثيل رجعوا سوقة كما كانوا.

ومن أمثلة ذلك أن ابن نباتة مدح فخر الملك وزير بني بويه بقوله:

لكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين

أنخ بجنابه وانزل عليه ... على حكم الوفا وأنا الضمين

فجاء إلى فخر الملك رجل يستجديه فلم يعطه شيئا، فمضى إلى القاضي وادعى على ابن نباتة الشاعر أنه ضمين غارم، فاستمهله حتى وصل إلى فخر الملك وأخبره القصة، فسأل الرجل كم تريد؟. قال: «مائة دينار» فأعطاه إياها، ثم قال

لابن نباتة: « إذا مدحتنى فلا تعد تضمن عنى شيئا ».

وأن المتنبى سار فى البيداء فاعتدى عليه «فاتك» ولما لاذ بالفرار ذكره بقوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فاغتر بشعره الذى اعتقد صحته وكان من أمره أن تصدر لقتال خصمه ، فحاق به فخره الكاذب وأوقعه فى شرك الموت .

الفخر والطالب:

يحق للطالب أن يفتخر بتفوقه على أقرانه لأنه متفوق عليهم ، يحق له أن يفتخر بما ادخر من المال بدون تقتير ولا سفه عاقدا عزيمته على صرفه فى وجوه البر وإلا عد فخره خزيا وعارا، يحق له الفخر بالإنفاق على العجزة والبائسين تخفيفا للوعتهم وحثا لعواطف الجامدين، فإن أكثر البخلاء ينفقون المال لا حبا فى الإنفاق بل مجاراة للمحسنين ودفعا لمعرة البخل، وتسكينا لثائرة الهجائيين، يحق له الفخر بإهداء الكتب للمعاهد وبالسعى لرفع منار العلم، وبإطعام اليتامى ومعالجة المرضى.

إننا ننكر عليه أن يفرغ حديثه فى قالب الفخفخة فيؤلم عواطف معاشريه وبذلك ينحرفون عنه فيخسرهم عند مسيس الحاجة ، ويخسرون به فردا عاملا من المجموع العام ، ننكر عليه أن يحبذ نفسه بأنه نال جائزة أو شهادة، أو يضعهما فى منزل على مرأى من زائريه ، فإن شهادة الأعمال المبرورة خير وأبقى .

أيها المفتخر اجعل من عملك لسانا ناطقا صادقا ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ، افتخر بالجد والسهر للمصلحة ونصرة الضعفاء ، وخدمة الوطن وبذل الوسع فى ترقية شؤونه وإرشاد أهل الضلال.

واتبع نصيحة ابن المقفع حيث يقول :« إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك برتبة فى كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل ، فإن رفع الناس إياك

فوق المنزلة التى تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذى تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تزين هو الجمال ».

الفصل الثالث والعشرون

غريزة التملك والاقتناء

ما أبعد الحيوان عن مطامع الملك والاقتناء ، يستغنى عن اللباس يستر به جسمه، يكتفى بالنزر اليسير من الطعام الذى يجده بلا عناء ، ويرضى من السكنى بالمأوى الحقير يكمن فيه سواد الليل ، ويحفظ فيه نسله سواء أكان على فرع شجرة بعيدة المنال ، أم فى أرض جدباء لا تتطلع إليها أنظار الأعداء . فهذه المطامع القليلة لفتت نظره عن التملك فاستراح ، وعاشت أفراده فى وئام ولم يحصل بينهم من التنازع يحصل غالبا بين أفراد الإنسان.

والدنيا فى نظر البدوى ملك شائع ، ينتجع منها ما يطيب له فيها المرعى الذى يكفيه ومن يعوله قانعا من القوت بالكفاف ، فلذلك عاش هنيء البال قرير العين. ثم تسربت المطامع إلى قلب الإنسان لما زاد نسله وبرقت أمامه بوارق الحضارة ، فأصبح لا يقتصر من المسكن وغيره على ما يكفيه طول حياته ، بل أغار على جيرانه وتوسل بالطرق المشروعة وغير المشروعة إلى السرقة والاغتصاب ، ولو فكر لعلم أن الأرض تستهويه بجمالها ليملكها ، وتحثه غريزة التملك ليعمرها ، ثم تتبادلها الأيدى بالميراث والبيع جيلا بعد جيل ، حتى إنك لو أحصيت من ملكوا على التوالى قطعة صغيرة من الأرض لأعياك العد ، وتملكتك الدهشة من أن الأرض لا تزال كما كانت ، وأن ملاكها هم فى الحقيقة خدام سخرتهم هذه الغريزة لإصلاحها، وهذه من سنن الكون البديعة.

وعلى حطام الدنيا يتنازع الأصدقاء أحيانا ، ويرغب كل منهم فى أن يملكه وحده ، ولا يرضيهم أن يقسموه بينهم. فشت هذه الحال بين صغار السن وكبارها على السواء « **يشيب ابن آدم ويشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل** » . نعم إن الإنسان لا يكاد يرى شيئا طريفا حتى تجيش نفسه بحب ملكه ، مع أنه قد يكون فى حل من النظر إليه أو التمتع باستئجاره. فما سر هذا ؟. إن فى الملك معنى نفسيا تصبو إليه النفس ، هو حرية التصرف فيه بالتغيير الذى يتفق هو وذوق المالك ، والمستأجر مسلوب الحرية ، لا يتعدى الحدود التى يرسمها له المالك ليضمن سلامة العين المستأجرة ، ومع ذلك فهو مهدد بفسخ عقد الإجارة وبغير ذلك من ضروب المهانة.

يخرج الأطفال للتنزه ويسرهم تلبية مطالب هذه الغريزة بجمع ما تمتد إليه أيديهم من الصدف والأحجار ، وإذا عادوا إلى منازلهم طرحوا فى ناحية منه وقلما أعاروه التفاتا ، فليتهز الآباء هذه الفرصة السانحة ، وليفسحوا لهذه المقتنيات مكانا خاصا لينسق فيه الأبناء ما يعثرون عليه من الطرف ، فإن ترداد النظر إليها يحثهم على البحث عن فوائدها ، أما الكتب فهى كنز العلوم وخلاصة الأفكار سهر العلماء فى الحصول عليها وتدوينها ، فحق لنا أن نفاخر باقتنائها ، ونزين بها حجراتنا ، ونزيد بقراءتها معلوماتنا. ولم يكن للفقراء فيما مضى مندوحة لشرائها لغلاء ثمنها ، أما الآن وقد ذاعت الطباعة وراج سوق الكتب ورخصت أسعارها ، فحق لنا أن ننشط المؤلفين بشراء مؤلفاتهم ، وأن نحث أبناءنا على شرائها مما يقتصدونه من المال ونعرّفهم سبل الاحتفاظ بها.

وقد كانت الكتب إلى عهد قريب تعطى للتلاميذ على سبيل الإعارة ثم ترد بعد ذلك ليقرأها غيرهم.

وللمقتنيات حظ وافر من العناية عند كثير من الأمم المتمدينة ، وأمنية الرجل

منهم إذا هاجر أو ساح فى بلد أن يعود إلى منزله ويعرض فيه كل ما جمعه من المقتنيات ، ويدعو إليها زائريه ويحادثهم فى تاريخ العثور عليها. فهل لنا من مربين يحركون فينا هذا الميل ؟.

لا يكاد يخلو إنسان من شيء يقتنيه ويبالغ فى الحصول عليه. رأينا من يقتنى اللوحات الفنية التى ابتدعتها أنامل مهرة المصورين أمثال رينولد ، فقد رسم وجه ابنة أمير وهى فى طور الطفولة رسمها فى خمسة أوضاع وأفاض عليها روح الملائكة، فاجتمع من حسن تنسيقها وما أسبغ عليها من اللون مثال من الجمال له روعة كروعة الشعر ، والشعر والرسم أخوان وهما وليدا الخيال ، وقد عرضت فى لندن صورة من رسمه وهى من مقتنيات أحد الأغنياء فبلغت قيمتها ٥٢٠٠٠ جنيه.

ورأينا من أولع بالنبات يبنى له الأسقف الزجاجية ، ويتخذ لها النوافذ والمدافئ ومقاييس الحرارة ، ويهمه أن يصل منها إلى ورقة نضرة ، أو زهرة بديعة ، أو ثمرة نادرة ، يقدمها فى المعارض الزراعية دليلا على أنه أفرغ الوسع وأجاد. ورأينا من يجمع أوراق النبات المختلفة الأشكال وأنواع الأزهار ، يضغطها ويتخذ منها مجموعات لدراسة التاريخ. ورأينا من يهتم باقتناء الدواجن والطير المغرد والحيوان الوحشى والخيل والكلاب والقطط ، يراقبها ويدرس طبائعها ، ويجعلها سلوته فى زمن العطلة. ورأينا من يجمع الصور التذكارية التى تمثل الإنسان فى أطواره المختلفة، ويؤلفها تأليفا يصح أن يسعى ديوان الهيئة الإنسانية. ولم تصل الأمم الحية إلى هذه الدرجة إلا بفضل التعليم ، فقد عنى المربون بمراقبة أذواق المتعلمين وميولهم ، وأيقظوا الشعور الغريزى الكامن منذ الصغر حتى نما وصار ملكه يعوّل عليها فى تقدير الحسن ، وتمييز الجمال ، وتدقيق النظر إلى كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تدل على بارئها بجميل صنعها. ونحن إذا دخلنا بستانا فأيسر شيء

نراه فيه صنوف الورد والزهر ، ونندهش من حسن أوضاعها وذكاء ريحها وبهاء لونها ، ونود لو أنها تبقى على حالها طويلا لتزداد حواسنا بها تمتعا ، وهذا هو السر فى أن صورها فى شكلها الصناعى أغلى منها فى شكلها الطبيعى ، إذ لا يستطيع المصور البارع أن يخرج لنا هذه الصورة طبق الأصل إلا بعد إمعان طويل فى دقائق القدرة الإلهية وعناء كبير فى سبيل المحاكاة.

الفصل الرابع والعشرون

غريزتا الحل والربط

إن الطفل لا يفهم ما يحيط به من الكائنات إلا بمعونة الآباء والمعلمين ، وهم فى الواقع لا يستطيعون سبر غور ميوله إلا بعد زمن طويل ، فوجب عليهم أن يفوضوا إليه استجلاء الحقائق واختبار الأمور بما ركز فى جبلته من غريزتى الحل والربط. يتناول الصورة مثلا فيرتاح إلى النظرة الأولى إليها لغرابتها ، ثم يصيرها الاستعمال مبتذلة لولا ما يدخله فيها من التغيير، ولا نعجب إذا رأيناه يعبث بها لعله يصل إلى تغيير مناسب يؤثر فيه التأثير الرائع. يأخذ اللعبة ولا يكاد يمضى اليوم حتى يكسرها . يمسك الساعة فتدهشه دقاتها ، ويحاول فتح غطائها ليقف على السر المكنون فى باطنها ، وإذا أعياه ذلك كسرها لا حبا فى الإتلاف كما وهم المخطئون ، بل طموحا إلى علم تجريبى يطفئ به أوار ظمئه.

ومما يدل على أن الطفل مولع بالتركيب أنه ينبرى لصنع طيارة مثلا إذا اجتمع عنده الخيزران والورق ، وينبرى لصنع الكيس إذا توافرت لديه القصاصات ، ويقيم البيت مما يقع فى يده من الأشياء . وقد تحرك هذا الميل فى صدرى وأنا صغير، وانتهزت فرصة فراغى وصنعت مما كنت أجمعه من المواد عجلة تدور بمحرك ، وكان شوقى إلى إتمامها وتنفيذ ما دار بخلدى من أمرها يحملانى على مقاساة التعب بدون شعور.

على الحل والربط عماد اللغات ، لاحتياجنا فى منشآتنا إلى مفردات صحيحة

فصيحة نستعيرها من أساليب البلغاء ، نحلها ثم نصوغها صوغا جديدا يعرب عما يدور بخلدنا من المعانى ، ونسدل عليه ثوب التأثير .

ويعول علماء الأعضاء على هاتين الغريزتين فيتنافسون فى تشريح الحيوان الحى وتجريده من أجزاء مخه ومراقبة حركاته لعلهم يدرسون علاقتها بالمدركات . وقد توسعوا فعرضوا على من سئم الحياة أموالا طائلة ليسمح لهم أن يجروا التجارب فى جسمه فى أثناء حياته ، فيعرفوا كيف تؤدى أعضاؤه الباطنية وظائفها.

وعلى الجملة لا يستطيع مبدع أن يجول على بصيرة فى ميادين الأعمال بدون أن يتخذ من هاتين الغريزتين رائدا له. ونحن إذا خفنا عبث الطفل بأثاث منازلنا ، وأغلقنا أمامه أبواب التجارب التى يستفيد منها العلم الصحيح بما يحيط به أمنا الخطر طبعا ، غير أنه ينمو فاتر القوى جامد الذهن ، ضعيف الإرادة.

ومن أجل ذلك فكر المربى «فرويل» فصنع لعبا تقبل الفك والربط ، يتناولها الطفل ويصوغ منها أوضاعا يبتدعها. ولبعضهم نماذج مصنوعة من الخشب وشى ظاهرها بصور رائعة يفكها الطفل ، ثم يهيم شوقا بإعادتها كما كانت ، ودليله على ذلك أن تبدو تلك الصور بشكلها الأصلى ، ويتولى بنفسه تركيبها ، ولاستحالة قيام بعض أجزائها مقام بعض لابد أن يصل إلى وضعها الذى كانت عليه طال به الزمن أو قصر ، وعجينة الصلصال الشائعة الآن فى المدارس أداة وضعت لهذه الغاية ، تسهل على الطفل محاكاة النماذج وتقويم اعوجاج مصنوعاته بنفسه.

الفصل الخامس والعشرون

غريزة الاستطلاع

تدل المشاهدات على أن النمل يتخذ كشافة لجيشه لترشده إلى خبايا الأمور.

ومما لا جدال فيه أن نفس الطفل كثيرة التطلع إلى الأشياء. فالرضيع إذا قربت إصبعك من فمه تعلق به عسى أن يكون ثدى أمه ، ويبكى ليستطلع حنو أمه عليه . والأم الواقفة على سر هذه الغريزة إذا رأت طفلها يتحبب لنيل غرض معين لا تقرب منه هذا الغرض ، وإنما تحمل الطفل إليه ليقترب هو منه ، وتكرار هذا يعوّد الطفل السعى إلى مرغوبه . نطرق أبواب أصحابنا فنسأل الطفل الذى يقابلنا : هل والداك فى المنزل ؟ فلا يجيب عن سؤالنا بل يُلقى إلينا سؤالا مثله : متى جئت من السفر؟. وهل اشتريت لى لعبة ؟. وهل شاهدت ما اقتنيته ؟. إلخ. فتحت يوما كيسا أمام ابن لى يناهز الرابعة من عمره فقال : هل تعطينى جنيها ؟. ولما رآه أمامه لم ينتظر الجواب ، بل وجّه سؤالا آخر : من أين أتيت ؟. وهكذا اطردت أسئلته بنظام يدل على أن نفسه جوالة مستطلعة.

والطفل عندما تؤثر فيه روعة الطبيعة يشرئب إليها فيسأل جلساءه أسئلة غامضة رغبة فى كشف غموضها : لماذا تشرق الشمس ؟ كيف تهب الرياح؟. كيف يستحيل الحب شجرا ؟ فما أصبر الحكماء على الإجابة عنها ، لأنها عماد الحقيقة فى ذهنه ، ومسبار يعرفون به غور ذكائه . ونبراس يهتدون به إلى معرفة إرادته. أما الجهلاء فينفرون من سماعها ، وينكرون عليه عرضها ، وربما أساؤوا إليه سترا

لجهلهم، ويكون حرمانه الإجابة قاضيا على ما عنده من رمق، فتنطفىء فيه جمرة النبوغ وسرعان ما تخمد.

رأيت بعض الصبيان يطرقون أبواب المنازل فى غفلة أصحابها، ثم يهربون ويقفون بعيدا يستطلعون أمرا يتوقعونه من الساكنين، ونرى الناس مكتظين فى الطرق فتتساءل عن السبب، وربما لا يكون المسؤول أعلم به من السائل. نعم قد يتجاهل الإنسان فيسأل الناس عن أسباب الأمور ونتائجها وهو عارف بها، ليقف على ما عندهم من ذكاء وعلم كما كان يفعل سقراط.

ويبلغ الاستطلاع غايته عند قائد الجيش الذى يتأثر عدوه، وعند العالم المدقق والكاتب والحاسب وعند القاضى لتحرى جانب الصدق متى تجهمت الأمور وتلاطمت أمواج المنازعات، وعند السياسى الذى يمارس الطبائع، ويقيس حاضر الأمة ومستقبلها بماضيها، وعند المعلم الذى يتفقد الميول ويساير الملكات الذهنية، ولكل شخص ميزة فطرية لو استطلعها المعلم وسار بها فى طريق الكمال لمهدت لصاحبها سبيل النبوغ، ومن غفل عنها لحقه الفشل لا محالة.

بحكم هذه الغريزة يتسرع الطلاب، فيسألون المعلم عن أمر لم يتمم تمحيصه وينقدونه قبل استيعابه، وقبل معرفة أسبابه لأن حب الاستطلاع كالبخار يجيش به صدر المشتاق إلى تعرف الحقائق، ولذلك تراه وهو فى مضمار البحث والتنقيب لاهيا عن نفسه، متحملا آلام المشقة. لعلك سمعت وصف الموكب الملكى الذى أعد لتشييع جنازة إدوارد السابع ملك الإنجليز وما أحاط بها من مظاهر الأبهة والجلال، تسير فيها الجند من أقطاب المعمورة وبينهم الملوك حملة التيجان، والأمراء والأعيان؟. ذهب بعض أصحابى إلى لندن مبكرين إلى حيث تسنى لهم رؤيتها، ووقفوا على أقدامهم زهاء إحدى عشرة ساعة، والناس من حولهم يموجون حتى انسدت بهم المنافذ على اتساعها، وشق عليهم أن يتحركوا أو يستريحوا أو يأكلوا أو يتنفسوا، صبروا على ألوان العذاب لتكتحل أبصارهم برؤية

هذا الموكب البديع، وليستطلعوا جهد الحكومة فى ترتيبه وتنسيقه، فصارت نار نفوسهم المضطربة بردا وسلاما.

قال معلم لتلاميذه وهو يستطلع جولان أفكارهم : رأيت طفلا محموما اختلط بإخوانه فأعداهم، اذكروا لى أمثلة تشبه ذلك . فأجاب أحدهم بأن عينه رمدت فأصاب الرمد عينه الأخرى، وأن طفلا حصب فأعدى الأطفال المختلطين به، وهكذا عرضوا من الأمثلة ما يفيد أن عدوى المرض تنتقل من عضو إلى آخر، ومن جسم إلى آخر، كما تنتقل الحرارة فى أجزاء قضيب أحمى طرفه، وفهموا أن الذرات السابحة فى الجو تخرج من المريض فتصيب السليم، وأن الذباب يتهافت على المرضى وعلى الأقذار فيحمل بأرجله جراثيم المرض ويلقح بها الأصحاء، وخليق بمن يريد الاحتفاظ بصحته ألا يسكن الأحياء القذرة.

وللاستطلاع شروط تجب مراعاتها لجنى ثمراته وهى : التمكن من الفهم قبل السؤال والانتقاد، اللهم إلا إذا عرضت فى أثناء ذلك البحث شكوك تعكر صفاء الحقيقة. فإذا كان هذا فأنصح للمعلم ألا يجيب السائل أو الناقد نصا، بل يحيله إلى سابق علمه، ويطالبه بإجالة فكره، أو يحثه على مراجعة رفقائه، أو على الاطلاع على أبواب يقرؤها من كتاب، كذلك يلقى المعلم على مسمع تلاميذه حكاية تنم عن خلال محمودة، ويستطلع مبلغ حلهم لعناصرها، أو يعرض مصورا على مرأى منهم، ثم يستره عنهم ويستفسرهم مشتملاته كما وشكلا ولونا، وكذلك يحاورهم فى غرض معين وينبههم على التوسع فيه بمراجعة كتب يسميها ويستحث همتهم على تمحيصه والاستدلال عليه وذكر ما فيه من ضعف وقوة، وأخيرا يلقى عليهم قضايا العلوم، ويطالبهم بتأييدها بالبراهين، أو يكلفهم حل المسائل وتطبيق ذلك على ما درسوه.

الفصل السادس والعشرون

غريزة اللعب

الجد واللعب مظهران للحياة، فإذا نهضنا إلى إدراك غرض وشغلتنا الغاية عن الالتذاذ بالحركة وما يصادفنا فى غضونها من التمتع بالمشاهد الجميلة والمسموعات الرائعة عددنا هذه الحركة جدا، وإذا تلمسنا الحركة وجعلناها لنا غرضا ولم نتطلع إلى شيء، وراءها طال بنا الزمن فيها أو قصر عددنا هذه الحركة لهوا ولعبا.

يحس الفرق بين الجد واللعب من يحبس فكره منقبا عن أمر، مدليا بالحجة على صحة قضيته، أو موازنا بين أمر ونظيره، فالذهن حينئذ لا يرتاح إليه ارتياحه إلى لذة السمر والتنقل فى الحديث لأدنى ملابسة.

حقق سبنسر أن اللعب من مستلزمات الحياة، تخرج منه القوة الزائدة عل الحاجة، كما يخرج بخار المراجل المستغنى عنه. وحقق غيره أن اللعب منزع يرشد المعلم إلى معرفة الميول النفسية الكامنة، فما أحقه موضوعا للدراسة، أرأيت الأطفال وقد خطر بفكرهم محاكاة القطار فانطلقوا يعدون وقد أمسك كل منهم ذيل ثوب صاحبه ؟. أرأيتهم وقد حاكوا الحصان والسائق ونفس كل منهم مولعة بالبراعة فى التمثيل، تجدهم أحيانا يتناوبون الأمر بين رئيس ومرؤوس، ليجرب كل منهم مطامعه وهمته عند اختلاف المواقف، وأحيانا يجمد كل منهم ويصبح أكثر التصاقا بما اختاره أولا، فلا يفكر من يمثل الحصان أن يطلب الوقوف فى مكان صاحبه، ولا يفكر من يمثل السائق أن يتنزل عن موقفه، كأن نفس الثانى قد

طمحت إلى العظمة والاستئثار ، وكأن نفس الأول قد ركزت فيها أصول المذلة والصغار. فحركات هاتين النفسين يميزها الحكيم ويتنبأ عن مستقبلهما بالحظ السعيد والحظ التعيس.

وهل رأيت الطفلة تطوى ملابسها ، وتتخذ منها مثل العروس ، تسميها وتلبسها ما جمعته من الثياب ، وتحملها على كتفها ، وتجلسها على حجرها وتناغيها ، وتعطف عليها عطف الأم على رضيعها. تفعل الطفلة هذا مع أنها ربما لا ترى من أمها مثل هذا العطف والحنان ، ذلك لأنها مدفوعة بدافع غريزة اللعب والعطف الأموى.

أطوار اللعب:

١ - **الطور الأول** : وهو طور الطفولة ينتهى إلى السنة السادسة ، والطفل حينئذ يسد باللعب مطامعه الذاتية ولو حصل منها إيلام المعاشرين ، فيكثر من الثرثرة والاضطراب والبكاء والنحيب والعويل والضحك والقهقهة والغناء . وإذا قيل له:« ابتعد عن فعل ما يتأذى منه غيرك » ثار غضبه وعمل على نقيض ما يُطلب منه، وأدخله العناد فى ميادين التصنع والمكر.

يجدر بالمعلمين أن يراقبوا الأطفال وهم فى هذا الطور فيُسعدهم ويُسعدوا أنفسهم بما يقتبسون من الفوائد كما كان يفعل الأحنف بن قيس والغزالى وروسو ويستالونزى ، فإنهم كانوا يستفيدون من ممارسة تعليم الأطفال ما لا يستفيدون من الكتب.

رأيت أبنائى يختلفون إلى ساحة المنزل ، ويجلسون فيها على هضبة رمل ويتقاسمون العمل فيصنعون بيتا وينسقون التماثيل أمامه لمحاكاة المثال الذى أثر فى نفوسهم ، هذا وأمثاله هو شأن الأطفال يساقون بدافع الفطرة إلى إبراز ما يموج فى عقولهم من الخواطر ويودون لو يطول بهم الأمد ليزيدوا عملهم تنسيقا وإتقانا.

٢ - **الطور الثانى** : وهو بين السابعة والثانية عشرة ، والطفل يتعلم فى هذا

تلك الحركات التى تقوى الدورة الدموية والعضلات كالتجديف والجرى والمصارعة ، وحمل الأثقال ، ويتعلم من الحركات ما ينمى ملكة التنقيب ويصقل الفراسة ويشحذ الكياسة ، كلعبة الاختفاء والبحث المنتشرة بين صبيان مصر وعند كثير من الشعوب ، حاكوا بها الإنسان فى عهده الأول الذى اعتاد فيه الصيد ، وحمى نفسه من بطش الوحش.

الفصل السابع والعشرون

غريزة الطرب من الغناء

الغناء كاللعب معدود من مظاهر الحركة البدنية، يحدث من اهتزاز أوتار الحلق اهتزازا يخرج الصوت خفيفا وشديدا، مرتفعا ومنخفضا بحال تعرف بالنغم والتلحين. والناس يتفاوتون فى مبلغ التأثر به، ولذلك تجد البارعين فى الغناء يطوفون على ضروب الأنغام، وينوعون استعمالها، ويرجعونها لعلها تهز الأريحية، وتضرب على الوتر الحساس الذى يطرب النفوس.

وما ذا عسى أن يدل على تغريد الطائر وهو فى أعماق قفصه؟ أهو يشكو السآمة من وحشة الحبس؟ أم يسرى به تباريح الحزن؟ أم يصدح فرحا لأن العادة أنسته حاله الأولى، وجعلت له من القفص موطنا مقبولا؟

قال المعرّي:

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميــــاد

والغناء يؤثر فى النفس أضعاف تأثيره فى نفس السامع، فيلهيه عن طعامه وشرابه وسائر لذاته.

نقل المبرد عن عمر الوادى أنه قال: " أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى أعالى الجبال من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لأتوصلن إليه ولو بذهاب نفسي، فانحدرت إليه فإذا عبد أسود، فقلت له: أعد على ما سمعت.

فقال لي: سمعا وطاعا

ثم انبرى يغنيني :

وكنت إذا ما زرت سعدى بأرضها

أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها

إلى آخر ما أنشد. قال عمر: فحفظته عنه ثم تغنيت به على الحال التى وصفها هو كما ذكر.

تأثير الغناء فى الإنسان والحيوان:

إن الحيوان كالإنسان يطرب من الغناء، فالقردة والدببة والفيلة والهوام تهتز عند سماعه هزا يدل على ارتياح واطمئنان. فقد روى أن من أفاعى الهند هامَّة كثيرة الفتك بالسكان يسمونها الكبرى، تعد ضحاياها بالآلاف كل سنة، وهى مع شدة جموحها وعدوانها يذللها الغناء. فإذا سمعته وهى فى أعماق أحجارها تخرج متهادية، ثم تنصب رقبتها نحو المغني، وتهتز على رنين النغمات، وتنحدر فيها أعصاب الحذر فتستسلم للصيادين.

وزنوج السودان يتهافتون على صوت الغناء، آتين إليه من كل حدب، عاقدين له حفلات الرقص، رافعين عقيرتهم من شدة تأثيره فى أمزجتهم.

والطفل الرضيع يحزنه الحزن، وتخنقه العبرة، ويبرح به البكاء تغنيه أمه " نم يا حبيبى بسلام " فيهدأ مضطرب مزاجه، وينام آمنا مستريحا، ذلك لأن نفثات الغناء كالسحر تشجيه وتنسيه أحزانه.

والعمال يطول بهم زمن العناء البدنى فيستأنسون بالغناء ويزدادون به قوة وإقداما ونشاطا ، وقد يلهى الغناء أرباب المهن عن مزاولتها، قال لص عن نفسه: دخلت ذات ليلة فى ملهى موسيقى لأترقب فرصة للسرقة، ولما ارتفع صوت الغناء المشجى غاب صوابى وألهانى الإنصات له عن مزاولة مهنتي، فخرجت من

الملهى مملوء الأذنين، صفر اليدين.

وللأمم فى فضل الغناء حكايات متداولة ربما عزاها السامع إلى مبالغة الخيال، وليس بكثير على لغة العواطف أن تسيطر على النفوس وتفعل بها فعل السحر.

قيل: إن مدينة هملين فى ألمانيا كانت تموج بالفئران من صنوف شتى، تعيث فى الأرض وتشارك السكان فى أرزاقهم، وتكدر عليهم صفاء عيشهم، وتبدد متاعهم. إذا جلسوا مجالس الأنس هالهم دبيبها فبدلوا بالأنس وحشة، وإذا ناموا أوجعهم طيفها فى أحلامهم، وإذا قدمت لهم الموائد أقاموا عليها الحراس تقيهم فتكاتها، وترد عنهم هجماتها، وربما خافوها فولوا مذعورين، وخرجوا على وجوهم هائمين، ودائما كانت دهشتهم منها ملء قلوبهم وحديث سمرهم. وما سمعوا علاجا لإبادة الفيران إلا جربوه، ولا عرفوا فخا إلا نصبوه؛ وقلما صادوا منها شيئا يذكر. فاجتمع مندوبوهم ليتفاوضوا فى أنجح الوسائل لإبادتها، واستئصال شأفتها. وبينما هم يطرحون الآراء، إذا شيخ أشيب طويل القامة نحيف الجسم بش الوجه غريب الزى وعلى عنقه مزمار، أقبل وعرض عليهم أن يزيل عنهم هذه الغمة إذا وعدوه بالمكافأة، فأطمعوه فى الأجر إذا نجحت حيلته، ومنوه بصداقتهم متى تحققت بشارته.

فخرج الرجل من فوره إلى الشارع، وأخذ يعزف بلحن مشج، فما لبثت الفئران أن خرجت من مخابئها مسحورة لا لتلوى إلا على صوته. وكلما مر بشارع خرجت أسراب فئرانه تتنافس وثوبا وقفزا فى اللحاق به. فسار الرجل ووراءه منها جيش عرمرم إلى أن وصل إلى النهر وهنالك أغرقها.

ذاع هذا الخبر فطار السكان فرحا به، وتبادلوا فيما بينهم عبارات الشكر لله تعالى على تطهير المدينة من أوضار عدوهم اللدود. ولما قضى الرجل مهمته عاد إليهم مستنجزا وعدهم، فوجموا وهزئوا بقوله وغمطوا حقه، فاستشاط غضبا وعمد إلى الانتقام، فخرج مسرعا وتناول مزماره وأخذ يعزف بلحن بديع، فما سمعه إنسان

حتى اقترب منه وسار معه، فتبعه الأطفال والصبيان والشبان والشيب والكهول وعلى وجوهم سيماء الفرح والاستبشار، فما علموا حتى جاوز بهم حدود المدينة، وتغلغل فى مجاهل قاحلة، وفر منهم كأنما راكب جناحى نعامة، وتركهم فتاهوا، وانقطعت عن أهلهم أخبارهم. فقدر كيف تكون براعة هذا الرجل فى التأثير بالغناء الذى تصبو إليه على السواء نفس الحيوان والإنسان.

وإذا انتقلنا إلى أسمى مراتب الإنسان، وتفقدنا الفلاسفة وقادة الأفكار وتحرينا ميولهم وجدناها تصبو إلى الغناء بدرجة ليس وراءها مزيد. قيل عن معاوية: إنه رافق عمرو بن العاص، وتوجّها إلى عبد الله بن جعفر ليعيبا عليه جلوسه فى مجلس الغناء. وعندما أنصت معاوية إلى تلحين الغناء سرت فيه نشوة الطرب، فأخذ يحرك يديه ورجليه يضرب بها وجه السرير الذى كان جالسا عليه، فقال له عمرو: اتئد يا أمير المؤمنين، فإن الذى جئت لتلقاه أحسن منك حالا وأقل حركة. فقال له معاوية: اسكت لا أبالك فإن كل كريم طروب. وكذلك حضر الرشيد حفل غناء فسمع إبراهيم بن المهدى يغنى بأبيات لمروان أبى حفصة:

طرقتك زائرة فحى خيالها	زهراء تخلط بالجمال دلالها
هل تطمسون من السماء نجومها	بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم	جبريل بلغها النبى فقالها

فطرب الرشيد حتى صار شدة نشوته يقوم ويقعد.

وعلى الجملة فالناس بطبيعتهم يطربون بالغناء لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، حضريهم وبدويهم، عالمهم وجاهلهم، وربما كانت نفوس المفكرين أشوق لسماعة، وأشد تعطشا لإيقاعه، لاحتياجهم إلى ما يسرى عنهم الهموم، ويذهب عنهم عناء التفكير. وماذا عسى أن نقول فى الغناء وهو التيار الروحانى ينبعث فيصيب القلوب، ويملك قيادها قسرا، ويستخف بالجسم، فتثور الأعضاء، ويضطرب

الجنان ويهتف اللسان، ويهلل ويكبر، ويستعيد ويزيد. وهذه الانفعالات نتيجة انبساط الأعضاء وسريان الدم فيها سريان يزيد حركة النفس زيادة مقبولة كما حققته تجارب الحكماء. وبهذه الزيادة يكون انتعاش الجسم وانشراح الصدر. قال حكيم يوما لتلميذه وقد عزفت الموسيقي: أفهمت؟ قال: نعم. قال له: بل لم تفهم، لأنى لا أرى فيك سرور الفهم. وقد استعان به الأطباء لمعالجة الأمراض العصبية، واستعان به النفسيون لتذليل الخواطر الأبية. فإذا كان هذا هو حال الغناء وحده، فما ظنك به إذا شارك الشعر وامتزج به؟ وللشعر كالغناء ترنيم وتنسيق وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب، واجتماعها معا يوقظ التدبر والتفكر لتقدير المعانى التى يحويها الشعر فى أغراض الغزل والحماسة والفخر والتسلية والشوق والزهد والرثاء والأسف والمدح والوصف.

ما أحلى وقع الغناء على النفس إذا لحن المغنى هذه الأبيات!

وأقسم ما أدنيت كفى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلي

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلي

وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

تاريخ الغناء:

ولو نقبت عن تاريخ الغناء وما له من الأثر السامى فى إحياء العواطف ما وجدت أمة خاضت غمار الحياة السعيدة بدونه. وإذا كانت متاعب الحياة تفل عزم النفس فإن سرور الغناء يشحذها ويعيد إليها حدتها الأولي. به كانت ملوك الفرس تلهى المحزون وتعلل المريض وتشغله عن التفكير فى مصائبه. وقديما أبدع الإغريق فى صناعته أيما إبداع، وتوسلوا به فى قضاء الحوائج، حتى كان إذا دب الخلاف بينهم استدعوا زعماءها إلى حفلة الغناء، وأسمعوهم النصائح بلسان الغناء والموسيقى فيلين طباعهم، ويكبح جماحهم. وكذلك عول عليه العرب فى مهام

أمورهم، فكانوا إذا استصرخوا للحرب خرج نساؤهم مغنيات، يستنهضن الرجال للذود عن الحريم والوطن. فينسى الجندى نفسه عند سماع نبراته، ويحمل على العدو معرضا حياته للخطر، والحياة أعز شيء للإنسان ؛

إذا ترنم شاد للجبان به   لاقى المنايا بلا خوف ولا فرق

ناهيك بالعصر العباسى الذى ازدهى بجمال الشعر وروائع الغناء، فاحتفى به الخلفاء، وأسدوا الجوائز إلى المجيدين فيه، صبت إليه نفوس العامة والخاصة بعد أن هدأت الخواطر من أنباء الغزو، وبعد أن شبعت من ثمار الفتح، ورفرفت عليها ظلال الحضارة، فاتخذت من لسانه ترجمانا يعرب عن أغراضها. كان العباس بن الأحنف ينظم الشعر الرصين، وكان أبو إسحاق إبراهيم الموصلى يغنيه فى حضرة الرشيد فينصت إليه، ويقبل عليه، ويهتدى بهديه. وكان الغناء إذ ذاك مفزع الأمة تلجأ إليه عند الحادث الجلل لتثير به سورة الغضب استعدادا للمهاجمة. ولما هموا بالوقيعة بين الرشيد والبرامكة أسمعوه بلسان قول قينة عمر بن أبى ربيعة:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحـــدة   إنما العاجز من لا يستبد

فانحرف الرشيد عنهم كأن لم يكن بينه وبينهم ولاء، ولم يقبل فيهم قول شفيع، وزج بهم إلى أعماق السجون.

وكما خيل إلى " ترتينى " أنه سمع غناء الشيطان فى الحلم بما قصصته فى باب الخيال، خيل إلى أبى إسحاق الموصلى أنه سمع غناء الشيطان فى اليقظة، ذلك أنه خرج فى ليلة ممطرة يتحسس عن مغن يشاركه فى إحياء حفلة، فقابله ضرير استدعاه إلى منزله، ثم شرع أبو إسحاق يغنى معجبا بصوته فاستخف به الضرير، وقال له: لقد قاربت أن تكون مغنيا، وتناول العود فجسه، وضرب على أوتار فى نغمة ليس لأبى إسحاق عهد بسماعها، فدهش مما سمع، ولما خرج الأعمى ودعه أبو إسحاق فإذا هو قد غاب، ولم يدر أفى السماء صعد، أم فى الأرض هبط، فخيل

إلى أبي إسحاق أن هذا الضرير شيطان تنكر له فى هذه الصورة لينزله من عالى غلوائه.

وربما اشترك المغنون والعازفون، واستعملوا من آلات العزف العود والقانون والقيثارة والرق والناي، فيخرج من صوتها مزيج ذو نبرات بديعة تفعل فى النفس فعل السحر الحلال. ولم يكن الغناء مقصورا على مجالس اللهو، بل اتسع له المجال كذلك فى مجالس العبادة منذ زمن داود ﷺ. ومنه استعير نوع من الترتيل فى المساجد والكنائس، وتصدى له قراء القرآن بالإجادة، فاجتذبوا به المسامع، وشنفوها بحكمه وأحكامه، وقد ورد " زينوا القرآن بأصواتكم "

كان الإغريق أشد الأمم اعتدادا بالغناء واهتماما به فى المدارس، مرنوا عليه الأطفال منذ الصغر، فعودوهم النفخ فى الناى والضرب على الأوتار. وكان فرويل يتنزل إلى مستوى الصبيان ليتعرف ميولهم وما يتشوقون إليه. مر يوما بامرأة على إحدى ذراعيها غلام، ورآها تتقدم به إلى دجاجة، وظلت تحاكى صوتها، وتحرك أصابعها لتدعوها إليه، فما لبث الطفل أن حاكاها بأصابعه وصوته، فكان لهذا المشهد تأثير رائع فى نفس فرويل حبب إليه نظم النشيد، فألف منه ما سماه " دعوة الدجاج "، وهكذا ظل يترقب الفرص، وينظم الأشعار الرصينة الجزلة، فى الحفلات الدقيقة البديعة. فإذا تاق الطفل إلى صنع طيارة مثلا، فقد حان الوقت لسماع النشيد الملحن فى هذا المعني. وإذا تاقت نفسه إلى مداعبة القط أو إلى الإعجاب بالحمام وقد بهره بهاء ريشه وخفه حركاته ورائع غنائه، فقد استعد للإنصات لنشيد يجمع هذه الأغراض، وحينئذ تطمح نفسه إلى تزييل النشيد فى وقت تتوق فيه إلى التهذيب والتثقيف.

يجعل بنا أن نحبب إلى الأطفال ترتيل الأناشيد فى أثناء اللعب، فإن اجتماعها معا ينشط الجسم، وينعش الروح، ويبرز الشعر فى أجمل حلة، ويقوم فيهم آلة النطق، ويذهب عنهم سآمة القراءة المجردة من رخامة الصوت. نريد أن ندخل تدريس

الغناء فى مناهج مدارسنا لنعيد ما درس من صناعة أسلافنا، ولنستخدم قوته الروحانية فى تذليل مصاعب الحياة، فإن نفوسنا كثيرا ما تعروها السآمة فتحتاج إلى ما ينبهها. ونحن إذا أدركنا هذه الغاية فقد حقق لنا أن نجرد سيف عزيمتنا لمحاربة الوصمة التى دهمت الغناء، فقد تناوله أهل البطالة، واتخذوه ذريعة لرواج الخلاعة والمجون والهزل وسخيف النطق، فشوهوا اللغة العربية واستعاضوا عن ألفاظها الشريفة تراكيب أجنبية لا ضرورة لها. ولا سبيل لتعويد المسامع ما نرغب فيه من رواج الألفاظ الفذة والتراكيب الجزلة إلا بجودة الترتيل وحسن الغناء. فليمد الأدباء والمغنون أيديهم للأخذ بناصرها، فالآمال معقودة بمساعدتهم.

لكن مهما تعددت النبرات الموسيقية فإننا لا ننكر أنها تمس أوتار القلوب وتعزف أغنية الحب الجميلة نرقص لها طربا، ونهتز لها فى نشوة ومرح وسرور ناسيين همومنا وأحزاننا.

الفصل الثامن والعشرون

غريزة الادخار

تتجلى هذه الغريزة فى صنفين من الحيوان وهما: النحل والنمل؛ فالنحل يصنع خلاياه من الشمع ويدخر فيها العسل مما يقطفه من رحيق الأزهار، ليغذى نسله وليتغذى به عند الحاجة؛ والنمل يبنى قريته فى جذوع الأشجار وفى الجدران وفى باطن الأرض، ويتخذ فيها غرفا يدخر فى بعضها قوته ويحفظ فى بعضها نوعا من الحشرات التى تفرز اللبن لغذائه.

ولو تأملت النمل لوجدته كالنحل فى شغل شاغل، تخرج النملة من قريتها، وإذا عثرت فى طريقها على حبة خفيفة حملتها أو جرتها، وإلا رجعت لتدعو شركاءها، وكلما مرت بنملة لمستها بزبانييها تستحثها على المساعدة، وبهذا يتضافر النمل جميعا على العمل. حاملا ما قدر عليه من أصناف الغذاء إلى قريته حيث ترتبه الأمهات، ويجزئنه متى خفق الإنبات. ويستمر النمل كادا على هذا المنوال طوال الصيف.

وقد شاهد جيمس هذه الغريزة ظاهرة الأثر فى كلب صيد ولد فى أرض إسطبل ونقل صغيرا إلى منزل فرشت أرضه بالطنافس، ورآه يحاول نبش الأرض ليخفى قفازا أمسكه بقمه، وما زال بالبساط حتى خدشه وأخفى به القفاز، فعل هذا أربع مرات ثم انقطع عن فعله لأنه لم يجد مجالا لتمرين هذه الغريزة. فلو كان ما فى فمه قطعة لحم مثلا بدل هذا القفاز، وكانت الأرض صالحة للنبش لاستطاع أن يدخر ما زاد على قوته ليركن إليه عند الحاجة.

هذه الغريزة مؤقتة تظهر إلى سن محدودة في الحيوان وفي الإنسان، وفي غضون هذا الزمن تذبل أو تنمو إذا أهملت أو روعيت.

نجد الطفل إذا أعطى مأكولا تناول منه ما استطاع، وأبقى في يده ما زاد عليه، وربما أودعه مكانا وأخفاه عن الأعين. كذلك نراه يجمع في "الحصالة" بقية مصروفه، حتى إذا امتلأت بالنقود كسرها وعبث بما فيها، والطفل محتاج دائما إلى من ينبهه على وجوه الصرف الحقيقية. وما ظنك بالآباء الذين يكتفون بجمع المال لأبنائهم ويهملونهم من تمرين ملكة الادخار؟ ما ظنك بهم وقد انقضت آجالهم وتركوا هذا المال للوراثة الذين لا يحسنون رقابته ولا يعرفون طرق تثميره؟ إنهم وقد فعلوا ذلك قد أخطؤوا السبيل الموصلة إلى صيانة أموالهم وبقاء ذريتهم على النهج الذين يأملونه، لأن الأموال لا يصونها إلا أناس خبروا ألوان المشقة في جمعها ومرنوا أنفسهم على استثمارها.

فالمال - وهو أخو الروح - وأجر للجهود المضنية، ووسيط نيل الحاجات، وستر من لا تسمو به الخصال، ولسان فصيح المقال، وسلاح في ميدان الكفاح والنضال - قد أصبح الشغل الشاغل للإنسان مهما كان شأنه في الحياة، فالساذج يدخر المال ويودعه الحفيرة ويخفيها عن الرقباء، والبخيل يودع ماله في الخزائن أو المصارف حارما نفسه لذة الانتفاع منه، والمقتصد المدبر يدخر ماله تدريجيا، فيشترى السلعة وينفد ثمنها نقودا يدخرها من إيراده، فيستفيد بذلك فائدة مضاعفة، ورب الأسرة يتحرى مواسم الحصاد، فيشترى من الغذاء كفايته طول عامه، فيستفيد قربها من متناوله ورخص ثمنها وأمن غائلة الأزمات، وكم عادت عواديها في أيام المحن.

وضروب الاحتيال لنيل أسباب الادخار وفيرة. ومع أننا نعلم أن منزله الإنسان في قومه، وكرامته بين نظرائه يحتمان عليه أحيانا الخروج بالنفقة عن حدود الطاقة، فلا نزال نقرر أن من مقتضيات الادخار أن يجعل مصروفه أقل من دخله، وأن

يفكر دائما فى تدبير شؤون الحياة. والمدبرات من النساء لا يشترين كل زى جديد، لأن هذا يستنزف أموالا طائلة، ولكنهن يتحيلن ويدخلن على ملبسهن القديم من التعديل ما يجعله ذا مسحة جديدة، وإذا بلى منه جانب رفونه أو ألصقن به بعض الزخرف، يسترن عيبه عن أعين الناقدات، وإذا أعياهن الأمر اتخذن منه ملابس للأطفال.

الفصل التاسع والعشرون

غريزة السرقة « كلبتومانيا »

أوردت الدكتورة " دوينيتا فرجسون " فى مجلة "كورنوت " أنه قد تعددت حوادث السطو على منازل إحدى المدن الأمريكية، عن طريق دخول الطابق الأول واقتحام غرفة نوم السيدات. وسرقة أدوات الزينة والحلى والثياب الداخلية وخطابات الغرام النسائية ليس غير وذلك فى جميع هذه الحوادث. ومن سارق واحد ارتكب نحو ٤٠٠ سرقة فى أقل من سنة، وأخيرا ضبطه البوليس متلبسا بآخر جرائمه وقد تبين من تفتيشه أنه يحمل عددا كبيرا من رسائل الغرام ويخفيها تحت ثيابه كما لو كانت أنفس شيء لديه.

وكان هذا اللص الرهيب شابا نحيل الجسم، قميء الهيبة دقيق العظام رقيق الحس لم يلبث أن اعترف وهو بين يدى المحقق بحقيقة جرائمه. وكان اعترافه طلقا مفصلا لم يحاول فيه إخفاء شيء مما ارتكب. ولما مثل أمام القاضى أعاد اعترافه وقال: إنه يعلم تمام العلم أنه اجترأ على القانون وخالف الوضع الاجتماعى الصحيح وأنه لذلك يستحق العقاب. ثم أضاف إلى قوله هذا أنه مع ذلك لم يكن يسرق لكى يعيش ، ولكنه كان يحس وهو يقترف جرائمه بأنه مدفوع إلى ارتكابها بعامل خفى لم يكن يدرك كنهه، وأنه لم يكن يستطيع كبح جماح نفسه إذا ما أرخى الليل سدوله عن أن يخرج فى تلك الجولات التى كان يقوم بها والتى كان يعود منها راضيا عن نفسه كل الرضا، مطمئنا كل الاطمئنان مستشعرا براحة نفسية تامة لم

يكن ليحصل على شيء منها أثناء النهار.

ومحاكم أمريكا - كمحاكم غيرها من بلاد الله - لا يتسع صدرها لمثل هذا الهذيان، فتوكل قاضيها على الله ، وأنزل بهذا المجرم الجريء الفاجر أشد العقوبة.

وكان مدير السجن الذى نزل فيه المتهم من رجال العصر الحديث الذين يقضون أوقاتهم فى القراءة والاطلاع على ما يستحدثه أولو الألباب من البحوث والدراسات، وكانت قد طغت على المكتبات فى بلده موجة العلوم النفسية الحديثة، فقرأ لفرويد ولأصحابه ما قالوا ، وعرف الشعور واللاشعور ، كما عرف 'العقد النفسية وكيفية انعقادها ووسائل حلها، ورأى أن يجرب شيئا من معرفته هذه مع ضيفه الجديد، لينظر هل يفلح فى العثور على عقدته ؟ ثم هل يوفق بعد ذلك إلى معالجة حلها؟ فصار يستدعيه إليه ويخلو به كلما سمح له عمله بذلك، ثم يحادثه ويحادثه ويستمع إلى حديثه ويوجهه فيه. ويسأله ويتلقى جوابه حتى وقف على قصة حياته ، وعلى التيارات التحتية التى أثرت فى سلوكها وانحرفت به عن طريق الهداية إلى ذلك الطريق المعوج الذى سلكه. فعرف كيف أنه فى طفولته أصيب بشلل الأطفال. وأن ذلك أثر فى نمو جسمه فنشأ ضعيفا عاجزا متخلفا عن أقرانه فى الجد وفى اللعب. وأنه كانت له شقيقة قوية البنية مفتولة العضلات تمارس كثيرا من الألعاب الرياضية، فكانت كثيرة الاستهزاء به والحط من شأنه والتهكم عليه والتنديد بضعفه وعجزه

فلما شب وكبر هفت نفسه إلى الفتيات اللاتى فى مثل سنه بحكم غرائزه الفطرية، ولكنهن أعرضن عنه وازدرينه. فشعر بشيء من التحول فى عواطفه نحوهن، وذهب الشوق وحل محله النفور، وتبخر الحب وانعقدت مكانه سحب الكراهية والمقت. وانعكست عاهته الجسمية على نفسه فشوهتها هى أيضا،وأصبح يحس بهذا الدافع الخفى الذى كان يدفعه إلى تحسس فرائصه فى مضاجعهن،

وسلب أمتعتهن وسرقة رسائلهن، وهتك أسرارهن والاستمتاع بآثارهن.

ووضع مدير السجن أصبعه على " العقدة " بعد أن تكشف له نفس صاحبه على هذه الصورة الواضحة.

فإن ما أصاب الشاب فى طفولته من الشلل وما أورثه هذا الشلل من عجز وما واجهت به أخته هذا العجز من زراية وسخرية - كل أولئك أشعر الصبى بنقصه وحقارة شأنه ولكن " غريزة السيطرة " - وهى إحدى الغرائز الرئيسية فى الإنسان - تأبى عليه أن يعيش فى هذا الهوان الذى سببته له عاهته. فهو لابد له من الكفاح للخروج من هذه الورطة ولربما يستطيع أن يرده إلى نفسه من الاعتبار ، ولكنه شب وكبر، وأصبح يلقى من الفتيات أقسى مما كان يلقى من أخته ، وفى الوقت الذى تفتحت فيه نفسه للصواحب والصديقات ، غلقت دونه الأبواب فى كبر واشمئزاز، وارتفعت حرارة عواطفه فلم يلق من جاراته إلا الماء البارد ، يلقى على ناره المشبوبة، إنها إذا الحرب قد أعلنت بينه وبين هذا الجنس الآخر المتمرد المتغطرس.

ورأى المسكين أنه استدرج إلى معركة لم يكن له يد فيها ، ودفعته " غريزة البقاء إلى الثبات والدفاع عن نفسه. فنزل إلى الميدان ولكن بسلاحه الخاص الذى يسرته له الطبيعة، والذى لم يكن يملك غيره، سلاح السطو والاغتصاب.

قام بأولى غزواته الليلية على مخدع فتاه ممن تأبين عليه ، مع كثرة صلاتها بشبان الحى أجمعين، فسلب، ونهب وخرج من الموقعة بغنائمه وأسلابه راضيا عن نفسه، معتزا بشجاعته وقد تولاه إحساس مريح بأنه عرف كيف يستر شخصيته التى تآمر المجتمع على أن يفقده إياها ، ومنذ تلك الليلة التى استشعر فيها تلك الراحة، جعل دأبه أن يقوم مع الليل فيجدد نشاطه ويفتتح ميادين جديدة، يستمتع فيها بإثبات شخصيته. وكان كل عمل يؤديه يرمز إلى ناحية من نواحى النقص الذى يحسه ويثير فى نفسه الشعور بالتعويض والرضا. فاقتحام المنازل كان يشعره بالقوة الجسدية التى لم يكن ينعم بشيء منها، لأنه مصاب بذلك الشلل الذى لا يشعره إلا

السقم والضعف؛ وسرقة أدوات الزينة وتلك التوافه التى يحرص عليها النساء كان يعوضه عن حرمانه من مجلسهن والاستمتاع بهن. وسرقة رسائل الغرام كانت تعوضه عن تحريرها بنفسه وتبادلها مع غيره.

تلك كانت قصة هذا الشاب العجيب، ولكن أعجب منها كانت قصة مدير السجن: فإنه عول على انتشال الشاب من ذلك التيار الذى جرفه وعلى العودة به إلى المجتمع سليما معافى مما ألم به. فما زال به حتى جعله يقتنع بأن مرضه وعجزه هما اللذان دفعا به إلى سلوكه الحالى، وأنه كان ضحية أخته القاسية بقدر ما كان ضحية ذلك العجز الطبيعى، وأنه لو كان فى طفولته قد لقى ما يخفف عنه، وطأه عاهته بالمحافظة على شخصيته والقيام على توجيهه نحو العمل الذى يلائم حالته لما اندفع نحو السرقة ليعوض بها ما فاته على النحو الذى قدمنا.

وما كاد الشاب يرى نفسه على حقيقتها فى ضوء هذا التحليل حتى أبدى رغبته فى الإقلاع عن تلك العادة التى تحكمت فيه وصار يلح فى طلب أى عمل مشروع ليمارسه، فلما أرشده المدير إلى العمل الذى اختاره له ، أقبل عليه بكل جوارحه حتى أتقنه، وسار فى السجن سيرة محمودة، فلما أتم مدة عقوبته خرج، وهو يشعر أنه قد خلق خلقا جديدا وزكاه مدير السجن لدى شركة كبيرة؛ فقدمت له عملا مما تعلمه وهو فى السجن، فكان فى عمله الجديد موضع رضاء من معه، وانزاح عن نفسه إحساسه، بنقصها وصلح حاله، وتزوج وعاش بقية عمره عيشة راضية.

مرضى قابلون للشفاء:

الواقع أن معظم المصابين بداء السرقة قابلون للشفاء إذا كفلت لهم 'العناية الواجبة ، وقد اهتم الأخصائيون فى أمريكا بدراسة هذا المرض فكشفوا عن أسراره، ونجحوا فى علاجه، والقصة التالية أفضل دليل على ما نقول:

منذ خمس سنوات ، قبض بوليس إحدى المدن الأمريكية على كاهن معروف فيها متلبسا بسرقة سيارة، واعترف الرجل أمام المحقق بأنه اعتاد سرقة السيارات،

وكشف له عن الحوادث التى ارتكبها ولم يضبط فيها فأحاله المحقق إلى المحكمة الجنائية.

وحاول محامى المتهم أن ينفى عنه جريمة السرقة، وينسب إقدامه عليها إلى مس فى قواه العقلية، وأحاله القاضى إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث ظل يعالج بالتحليل النفسى مدة عام كامل حتى شفى من داء السرقة، واستطاع أن يستأنف عمله فى خدمة الدين، وهو الآن من أشهر رجاله فى أميركا. ويتقاضى مرتبا ضخما. وينعم بمواهب عقلية ممتازة، ويحظى بالاحترام.

أما إصابته بداء السرقة فترجع إلى العوامل التالية التى أدلى بها فى اعترافاته لأطبائه: قال الرجل: " منذ طفولتى وقفت نفسى على أن أكون كاهنا لكن أمى كانت تنهانى عن هذا المهنة، لأنى فى نظرها لن أصلح لها فكانت تنتقدنى بشدة وتجسم هفواتى، وتزجرنى وتعاقبنى على أى خطأ يبدر منى، ولم أستطع اختيار مهنة أخرى لأن الأمر كان قد قضى فيه، والتحقت بكلية اللاهوت، وأتممت دراستى وعينت كاهنا وكنت فى قرارة نفسى أمقت هذه المهنة، وأشعر بشيء من النقص كان يعوضنى عنه إعجاب الناس، وتقديرهم لعملي، ثم تزوجت ولم أوفق فى حياتى الزوجية لأن زوجتى كانت كأمى تجسم من أخطائى، وتنتقدنى انتقادا آمرا وتزعم أننى لا أصلح لا للحياة الزوجية، ولا لخدمة الدين ولا لأية مهنة أخرى، فضعفت ثقتى بنفسى، وفقدت سيطرتى على الزوجة وعلى المنزل وتولدت عندى الرغبة الملحة فى السرقة، سرقة الأشياء الكبيرة التى تشعرنى بالمقدرة والسيطرة والزعامة فوجدت أن هذه الأمور يمكن تحقيقها فى سرقة السيارات، فإنى فى قيادتها على الصورة التى أريدها وفى توجهها كما أشاء، كنت أشعر بتمام الرضا النفسى وبالتعويض الكامل عن كل نقص أصابني.

وقد سهلت هذه الاعترافات مهمة الأطباء. فنجحوا فى علاجه، وأنقذوا الرجل من دائه الخبيث. ويقول العلماء: إن مرض السرقة مثل مرض الكذب، ينشأ كل

منهما من العوامل النفسية؛ كما ينشأ من الاضطرابات الفسيولوجية، وضعف الغدد المتصلة بالمخ، فلا يستطيع، أن يؤدى وظيفته كاملة، كما ينشأ أيضا من عوامل اجتماعية كالمنازعات التى تحدث بين الأبوين وتؤدى إلى هدم السعادة المنزلية والخصومة بين أفراد الأسرة الواحدة أو الطلاق، فيتأثر الأولاد - وعلى الأخص الفتيات بمسلك آبائهن أو أمهاتهن، فيؤثر العزلة على الاختلاط، إذ يعتقدون أن الناس يتهكمون عليهن ويسخرون منهن فينشأ عندهن مرض السرقة. وكذلك ينشأ المرض من خيبة أمل الفتاة فى حبها أو المرأة فى حياتها الزوجية، أو عدم توفيق الشباب أو الفتاة إلى الزواج فالرجل الأعزب والفتاة العانس قد يصابان بمرض السرقة.

فقد حدث أن ضبطت فتاة مثقفة غنية من أسرة كبيرة متلبسة بسرقة دراجة وعند التحقيق معها أعربت عن أسفها على ما فعلت، وأخبرت المحقق بأنها تجد لذة كبيرة فى السرقة، ولذلك ترغب فيها وأن هذه الرغبة الملحة نشأت عندها منذ أن أهملها زوجها.

ولما كان المحقق من المهتمين بعلمى النفس والاجتماع، فقد مضى يستدرجها حتى كشفت له عن تاريخ حياتها فقالت:

« إنى الشقيقة الوحيدة لخمسة أخوة. اعتادوا أن يضايقونى فى طفولتى، ويطلقون على كنايات التهكم والسخرية، ولما أصبحت فتاة حاولت أن أظفر بإعجابهم فأخفقت وكانوا يركبون الدراجات فتعلمت مثلهم ركوب الدراجة، وأخذت أتفنن فى قيادتها، حتى كنت أسير أسرع منهم، وأتفوق عليهم فى المسابقات؛ وقد عوضت عن هذه الهوية المفيدة ما كنت ألقاه من عنف واضطهاد.

وتزوجت وسعدت فى حياتى الزوجية وقتا قصيرا، ثم أهملنى زوجى لانهماكه أيضا فى حياتى الزوجية، وشعرت بالرغبة فى سرقة الدراجات وحدها، لأنها كما كانت تشعرنى بالرضا وأنا فتاة، كانت تشعرنى كذلك بالرضاء بعد أن تهدم صرح

سعادتي الزوجية، فأنا لا أسرق إلا الوسيلة التى أشعر أنها تعوضنى عن نقض طارئ.

وهكذا ثبت للمحقق أن المرأة كانت حسنة النية، إذ كانت تسرق الدراجات وتغير طلاءها وتبيعها لأمهات الأطفال الذين ذهب آباؤهم إلى ميادين القتال عبر البحار؛ ثم ترسل الثمن إلى جمعية الصليب الأحمر.

ولما كانت قد أبدت الرغبة الخالصة فى الإقلاع عن السرقة، كان لابد من أن يعود إليها زوجها. وهذا ما أوضحه له الطبيب النفساني، واقتنع الزوج، وعاد إلى العناية بزوجته وعندئذ شفيت.

من هو الإنسان العادي؟

الإنسان العادى فى تعرف الدكتور " ساندو لا راند " الطبيب النفسانى العالمى هو الشخص الذى يستطيع أن يقيم علاقات اجتماعية مع الناس على اختلاف ميولهم وبيئاتهم وأن يؤدى عملا مشروعا وأن يهيئ الصفاء فى الأسرة، وأن يسعد فى حياته الزوجية، فإذا خاب فى أية ناحية من هذه النواحى لسبب قهرى أو غير إرادى أو لعدم تأدية أعضاء الجسم لوظائفها كما يجب، تولد عنده مرض السرقة.

فالثابت أن معظم المرضى بهذا المرض الداهم أشخاص اضطربت عواطفهم أو أفكارهم فلم يعودوا يعرفون كيف يسوسون أمورهم أو ينجحون فى أعمالهم، والسبب المباشر لذلك هو إخفاق آبائهم فى تربيتهم التربية الواجبة بسبب خيبتهم فى حياتهم الزوجية وعجزهم عن إقامة صرح السعادة العائلية.

ويستطرد الدكتور " لوراند " فيقول أن مرض السرقة يشبه إلى حد كبير، المشى فى أثناء النوم، وكلاهما مرض نفسى فالشخص الذى ينهض من نومه وهو غير واع ويسير فى المنزل ويؤدى أعمالا معينة أو يسير على حافة الشرفة إنما يفعل ذلك بدوافع نفسية وهو حين يعود إليه عقله الواعى لا يذكر شيئا مما فعل أثناء النوم، إنما الفرق بين الحالتين أن المصاب بمرض السرقة يسرق وهو فى حالة الوعي.

أما الذى يمشى أثناء النوم فإنه لا يكون واعيا. على أن السارق فى الحالة الأولى سرق دائما أشياء ترمز إلى التعويض عن نقص، فهو قلما يفكر فى الناحية المادية وحين يعرف المحلل النفسانى نوع الأشياء المسروقة يسهل عليه معرفة الدافع فيوفق فى علاجه.

ويقول رجال المباحث الجنائية والبوليس السرى أن بعض النساء تصاب فى أيام الحمل بمرض السرقة وسبب ذلك يرجع إلى اضطراب وظائف الجهاز التناسلى فيؤثر فى باقى أعضاء الجسم إذ يكنّ فى حالات عديدة قد عمدن إلى الامتناع عن الحمل مدة طويلة، ثم عدن إليه ويعامل القضاة الحوامل اللائى يسرقن فى أثناء مدة الحمل دون أن يكن فى حاجة إلى السرقة، بمنتهى الرحمة والشفقة مراعاة لظروفهن.

المرأة والجريمة:

قالت إيريش تيمس: إن الفتاة التى تسطو على البيوت مألوفة فى دبلن فقد قدمت للمحاكم فتيات بتهمة السرقة، وتنقسم أولئك الفتيات إلى قسمين: الأول من كان لها أخ عضو فى إحدى العصابات، والثانى من كانت تنتمى إلى عصابة كل أعضائها من النساء.

ولكن الجرائم التى ترتكبها الفتيات والنساء يغلب عليها بصورة عامة طابع خاص وهى السرقة من البيوت أو المخازن أو خطف حقائب السيدات فى ملاهى الرقص أو الصناديق المخصصة لوضع الثياب فى أماكن الاستحمام.

وليس من شك فى أن اعتياد النساء على السرقة والأسباب التى دفعتهن إليها مشكلة اجتماعية خطيرة تحتاج إلى درس وعلاج.

وحسبنا أن نذكر تلك الفتاة التى بدأت ترتكب السرقة من منزل مخدومها، فإن المحتمل أن تكون من إحدى المقاطعات النائية التى يعيش ذووها فى فقر مدقع، فجاءت إلى دبلن ووجدت عملا فى سهولة ولا بد أنها لاحظت الفارق العظيم بين قريتها والعاصمة، ورأت مظاهر المدينة فكثرت رغباتها ومطالبها

وسرعان ما تشعر بحاجتها إلى ترتيب شعرها على أحدث طراز وإلى شراء مستحضرات التجميل ورغبتها فى الحصول على ثياب أنيقة. وقد تكون تعرفت على أحد الأصدقاء من الرجال فيحرضها على سرقة النقود.

وهنا تبدأ فى السرقة، ولابد أن يكتشف أمرها طال عليها الوقت أو قصر فإذا اكتفى مخدومها بطردها قررت البقاء فى دبلن فى انتظار العثور على عمل ولكنها - إذا لم تكن تحمل كتاب توصية - لا تستطيع أن تقيم فى الأماكن المخصصة لسكنى الفتيات العاملات لأن هذه الأماكن تحاذر من قبول الفتيات غير المعروفات. وعندئذ قد تضطر إلى البحث عن غرفة تأوى إليها ، ويحتمل أن تشترك فى تلك الغرفة مع امرأة أخرى أمهر منها وأعرق فى السرقة والجريمة. فإذا كانت من النوع " الخام أو قليلة الذكاء سهل على زميلتها أن تسيطر " عليها، وأن توجهها فى طريق الإجرام فتصبح من بنات الشوارع.

وتتبع ذلك مرحلة من الأمراض، وانحطاط الأخلاق والأعصاب الناشئ عن الإجهاد. وقد تنتقل بعد هذه المرحلة إلى مستشفى الأمراض العقلية أو إلى أعماق السجون

ومن بواعث الارتياح أن يكون هناك احتمال لتدخل مراقبات سلوك النساء فى الوقت المناسب للحيلولة دون تدهور الفتاة إلى الحضيض أو تدخل المحكمة، فترسل الفتاة إلى إحدى الصلاحيات فتبتعد عن الإغراء والتحريض وتستقيم سيرتها.

أما إذا استمسك مخدومها - عند اكتشاف سرقاتها - بوجوب تقديمها للمحكمة فإن القاضى يؤجل القضية إلى أن تستطيع إحدى مراقبات السلوك درس الظروف التى أحاطت بها. وإذا كانت الفتاة صغيرة السن فقد تقترح المراقبة الاكتفاء بردها إلى أهلها، ومتى كان محيطها العائلى فاسدا أرسلت إلى مدرسة صناعية.

وإقدام فتاة المدينة على السرقة رغم خطره، أخف عاقبة من لجوء فتاة القرية إلى هذه الجريمة، فللأولى عادة بيت تقطن فيه مهما كان هذا البيت غير صحى أو غير ملائم وظروفها خير من تلك التى تلجأ إلى السكنى الرخيصة. ومهما يكن من شيء تظل إحدى الفتاتين تحت المراقبة، وقد تساعدان على الالتحاق، بعمل أو ترسلان إلى منازل خاصة تشرف عليها الأجهزة الحكومية إلى أن تقوم الدلائل على رجوعهما إلى الاستقامة.

ملاحظات عن جريمة قتل:

" فى كل جريمة تقع بعض تصرفات غير طبيعية تكفى إذا تنبه لملاحظتها عقل منطقى دقيق خبير بطبائع النفوس البشرية لأن تميط اللثام عن سرها ودوافعها وتهدى لفاعليها ".

هذه قصة واقعية حدثت بإحدى مدن أمريكا. وهى قصة عادية يتكرر مثلها فى عالم الإجرام فى البلاد كلها ليس الغرض سرد حوادث تثير اهتمام القراء ، ولكننا نقصد إلى عرض أسلوب البحث والتحقيق المثمر فى مثل هذه الحالات.

وجد أحد التجار فى إحدى مدن أمريكا مقتولا فى مسكنه الخاص الذى يقطن فيه هو وزوجته وحدهما، ووجدت زوجته وقد أوثقت برباط إلى مقعد فى المطبخ وذكرت الزوجة أنها أحست حوالى الساعة الثانية عشرة بعد منتصف تلك الليلة بحركة فى المنزل، فهبت من نومها، واتجهت إلى المطبخ مخترقة قاعة الطعام التى تتوسط الشقة فلم تشعر إلا بهجوم رجلين عليها جاءاها من خلفها، وسارع أحدهما بسد فمها، وتسلل الآخر إلى غرفة النوم، حيث يرقد زوجها، وبعد ذلك بلحظة سمعت طلقا ناريا، وعلمت أن زوجها قتل. وكل ما استطاعت أن تتبينه من ملامح الجانيين أن أحدهما طويل والآخر قصير.

وتولى رجال التحقيق بحث الوقائع واتضح لهم أن القتل كان بقصد سرقة مبلغ سحبته الزوجة فى اليوم نفسه من البنك، وبعد تعقب كل من يشتبه فيهم فى الجهة،

وتعرف كل من يصح أن يكون قد حام حول البنك فى ذلك اليوم منهم لم يستطع التحقيق أن يصل إلى نتيجة فى تحديد الفاعل فى هذه الجريمة.

وبعد ثلاثة أيام من الحادث رأى المحقق أن يستعين بخبير من رجال المباحث بخبرته الواسعة بالجرائم والمجرمين سبق أن أماط اللثام عن أسرار كثير من الجرائم الغامضة.

حضر هذا الخبير وهو رجل هادئ، لايكاد يشعر الرائى بأنه رجل غير عادى، وهو فى الواقع ليس أكثر من ذلك، وكل ميزته أن يستطيع أن يكشف ما هو غير عادى من التصرفات التى تصدر عن المجرمين وبذلك يمسك بالخيط الذى يجذب به الحقائق من أعماقها.

كان أول ما قام به الخبير أن اتصل بالمحقق واستمع إلى ما ورده من الوقائع وما اتجهت إليه شبهته. وأراد المحقق أن يتصل بالمشتبه فيهم ويستمع إلى أقوالهم.

ولكنه قال فى رفق إنه يفضل أن يبدأ بزيارة مكان الجريمة. فوافقه المحقق، وقال له: إنه سيجد هناك أرملة القتيل، وقد يستفيد منها بعض الفائدة على الرغم من فداحة ما تشعر به من الآلام الفاجعة التى رزئت بها.

قصد الخبير إلى سكن القتيل تصحبه سكرتيرته الخاصة التى تدون كل ما يقوم به فوجد الأرملة جالسة وبيدها إنجيل تقرؤه فقال لها:

صباح الخير يا سيدتى، إنى أنا رجل المباحث الذى دعى للنظر فى القضية وإنى أرجو إلا أزعجك كثيرا، فأنى أعلم مبلغ ما سببته لك الفاجعة من متاعب وما أرهقك به رجال التحقيق من أسئلة. وكل ما أرجوه أن تأذنى لى بإلقاء نظرة على المسكن ومحتوياته.

فشكرته السيدة وراحت تبكي، فربت كتفها وطيب خاطرها، قائلا لها: ما جدوى البكاء وهو لا يرجع ذاهبا؟

ثم انصرف إلى مهمته، وأخذ يرسم تخطيطا للمسكن، وعرف أنه مكون من ثلاث غرف إحداهما للنوم وبها سرير واحد ينام عليها الزوجان، وغرفة جلوس، وكلتا الغرفتين لها منافذ خارجية على الشارع ثم تليهما قاعة الطعام وليس لها نوافذ على الخارج، ثم تتصل قاعة الطعام بالمطبخ، وهو على شارع عام وبه منافذ، وبعد أن أتم المعاينة وأتم الرسم، عاد إلى السيدة وقال:

والآن أيتها السيدة أرجو منك أن تتفضلى إذا لم يكن فى ذلك إزعاج لك بتمثيل ما حدث فى تلك الليلة تمثيلا دقيقا. وهنا فعلت قائلة:

– لقد كنت نائمة فى الغرفة مع زوجي.

– وأين كان وضعك وأنت نائمة .

– كنت على الطرف الخارجي.

– حسن هذا يفسر قيامك على أثر سماعك الحركة دون أن يستيقظ زوجك .

– وسمعت حركة فخرجت من الغرفة إلى قاعة الطعام متجهة نحو المطبخ.

– أظن يا سيدتى أن الليلة كانت مقمرة، ولا بد أن الضوء كان يتسرب إلى المكان من النوافذ.

– هذا صحيح. ولكن قاعة الطعام لم تكن مضيئة إضاءة كافية. ولهذا لم أتنبه لوجوده أحد ولم أشعر، وأنا على أبواب المطبخ، إلا وقد هوجمت من الخلف. وسارع أحد المهاجمين إلى سد فمى وتقييد حركتى بينما أسرع الآخر إلى شد وثاقى، وقيدت إلى مقعد بالمطبخ.

– هل تبينت ملامح الرجلين؟ أظن ضوء القمر فى المطبخ كان يسمح بشيء من ذلك

– أنت تدرى حالة الإنسان فى مثل هذه الظروف. كل ما استطعت أن أتبينه أن أحدهما طويل والآخر تصير

- وهل كان الطويل يلبس قبعة صغيرة ويضع على عينيه نظارة سوداء؟

- يا الله! هذا صحيح. كيف غابت عنى هذه الملاحظة فلم أذكرها إلا الآن وأنت توردها؟

- استمرى يا سيدتي.

- ثم تسلل الرجل القصير إلى غرفة النوم وسمعت طلقا ناريا

- ماذا حدث عند سماع الطلق؟ هل قال أحد الرجلين شيئا؟

- نعم. قال الرجل الطويل القائم إلى جوارى عندما سمع الطلق: ما هذا؟ هل كانت له ضرورة؟ فأجابة القصير من الغرفة: لم يكن من ذلك بد، فقد استيقظ الرجل وأراد مقاومتي.

- وأين كان المال الذى سرق؟

- كان تحت الوسادة.

- شكرا يا سيدتي.

والتفت الخبير إلى سكرتيرته وسألها إن كانت قد أثبتت ذلك كله. ثم استأذنا وانصرفا.

وفيما هو خارج التقى الخبير بطائفة من مراسلى الصحف، سمعوا بنبأ حضوره، فبادروا ليتحسسوا منه جديدا عن القضية، فقال لهم: لقد أعطتنى أرملة القتيل أوصاف أحد الرجلين وقد كنت كونت عند حضورى فكرة عن القاتل، وأظننى قد انتهيت إلى ما يؤيد فكرتي.

وقصد الخبير إلى المحقق فسارع إليه فى لهفة قائلا: ما وراءك؟ لقد نقل إلى الصحفيين أنك اهتديت إلى الفاعل، فمن هو؟

فقال: ستتبينه حين تسمع المحضر من سكرتيرتي.

وأمرها أن تتلو المحضر، وبعد أن فرغت من تلاوته. قال المحقق: لم تزدنا

جديدا، فكل ما ذكرته كنا نعرفه من قبل. وأين من هذا ما تقوله من أنك اكتشفت القاتل؟ إن كل ما وصلت إليه أنك علمت ٓن القاتل كان يلبس قبعة صغيرة ويضع منظارا على عينيه – وهى معلومات قيمة أعجب كيف فات الأرملة ذكرها لنا – ولكن كيف تستطيع من هذه الأوصاف وحدها الاهتداء إليه.

فقال له الخبير: ألم تتطلع من هذا المحضر أن تحدس من القاتل؟! إن القاتل يا سيدى هو أرملة القتيل.

– هذا عجيب! إنها امرأة صالحة معروفة بالاستقامة والمواظبة على الكنيسة وفوق ذلك فقد وجد فى فمها وجسمها آثار مجهوداتها مع القاتلين.

– اسمع يا سيدى حجتى القاطعة فى أنها هى القاتلة:

أولا : لقد ذكرت أن أحد الرجلين بعد أن سمع الطلق خاطب الآخر قائلا: لماذا قتلته؟ وهل كانت هناك ضرورة ؟.

فأجابه الآخر قائلا :« لقد استيقظ وأراد للمقاومة فلم يكن من قتله بد ».

هل تتصور أن هذا طبيعي؟ ضع نفسك مكان أحد الرجلين وتصور أنك سمعت طلقا فى الغرفة الأخرى. فهل تقطع بأن المقتول هو الرجل النائم لا زميلك وتخاطبه بلهجة الواثق هكذا؟ إن حالة الشك والذعر ، والقلق التى تداخلك لا تسمح بمثل هذا الوثوق. فهى قصة غير طبيعية تتم عن الوضع والاختلاق

ثانيا: لقد ذكرت أنها سمعت حركة فقامت من نومها لتتبينها. هل هذا طبيعي؟ هل تعلم أن امرأة فى الوجود ترقد إلى جانب زوجها فتحس بحركة غير عادية تبعث على الهلع فتقوم من غير أن توقظ زوجها لتتولى بنفسها تبينها؟ أليس الطبيعى أن تبادر إلى إزعاجه وتحمله على أن يقوم هو بنفسه لحمايتها ودرء الخطر عنها؟

أما الوثاق والجروح والبكاء والإنجيل فكلها حيل بدائية يلجأ إليها البسطاء من المجرمين

الرأس والجنس:

هل هناك علاقة بين هيئة الرأس والجنس؟ هل ينبغى لكل من وهبه الله رأسا ضخما وجبهة عريضة أن يكون من عنصر معين؟ لقد أنفق علماء الإنسان فى ذلك جهدا ووقتا عظيمين. ولكن الدكتور فرانز فايدن رايخ البحاثة فى متحف التاريخ الطبيعى يؤكد لغيره من العلماء أنهم يضيعون وقتهم هباء إذا أصروا على تقرير قواعد فى هذا الموضوع. بل هو لا يؤيد غيره من العلماء الذين يريدون تقسيم البشر طبقات بحسب مقاييس رؤوسهم؛ ويذهبون إلى أن الأوربيين ينقسمون إلى طبقتين: طبقة عليا ذات رءوس مستديرة، وهم شعوب الشمال وشعوب البحر الأبيض، وطبقة دنيا ذات رؤوس طويلة أو متوسطة وهم أهل أوروبا الوسطى « الألبية والدينارية » ويظن أنهم نتجوا من الاختلاط مع شعوب مستديرة الرأس الآتية من آسيا.

فالآن قد انتهى الدكتور « فايدن رايخ » بعد أن قاس عددا كبيرا من الرؤوس إلى النتائج الآتية :

أولا : أن الآسيويين – وخاصة المغول – الذين كان يظن أنهم أصل الرؤوس الأوربية المستديرة – هم فى الواقع ذوو رؤوس مستطيلة لا مستديرة.

ثانيا : أن الشعوب الوحيدة ذات الرؤوس المستطيلة هى الشعوب المتوحشة فى إفريقية وأستراليا.

ثالثا : أن الناس المتحضرين من كل شعب تستدير رءوسهم شيئا فشيئا.

الغريزة الجنسية عند الفتيات :

قالت مجلة « ديتكتيف »: « ليس أفعل فى النفس من سلطان الغريزة الجنسية التى إذا ما ركبت رأس إنسان وتمكنت منه أفقدته عقله وسيطرت على حواسه وصيرته عبدا لها.

ونحن نعرض لهذا الموضوع على طريقتنا التحقيقية، فلا نتجاوز سرد الحوادث وعرضها أمام القارئ كفيلم السينما؛ كما أن فى ثنايا الحوادث التى أوردناها شرح لطريقة جديدة فى علم النفس هى أحدث وسائل الكشف عن جرائم الغريزة الجنسية وإبراز مكنونات النفس وسيرى منها القارئ أن كثيرين ممن يتهمون فى الجرائم الخلقية ليسوا إلا ضحايا لأحلام الفتيات وتسلط الغريزة على عقولهن، واختلاطها بتحفظهن مما يحدث تشويشا وتشعبا فى تفكيرهن يؤدى إلى اضطراب وتصور الأحلام أو القصص كأنها ضعيفة: فيكون الالتهام المختلق.

ولعل كل منا يذكر أن صديقا أو شخصا معروفا بحسن الخلق واستقامة السيرة قد اتهم فجأة بأمر مشين، وربما ذهب ضحية هذا الاتهام وقضى نحبه غما وكمدا لما أصابه من سوء السيرة.

فهل كل هؤلاء مذنبون حقا، وأى عامل يحمل الفتاة على اتهام شخص معين بما لم يفعله أو يفكر فيه؟ هذا ما كشفت عنه الحوادث السابقة، ونرجو أن يدرك القارئ ذلك جيدا فى مطالعتها ففيها سر المرأة أو الرجل، أو سر الطبيعة. أم الغرائز كلها.

الفهرس

الموضوع | **الصفحة**